2020
1.1.2020

أنطونيو سكارميتا

رقصة النصر

رواية

ترجمة: عبد السلام باشا

أنطونيو سكارميتا

رقصة النصر

رواية

ترجمها عن الإسبانية:

عبد السلام باشا

رقصة النصر

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

EL BAILE DE LA VICTORIA

رقصة النصر - رواية

Antonio Skármeta

تأليف: أنطونيو سكارميتا

ترجمها عن الإسبانية: عبد السلام باشا

تصميم الغلاف: ليلى شعيب

ISBN: 1 - 82 - 540 - 9933 - 978

الطبعة الأولى: 2019

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - ص ب: / 9838/

هاتف-فاكس: / 6133856/ 11 00963

جوال: 00971557195187

البريد الإلكتروني: addar@mamdouhadwan.net

الموقع الإلكتروني: addar.mamdouhadwan.net

twitter.com /AdwanPH fb.com /Adwan.Publishing.House

EL BAILE DE LA VICTORIA © Antonio Skármeta, 2003

جميع حقوق الترجمة العربية محفوظة للناشر دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع. لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو أو بأية طريقة دون موافقة الناشر الخطية.

إلى خورخي مانريكي، ونيكانور بارا، وإيراسمو دي روتردام
ثلاثيّ الآس الذي أربح به!

كلّما كان الأزرق أكثر عُمقاً، ازداد جذبُه للبشر نحو المُطلق، وأيقظ فيهم رغبةً أكبر نحو النقاء والمتخيَّل.

فاسيلي كاندينسكي

1

أصدر الرئيس قراراً بالعفو عن السجناء العاديين في الثالث عشر من حزيران/ يونيو، يوم عيد سان أنطونيو دي بادوا.

قبل إطلاق سراح الشاب أنخيل سانتياغو طلب مأمور السجن مثوله أمامه. جاء في حالٍ يُرثى لها، بالجمال الوحشيّ الجدير بسنواته العشرين، بالأنف الشامخ، وخصلة شعرٍ ساقطة على وجنته اليسرى، وفي وقفته كان يتحدّى ممثّل السلطة بنظرته. كانت كريّات الجليد تضرب الزجاج خلف القضبان الحديدية، وتتفتّت إلى طبقةٍ ثخينة من الغبار المتراكم.

بعدما فحصه المأمور بنظرةٍ خاطفة، عاد بعينيه إلى مباراة الشطرنج المتوقفة، وداعب ذقنه خلال وقتٍ طويل بينما يفكّر في أفضل لعبةٍ في تلك اللحظة. قال فجأةً، بنبرةٍ مشوبة بشيءٍ من الحزن:

- هكذا إذاً، فأنت ستخرج يا فتى!

ثم رفع الملك في الحال، وأسند صليب تاجه الصغير على أسنانه العلوية. كان يرتدي معطفاً وكوفيّة بلون القهوة من صوف الألباكا، وعلى حاجبيه تستريح جزيئات كثيرة من قشر الشعر.

- نعم، يا سيّدي المأمور. لقد تجرَّعت عامين هنا.

- لابدّ أنك لن تقول إنهما مرَّا كالهواء.

- لم يمرًّا كالهواء يا سيّد سانتورو.

- لكن، لابدّ أن الخبرة إيجابية على نحوٍ ما.

- لديّ بضعة مشاريع هامّة بعد الخروج.

- قانونية؟

ركل الفتى حقيبة ظهره التي تحتوي على أغراضه القليلة ركلاتٍ خفيفة. مسح العماص من إحدى عينيه، وابتسم ساخراً لينفي الصدق عن إجابته بتعبيره.

- إنها قانونية تماماً. لماذا استدعيتني يا سيدي؟

قال المأمور وهو يدقّ بقطعة الملك على أنفه:

- أمران: أنا ألعبُ بالقطع البيضاء وحان دوري لتحريك قطعة، ما هي الخطوة التالية لوضع القطع السوداء في «كشّ ملك»؟

نظر الفتى إلى الرقعة باحتقار، وحكَّ طرف أنفه بقوّة.

- ما هو الأمر الثاني يا سيدي؟

أعاد الرجل وضع الملك على الرقعة المربّعة، وابتسم بحزنٍ شديد لدرجة أن شفتيه قد انتفختا كأنما يوشك على البكاء.

- أنت تعرفه.

- لا أعرف.

- مشروعك هو قتلي.

- لا أهمية كبيرة لك في حياتي لكي يمكن القول إن مشروعي هو قتلك.

- لكنّه أحدها.

- لم يكن ضرورياً أن تلقي بي عارياً في تلك الزنزانة المليئة بالوحوش في الليلة الأولى. هذا الأمر يترك علامة لا تنمحي، يا سيدي المأمور.

- ستقتلني إذاً!

شحذ أنخيل سانتياغو حواسّه وهو يشعر بخوفٍ مفاجئ من وجود من يستمع لهذا الحوار، ومن تعريض حرّيّته للخطر بسبب إجابةٍ رعناء. قال:

- لا، يا سيد سانتورو، لن أقتلك.

أمسك الرجل بالمصباح المعلَّق الذي كان متدلّياً فوق لوحة الشطرنج، وأداره كأنه مصباح يُستخدم أثناء تحقيقات الشرطة ليوجِّه الضوء إلى وجه الفتى. احتفظ به على هذا الوضع لبرهةٍ طويلة دون أن ينطق، ثم أنزله بعد ذلك، بينما يدفعه لكي يضرب بشعاع نوره من جدار إلى آخر.

ازدرد لعابه وقال بصوتٍ منكسر:

- فيما يتعلَّق بي، كانت مشاركتي في تلك الليلة فعلَ حبٍّ. المرء يشعر بالجنون أيضاً خلف هذه القضبان.

- اصمت أيها المأمور!

أخذ الرجل يسير في الغرفة كأنما يبحث عن كلماتٍ في الأرض الأسمنتية. توقَّف في النهاية أمام الفتى وخلع كوفيّته ببطءٍ دراميّ. عرضها عليه بتواضعٍ مفاجئ دون أن ينظر إلى عينيه.

- إنها قديمة، لكنها تدفئ.

فركها أنخيل بين أصابعه وبدا عليه التقزّز. استقرّت عيناه على صورة رئيس الجمهورية ليتفادى وجه سانتورو. كانت الديكور الوحيد على ذلك الجدار المتآكل بفعل الرطوبة.

- إنها كوفيّة جيدة. من صوف الألباكا. ألباكا بيروفيّة.

متشجّعاً بالقشعريرة التي سرت في جسده، رفع نظرته وواجه عيني الفتى.

كانت عبارة «فِعلُ حبٍّ» قد أشعلت وجه الفتى كأنما شرب وقوداً. كان حاجباه مخضّبين ببقعةٍ قرمزية.

- هل يمكنني الذهاب الآن، يا سيد سانتورو؟

تحرَّك الرجل كأنما ليودّعه، لكنّ التعبير الجليديّ على وجه أنخيل أوقفه. فتح ذراعيه معبّراً عن استسلامه، كأنما يرجو العطف.

- خُذ الكوفيّة يا فتى!

- أشعر بالتقزّز من امتلاك شيء يخصّك.

- هيّا، خذها! كن رحيماً!

قرّر الشاب أن أيّ شيء سيكون أفضل من إرجاء الخروج. تقدَّم نحو الباب وهو يجرجر الكوفية. توقَّف هناك، وقال بعد أن بلّل شفتَيه باللعاب:

- تقوم بترقية الجندي السادس إلى وزير، القطع السوداء تأكل الجندي، حينئذٍ تضع الفيل أمام الوزير: «كش ملك!».

رفع مأمور السجن سمّاعة الهاتف في الحال، وطلب من الحرس أن يأتوا إليه بالسجين ريجوبرتو مارين. أشعل سيجارة بينما ينتظره، وأطلق دفقة الدخان الأولى من أنفه. ذهب إلى الموقد الصغير ووضع إبريق الماء فوقه.

وضع قهوةً سريعة التجهيز في كوبَين وأضاف الكثير من السكر. عندما غلى الماء صبّه في الكوبين، وقلّب المحتوى بالملعقة الصغيرة الوحيدة المتبقية في أدوات المائدة الحكومية.

أدخل الحرسُ السجينَ في تلك اللحظة، فأشار له مأمور السجن إلى المقعد والقهوة. كان شعر مارين لزجاً أشعث، ونظرته كئيبة مراوغة، وكان جسده على حالة من التوتّر الشديد. تناول الرشفة الأولى من القهوة خلسةً تقريباً.

- كيف حالك يا مارين؟

- كالعادة يا سيّدي المأمور.

- من المؤسف ألا تنتفع بالعفو.

- لست مجرّد لصّ دجاجٍ يا سيدي. أنا في السجن بسبب القتل.

- لابدّ أن الجريمة كانت خطيرة، لقد صدرت بحقّك عقوبةٌ مؤبّدة.

- نعم.

- كانوا أسخياء للغاية معك. كم جريمة قتلٍ ارتكبت؟

- أكثر من واحدة يا سيدي المأمور.

- هكذا فإن احتمالات خروجك لحسن السلوك بعد بضع سنوات تُعتبر ضئيلة.

- بالأحرى معدومة. لم يتم إعدامي رمياً بالرصاص إلا بعد توصيةٍ حازمة بعدم تخفيض العقوبة تحت أيّ ظرف.

- ألم تكن تُفضّل الإعدام بالرصاص؟ لأن هذه ليست حياة، أليس كذلك؟

- ليست حياة. لكن الحياة هي الحياة، أيّاً ما كانت. إن الدودة لا تحبّ أن تتعرّض للدهس.

قدَّم له المأمور سيجارة وأشعل أخرى لنفسه. استنشق مارين أنفاس السيجارة بعمق، برغبة شديدة، كرياضيٍّ يستنشق دفقة من الهواء النقي.

- هذه السيجارة، على سبيل المثال يا سيدي المأمور، ببضعة أنفاسٍ مثل هذه يصبح يومي رائعاً. الربُّ لا ينسى عباده مُطلقاً.

تفحَّص سانتورو الرجل وبدا له مجرماً متّسقاً مع ذاته. قرّر أن يتكلّم بصراحة.

- الربّ لا ينسى عباده مُطلقاً. هذا صحيح يا مارين. ولكي أبرهن على هذا، أقدِّمُ لك اليوم عرضاً كبيراً.

- بمن يتعلق الأمر يا سيدي المأمور؟

- بالطبع، لم يمكنني إدراج اسمك في قائمة المعفوّ عنهم. لكن لديّ قدرة كاملة على إخراجك من هنا لبضعة أسابيع لتقوم لي بمهمّة ما. لن يشكّ أيُّ شخص بك لأننا سندبّر الأمر كأنك ما زلتَ في السجن، مُعاقَباً في الحبس الانفرادي. إننا لا ندع البابا ذاته يدخل هناك.

- لا أسألك بمَ يتعلّق الأمر، وإنما بمَن يتعلّق الأمر يا سيدي المأمور؟

رشف سانتورو جرعةً من القهوة، وأشار لمارين أن يفعل الشيء ذاته.

- أنخيل سانتياغو.

رمشت عينا مارين طويلاً، وبعد ذلك غرس نظرته في كوب القهوة كأنما يقرأ حروفاً هيروغليفية. قال بصوت هامس:

- الملاك؟

- هو ذاته.

- فتىً شديد الجمال. ذبابةٌ لا تؤذي أحداً.

- لكنه يريد أن يقتلني.

- هل هدَّدك؟

- إنه يريد أن يقتلني يا مارين. لديّ زوجةٌ وابنتان وراتبٌ تافه، لكننا جميعاً نعيش منه.

- نعم، أدرك هذا. لكنني لا أحمل ضغينة للفتى، باستثناء الحسد. من لا يرغبُ في أن يكون شابّاً وجميلاً للغاية مثله!

- يجب أن يبدو الأمر كعراكٍ بين سكارى. أو أيَّ شيء يخطر على بالك. أهمُّ شيء أن تتحقّق من موته.

- في حقيقة الأمر، كان لديّ سببٌ وجيهٌ للقتل في كل الحالات الأخرى. لكن الآن....

- لابدّ أنك ستفكّر في شيء ما. بعد مكوثك عشر سنوات في السجن، ستكون لديك عاهرة كلّ يوم، لنقُل خلال شهر، هذا سيمنح حياتك مغزى. «الحياة هي الحياة»، أليس كذلك؟

- أنا لا أنام مع عاهرات. لديّ صديقات يفعلن هذا معي من أجل الحب.

- لكنهن يعرفنك يا مارين. أشعر بالأسف لهن، لأنهن سيفقدن مضاجعة القرن، لكن تذكَّر أنك نظرياً موجود في الحبس الاحتياطي. أيُّ تهوُّر من جانبك يعني، بدلاً من السجن المؤبد، الإعدام رمياً بالرصاص. ما رأيك؟

- الأمر مُعقَّد.

- شهر في الشوارع يا مارين، للمرّة الأخيرة في حياتك.

اتَّجه المأمور نحو باب الحمّام، وبعد أن فتحه أشار إلى الفرشاة وصابون الحلاقة.

-هيّا، احلق ذقنك يا رجل!

2

في ملحق السجن للبالغين، بعد أن عرف بيرغارا غراي بأمر العفو، طلب من الحارس أن يشتري له مثبتاً للشعر. وعندما أخرج بذلته ماركة «بوس» من الدولاب وجرَّبها، تحقّق من أن غلق الحزام ممكن إن شفط بطنه قليلاً. سنوات الركون الخمس داخل السجن لم توقع به ضرراً كبيراً، بفضل بضعة تمارين يوغا تعلّمها في ماضيه السحيق كبحّار في تايلانديا.

كان شعره الرمادي اللامع ينتهي بفودَين شبه أشيبَين، متناسقَين مع شاربه الكثّ الموحي بالهيبة. وأمام المرآة التي كان الحارس يمسك بها، مرّر المشط بضع مرّات دون أن يخالجه شكّ في أن نظرته العميقة يمكن أن تصيب النساء بالدُّوار، على الرغم من السنوات التي قضاها محبوساً. لكن هذه الغندرة الذكورية انتهت إلى تنهيدةٍ حزينة: لم يكن يحبّ سوى زوجته تيريزا كابرياتي، وكان يخشى ألا تكون راغبة في رؤية زوجها طليقَ السراح، لأنها لم تزره في السجن قطّ، حتى في أعياد الميلاد.

كما لم يكن ابنهما حنوناً، ولا أكثر الأبناء زيارةً لآبائهم. كان الفتى يذهب فقط في يوم عيد ميلاده، في الأسبوع الأخير من ديسمبر، ويحمل دائماً الهدية ذاتها: أجندة للعام التالي. وبعد حواراتٍ موجزة حول دوري

المحترفين لكرة القدم وأحوال دراسته، كان يودّعه بمصافحة باليد متفادياً القبلة التي يرغب بيرغارا غراي في طبعها على وجنته.

هذا العفو المفاجئ الذي يقلّص عقوبته إلى النصف كان هديّةً من الرَّب لكي يستعيد المشاعر المفقودة. أقسم أمام الرَّب والصحافة وسلطات السجن أنه لن يعود إلى الجريمة بعد ذلك مُطلقاً، وبالمال القليل الذي كان شريكه يدين له به مقابل غلق فمه أثناء التحقيقات، سيعيش حياةً متواضعة شريفة دون أن يسرق أو ينصب على أيّ شخص ببيسو واحد.

كان يعرف بضعة مديرين نافذين لصحفٍ متخصّصة في الجريمة، وسيتوسّل إليهم كصديقٍ قديم ألا يواصلوا طبع أعداد خاصة كلما حلَّت ذكرى إحدى عمليات السرقة الشهيرة التي قام بها. يمكنهم أن يتفهَّموا تماماً أنه يريد الحياة بعيداً عن الأنظار بعد استعادة حريته، بهذه الطريقة فقط يمكنه استعادة عائلته، وببطء سيستعيد سمعته.

شكرَ الحارس على إمساكه بالمرآة، بتربيتةٍ على الظهر، وابتسم قبل أن يطلبَ منه أن ينزلها. رأى نفسه كما يرغب أن يكون. الابتسامة الدافئة، الأخوية، الرجولية، والضوء الغامض في أعماق عينيه، والتجاعيد العميقة الموحية بالألم والوحدة، وعلى الأخصّ كلّ رغبته وأشواقه في الحياة، وهي الرغبة التي استحالت إلى عدم اكتراث لدى سجناء آخرين. كان مصيره يبدو له غريباً كما تبدو له مصائر الآخرين.

ألقى نظرة أخيرة على جدران الزنزانة، وأمكنه التحقق من بقاء صورتين فقط لم تتم إزالتهما: تقويم مريم العذراء بالأيام التي تحمل علامة حمراء حتى يوم 13 حزيران/ يونيو، و«أفيش» مارلين مونرو، وهي تستلقي بنهديها كثمرتين ناضجتين على وشاحٍ من القطيفة. وضعَ التقويم في الحقيبة، مع ملابسه، وبعد غلْقِها أخرج من سترته قلماً قديماً

وخطَّ الإهداء التالي بجوار جسد مارلين مونرو: «إلى خليفتي، هبةٌ من نيكولاس بيرغارا غراي».

أحاطت به مجموعة مؤلفة من عدد غير قليل من السجناء في طريقه إلى مكتب مأمور السجن. تمنَّوا له حظاً سعيداً، وعانقه بعضهم بينما تنساب الدموع على وجناتهم. تركهم الرجل يُعبِّرون عن محبّتهم، متوخّياً البقاء منتصباً وألا يؤثر أيّ شيء على هيئته كأمير: المنديل الحريري بارز من الجيب العلوي للسترة الصوف، ربطة العنق ذات العقدة العريضة، وشعره كممثّل تجاوز الشباب.

صاحَبَ مأمور السجن دخوله مع فضٍّ صاخبٍ لزجاجة شمبانيا، ووزَّع أحد الموظفين الشراب على الحراس ومجموعة منتقاة من السجناء الذين رفعوا أكوابهم، وهم يصيحون: «في صحتك!». بعد ذلك سعل مأمور السجن وتوقف لبرهة وهو يضع يديه على صدره قبل أن يقرأ خطبة مكتوبة على ورقٍ رسميّ.

- «البروفيسور المُبجّل بيرغارا غراي، العزيز نيكولاس: نُوَدِّعك اليوم بمشاعر متناقضة. نبتهج لحصولك على حريتك، لأن رجلاً مُحترماً ذا أصلٍ وحسبٍ يُولد من جديد في عالم المدنيين، ونحزن لفقدان صحبتك المبهجة، وتشويق حكاياتك، وحكمة تأملاتك، وصواب نصائحك، التي لم تبخل بها على سجناء أو حرّاس، أو على من ينطق بهذه الكلمات.

لقد حِدتَ عن القانون بالفعل، لكن لم يكن من العدل أن يحكم عليك القاضي بعشر سنوات بسبب سرقاتك الشهيرة. لكن إحقاقاً للحق أيضاً فإنك لم تلجأ للعنف في مغامرتك مُطلقاً، لم تُخلِّف جريحاً أو قتيلاً في طريقك أبداً، وأشكُّ أنك أمسكت بين يديك بسلاح ذات مرّة. أنت مختلف تماماً عن هذه الفئة من الأشرار المجرمين الذين لا وازع لهم، والذين يملؤون سجوننا ويفيضون في شوارعنا.

وكما أجمعت الصحافة، كانت جرائمك أعمالاً فنية حقيقية، وجلبت لك شهرة كبيرة على كل الأصعدة، وقد يكتب أحد روائيينا عنك ويجعل من شهرتك عالمية. لكنني لا أتحدث اليوم عن «الفنان»، وإنما عن الرجل من لحم وعظم الذي يخرج من هذا المكان ممتلئاً بالحياة، بعد أن قَوَّمته وطهَّرته الصداقة، ويمكنني أن أقول لك كلمة واحدة تلخص ما نتمنى لك جميعاً: «حظاً سعيداً!».

تقدَّم نحو السجين وعانقه طويلاً، وبتنهيدة إذعانٍ تركه ليتلقّى مشاعر الآخرين الجيّاشة. وبعد أن انتهى هؤلاء من التعبير عن أنفسهم ومن التربيتات والدموع، أحاطوا بالمُحتفى به في شبه دائرة ليستمعوا إليه.

-عزيزي المأمور هويرتا، أعزائي الحراس، زملائي السجناء! إن كانت ليالي الضجر الطويلة في حياتنا في السجن قد دفعتني ذات مرة لحكي جرائمي لكم بشيء من المبالغة، فإنني أشعر في هذه اللحظة الحاسمة من حياتي أنني أكثر البشر صمتاً. يُهيمن عليّ اليوم خرسٌ مفاجئ، كأنما قد انحشر حجرٌ في حلقي. أخرج إلى الشارع بثقةٍ كاملة في نفسي، ولا أخشى من أي شيء سوى الوحدة. أرجو من الرَّب استعادة عائلتي وأن يخفّف من انتظاركم جميعاً. الرَّب فقط يقرّر بعد زمن طويل من هو المذنب ومن هو البريء. ليبارككم الرَّب!

شعر بيرغارا غراي ببردِ حزيران/ يونيو في عنقه، بينما كان يقف في الساحة الصغيرة أمام السجن، وشعر بالندم لأنه أهدى كوفيّته ومعطفه الصوفي للسجناء. رافقه المأمور حتى التاكسي، بينما كان أحد المعاونين يحمل له حقيبته، وقال له وهو يفتح الباب:

- التاكسي مدفوع مُقدّماً. اشتركت مع الفتيان في جمع المال.

مرَّ الرجل بيده على صدغه الأشيب وابتسم بحزن.

- المال لا يهمّ يا هويرتا. المشكلة غير ذلك.

- ما هي؟

- المشكلة هي أيّ عنوانٍ أعطي لسائق التاكسي.

بعد أن وضع السائقُ الحقيبةَ في صندوق السيارة وجلس في مقعده، نظر إليه عبر المرآة وألقى عليه السؤال الذي سقط كالصخرة:

- أين نذهب يا سيد بيرغارا غراي؟

- هل تعرف محلاً لبيع المصنوعات الجلدية؟

- يوجد محلّ في شارع ألاميدا. منتجات أرجنتينية. ومع الأزمة أصبحت الأسعار في الحضيض.

- اذهب بي إلى هناك.

كان قد تخيَّل نفسه نهماً للأماكن والروائح والأصوات والبشر في هذه الدقائق الأولى من الحرية، لكن على العكس من هذا، صدَّته عملية تأمّل عن الفضاء المديني. بينما كان يداعب صدغه، فكَّر أنه ليس في سنٍّ يناسب حياة اللهو. كأن بوصلةً لا تشير إلا إلى عائلته: من أجلها عَمِلَ واتجه للجريمة، ومن أجلها أيضاً التزم بالصمت. «الفم المغلق»، هكذا وصفه شريكه في تهنئته. لا يمكنه الشكوى من حظه: العفو الرئاسي مَثَّل له العدالة الإلهية، رغم أن هذا العفو يتعرض لهجوم الصحافة التي تصف ازدحام السجون بالوضع غير الإنساني، وفي الوقت ذاته تشكو من أن المجرمين يسيرون في أمان في طرقات وشوارع البلاد. لو كان قد تكلَّم عندما صمتَ، كان سيوفّر على نفسه الخمس سنوات التي محاها العفو بجرَّة قلم. كرّر بصوت خفيض: «أنا محظوظ».

طلب من سائق التاكسي أن ينتظره، وقادته حاسة الشمّ دون تردُّد إلى

أرفف أرقى حقائب اليد. تحسَّس روعة جلد الماعز في حقيبة أوراقٍ متينة، على طرفيها يوجد قفلان مطليّان بالذهب لا يمكن فتحهما إلا برقمٍ سرّيّ. وتنهّدَ برضا عندما تحقق من أن اختياره كان صائباً. كان سعر الحقيبة يفوق المعروضات الأخرى الكثيرة بقدرٍ كبير. طلب منه البائع رقماً لوضع الرقم السري (من الأفضل أن يكون الرقم الأيمن مختلفاً عن الأيسر)، ولم يتردّد في استخدام يوم وعام ميلاده مع يوم وعام ميلاد ابنه.

سأله البائع وهو يلفّها:

- هل ستدفع بشيكٍ أم ببطاقة ائتمان أم نقداً؟

رفع حاجبيه وهو يتساءل ما إن كان يبدو شديد الاحترام لكي يعرضوا عليه هذه الاختيارات للدفع. الشيك أو بطاقة الائتمان يتطلّبان بطاقة الهوية، وبحسب معلوماته لم تكن إجراءات العفو تُنفّذ بسرعة. وضع الأوراق المالية على المائدة وقال:

- نقداً.

قال البائع بحماسٍ مفاجئ:

- اليوم عيد سان أنطونيو. إنه قدّيس كثير المعجزات. العوانس يضعن دُماهنّ رأساً على عقب لكي يأتي لهن بالأزواج.

- أعرف هذا.

قال بيرغارا غراي هاتين الكلمتين وهو يأخذ بقية النقود، ثم الكيس البلاستيكي الذي يحتوي على ما اشترى. كان البائع ينظر إليه بفضول، وغامر السجين السابق بابتسامة وسؤال:

- هل يبدو لك وجهي مألوفاً؟

حكَّ البائع رأسه وقال:

- هل تظهر في التلفزيون؟

- أوه، لا!

- في الحقيقة لا أتذكَّر وجهك. معذرة يا سيدي!

- على العكس. أشكرك كثيراً على لفتتك الطيبة. كم تبلغ من العمر؟

- خمس وعشرون سنة.

- لقد تجاوزني التاريخ. قبل خمس سنوات كان بائعٌ مثلك سيطلب مني أوتوغراف أو سيطلب الشرطة.

3

تخيَّل مدينته سانتياغو هكذا تماماً: السيارات المتوحشة، المشاة الذين تبتلعهم سلالم محطات المترو، الدراجات النارية بفرقعاتها، موظفو المكاتب الذين يرتدون ربطات عنق ويحملون حقائب أوراق، موجات النساء اللائي يرتدين بلوفرات زاعقة الألوان وتنّورات تتجاوز بطونهنّ بقليل، على الرغم من أن البرد يترك أفخاذهن بلونٍ مائل للزرقة، الأكشاك بالصحف المُعلّقة على جدرانها، وفيها مُطالبات بسجن أعضاء الحكومة، ومجلّات لامعة بنساءٍ عاريات على أغلفتها. صاح:

-مدينتي، سانتياغو!

أخذ يسير في وسط المدينة، وبعث فيه الاحتكاك والاصطدام مع الناس طاقةً جديدة. شعر بجوعٍ شديد بينما كان يأخذ الشهيق ويطلق الزفير بمهارة رياضيٍّ: يمكنه التهام اثنتين أو ثلاث «هوت دوغ» كاملة من المحل في بناية فرناندث كونشا، حيث كان الخبز الذي يحتوي على النقانق مترعاً ببرجٍ متوازن على الطريقة الألمانية من الأفوكادو المهروس والطماطم في قطعٍ صغيرة، وخطٍّ من الفلفل الحار، وكتلة من الكرنب المملح، وفوقها جميعاً يوجد المزيج الرائع من المايونيز والمسطردة. كانت سندوتشات بحاجة إلى فمَين لكي يمكن تناولها جيداً، وبها يغرق المرء صدر قميصه

بسبب مكوناتها غير المستقرة، ويغرق أنفه، بل ويغرق عينيه أيضاً في هذا المهرجان الرائع.

لكن جوعه كان متناسباً بشكل عكسي مع نقوده. العملتان اللتان ترنّان في جيبه تكادان لا تكفيان لشراء رغيفين من الخبز، خبز حاف بلا غموس. فكّر أن الفقر هو السجن الثاني، لكنه هزم الفكرة الانهزامية بلكمة في الهواء: الموت بينما يأكل الضبخان(*) في الشوارع أفضل من الموت اختناقاً في الزنزانة. إن اشتد عليه الجوع سيقوم بالسرقة. يمكنه أن يسرق تفاحة في محل الخضروات، أو علبة بسكويت في البقالة. لا يمكن للقاضي أن يحكم عليه. علّمه المحامي فرناندث، زميله في السجن، الوصفة السحرية لتفادي العقوبة بسهولة. إن أمسكوا به يجب أن يتعلّل بـ «السرقة بسبب الجوع». يجب عليه أن يقول: «سرقت لأنني بخلاف هذا كنت سأموت جوعاً». قال فرناندث بتعبيرٍ أرستقراطي يبدو غريباً خلف الأسوار: «إنها الصيغة القانونية الوحيدة لصالح الفقراء، كل ما عداها يطحنهم طحناً».

الجوع والبرد جعلاه يسير بسرعة أكبر. تقدَّم بينما تحفزه ضربات الحقيبة على ظهره وسعادته بالشعور بأنه بصحة جيدة، وعلى الأخص أنه لا يحتاج إلى دفء كوفيّة مأمور السجن العفنة. كانت خطواته تجعل الدماء تغلي في عروقه، هو نفسه كان مدفأة متنقلة، كان الرَّدَ على درجات الحرارة المنخفضة التي تُذِلّ أعناق المشاة وتجعلهم يدفنون أنوفهم حتى صدورهم. لكن أنفه لم يكن هكذا، هذا الأنف الأبيّ الذي يستنشق ضبخان شوارع سانتياغو كأنما هو الهواء النقي في الجبال. بالخفّة والقوة ذاتها اللتين كانتا تُشعرانه أنه أكثر حياة، أكثر أمناً، أكثر شباباً وأكثر رجولة، سيقوم ذات يوم بقطع الوريد الوداجي لمأمور السجن. ليس الآن، بينما يتحفّز

(*) الضبخان: خليط من الدخان والضباب يتكون فوق المدن والمناطق الصناعية، وهو أحد أنواع تلوث الهواء. (م).

الفاسق الشاذّ لهجومه، لكن خلال بضعة أسابيع، بعد شهر، بعد أن يكون قد اعتاد على الخوف، وعاد للذهاب مع رفاقه إلى بارٍ حقير لتناول النبيذ. كان يسير بسرعة أكبر وحينئذ فكّر أنه سيجده غارقاً في سُكْرٍ بَيِّن. سيكون المفرش الأبيض مُطرّزاً بزهورٍ وردية، والمقاعد مزيّنة بشرائط منقوشة. سينتظر لحظةً يوجد فيها بمفرده، ربما عندما يذهب مالك الحانة للحمام، سيمسك فكّ سانتورو بأصابعه المغطّاة بقفّاز أبيض، وبعد أن يترك الوريد الوداجي مكشوفاً، سيقطعه بمدية. ربما كان كلّ من يستديرون عندما يرونه ماراً لا يمتلكون أهدافاً في حيواتهم. ينتقلون من غفلةٍ إلى أخرى دون أي شيء ينير حيواتهم.

لكن هذه ليست حالته. هذه ليست حال أنخيل سانتياغو.

استند على عامود إنارة بينما يُفكِّر أن المدانين بالسجن المؤبد قاموا بأداء طقس الاعتداء عليه بغرض إيقاع الضرر أكثر من الشهوة، برغبة في الإذلال والإهانة أكبر من إفراغ شهواتهم. كانوا رجالاً يتّبعون قانون الحقد والافتقاد للتعليم. فِعلُ هذا معه كان طريقةً لإخباره أن جماله وثقافته لا يساويان شيئاً، هو المُتعلم في مدرسة جيدة، القادر على إلقاء القصائد وحساب نسبة الرشوة لأحد الحراس دون آلة حاسبة. في ذلك الفجر، في العيادة، لم يعرف ما إن كان الدم أم الدموع أكثر تدفّقاً، ولا أيّهما يؤلمه أكثر. لكن قراره كان مصوغاً من هاتين المادتين. لم يعتقد قطّ أن العفو سيختصر طريقه.

قبل الدخول في وسط المدينة، المترع بالكوافيرات وسينمات العرض المستمر وورش إصلاح الأحذية ومحلات بيع وشراء الأغراض المستعملة، نظر بحنان إلى الساعة التي وضعها فرناندث داخل سترته الجلدية بينما كانا في الزنزانة: «أنت عائدٌ إلى عالمٍ حيث يمكنك أن تُضفي معنىً على كلّ دقيقة. الساعات هنا تدلّ على مرور اللاشيء». يؤلمه كبده

لاضطراره للتفريط في هذه الذكرى، لكنه لم يكن يمتلك أي شيء آخر صالح للبيع والشراء. لا يمكنه التفكير في السترة المتينة حائلة الألوان: ليس لأنها تحميه من البرد فقط، وإنما لأنها أيضاً كانت تضفي عليه مظهراً خشناً من المناسب أن يسير به في شوارع مدينة كسانتياغو، التي يتزايد فيها الرجال المحبّون للعراك. من جانب آخر، كانت الفتيات ينجذبن للمظهر المهترئ للملابس الجلدية القديمة، التي توحي لهن بأبطال السينما. بما أن الممثلين ليسوا في متناول أيديهن، عندما كنّ يتعثّرن بفتى يرتدي سترة جلدية وتفوح منه رائحة التبغ الأسود، كن يتخيلن أنهن يعشن مغامرة، رغم أن الإثارة الوحيدة قد تكون بعض الانطلاقات الجنسية في أيّ بنسيون رخيص.

أمام محل البيع والشراء كان هناك السلم الذي يقود إلى سينما العرض المستمر المقامة تحت الأرض، وفوق شباك التذاكر الذي كان مُغلقاً في تلك الساعة، كان هناك «أفيش» يعلن عن فيلم الأسبوع: «امرأة يابانية يخدعها زوجها فتقوم بالانتقام بمضاجعة كلّ من تلتقيه». كان عنوان الفيلم «إيمانويل في جنّة الشهوة»، واقترب أنخيل من «الأفيش» بفضول، ليس بسبب ما يَعِدُ به الفيلم، وإنما بسبب فتاة نحيفة طويلة ألصقت أنفها تماماً بالزجاج لكي يمكنها قراءة أسماء الممثلين، وكان يبدو أنها تتحمل بصعوبة ثِقل حقيبة ظهر فوق معطفٍ رجالي يسع جسدين مثل جسمها الخفيف. هناك، بجوارها، تأثَّر كثيراً لأنه شَعَر مرَّة أخرى بالدفء والحنان المنبعثَين من جسد امرأة.

عندما دخل السجن لم تكن تفصله عن العذرية سوى تجربتين جنسيتين، وكانت التخيّلات التي حلم بها في زنزانته طوال سنواتٍ أكثر إثارة بكثير من هاتين التجربتين في الهواء الطلق، في الحقول، قبل أن تَحُلَّ عليه الكارثة. وضع وجنته بالقرب من وجه الفتاة وقرأ أسماء أبطال العمل

اليابانيين كأنما يتعلق الأمر بأبطال معروفين مثل براد بيت أو ليوناردو دي كابريو:

- «كومي تاجوتشي، ميتسوياتسي ماينو، كاتسونوري هيروسي.»

التفتت الفتاة ونظرت إليه. ابتسمت وهي تُعدِّل وضع الحقيبة على كتفها الأيسر. هذه البادرة البسيطة للغاية، المُنعَدِمة في حياته منذ سنوات، شجَّعت الفتى على إخراج علبة السجائر من سترته ليعرض عليها سيجارة. رفضت الفتاة بحزم. وضع سيجارة بين شفتيه وفي خلال ثانية واحدة كان قد أشعلها ويدخنها. فكَّرَ أن التبغ هو أكثر الأشياء شبهاً بصديقٍ عندما يخرج المرء من السجن.

- هل ستدخلين لمشاهدته؟

- لا يجذبني كثيراً. وأنت؟

أبعد الفتى دفقة الدخان لكيلا تصل إلى عينيها البنّيتين، ودون قراءة الأسماء على «الأفيش» قال:

- فيلم من بطولة كومي تاجوتشي، ميتسوياتسي ماينو، كاتسونوري هيروسي لا يمكن أن يكون سيّئاً.

- ماذا فعلت لحفظ الأسماء؟

ردَّ:

- أنا ظاهرة غير مفيدة. أقرأ شيئاً ولا أنساه مُطلقاً.

- كم أتمنى امتلاك هذه الموهبة. مستواي سيئ للغاية في المدرسة الثانوية لأن ذاكرتي ضعيفة.

- إلى أيّ مدرسة تذهبين؟

- كنت أذهب. لقد فُصِلت.

- وماذا تفعلين إذاً؟

- أنتظر أن تفتح السينما. لا يوجد مكان آخر في هذا البرد. وأنت؟

أشارت الفتاة إلى حقيبته الممتلئة.

- أنا عائد من سفر. من الجنوب.

- وأين تعيش؟

- لقد وصلت إلى المحطة لتوي. سأبحث عن مكان ما.

شدَّ السلسلة المرنة ذات الطلاء الذهبي وأخرج ساعة السجين فرنانديث وأراها سطحها. في أحد نصفيها توجد شمس مشرقة تغمز بعينها، وفي النصف الآخر هلالٌ تستريح فوقه بومة. ضحكت الفتاة وصاحت:

- الجزء الذي توجد فيه الشمس لامع.

- وإن كانت الحادية عشرة مساءً ستلمع تلك النجوم حول القمر.

- تبدو ساعةً من ألف ليلة وليلة.

- كم سيعطونني مقابل هذه الساعة إن بعتها؟

وضعتها في راحة يدها لتزن ثقلها كأنما هي خبيرة في الساعات.

- إنها فريدة للغاية. لم أرَ ساعة مثلها من قبل. ربما يدفعون لك ثروة.

- لا أعتقد. إنها مجرد صفيح ياباني الصناعة. مثل الفيلم.

أتى بإشارة لكي ترافقه إلى محلّ بيع وشراء الأغراض المُستعملة، ووضع الساعة فوق الكاونتر الزجاجي. فحص البائعُ الفتيَين بنظرةٍ سريعة، وبعد ذلك أمسك بالساعة وتركها تتمايل كأنها ذيل فأرٍ مقزّز.

- نحن لا نشتري أغراضاً مسروقة.

نبرة التاجر جعلت الدماء تغلي في عروق الفتى، وبشكل غريزي وضع يده في جيبه وأمسك بالمدية بقوة. لكنه خفَّف الضغط على السلاح في

الحال، ولكي يهدِّئ من نفسه حكَّ نعلي حذائه ماركة «أديداس» على «الباركيه» لبعض الوقت.

- إنها هدية من أبي عندما بلغت سن الرشد.

رمى الرجلُ الساعةَ فوق الزجاج وهو يتظاهر بالتثاؤب.

- كلّكم تقولون الحكاية ذاتها. إن القلادات الذهبية والساعات ذات قيمة عاطفية كبيرة، لكنكم مضطرون لبيعها بسبب أمر طارئ. ألم تكن ستقول هذا؟

- لقد أخذت الكلمات من طرف لساني يا سيدي.

ابتسم التاجر للفتاة وربّت على كتفه.

- هكذا يمكننا التفاهم.

- كم ستعطيني؟

- ثلاثين ألف بيسو.

- إنها ساعة تميِّز بين الليل والنهار. تميِّز بين العاشرة صباحاً والعاشرة مساءً. لا توجد ساعة أخرى مثل هذه.

- إنها ميزة تافهة.

- حتى إن كانت ميزة عديمة النفع يا سيدي، فإنها ميزة لا توجد في الساعات الأخرى. إنها ساعة شاعرية. تلمع نجومها ليلاً.

- هاك خمسةً وثلاثين يا فتى. ويجب أن تشكرني لأنني لم أطلب منك إيصال الشراء الأصلي.

وضع أنخيل سانتياغو المال في جيبه واستنشق الهواء الجليدي الذي كان ينفذ من الباب القذر. خرجا إلى الشارع وأمسك بذراعها وقادها إلى ميدان «أرماس».

- توجد كافيتريا في بناية فرناندث كونشا حيث يقدمون الهوت دوغ مع الكثير من الإضافات لدرجة أن المرء يجب أن يفتح فمه كثيراً لكي يقضمه. أحلمُ بأكل إحداها منذ أكثر من عامين.

- سأرافقك.

- والسينما؟

- إنه عرضٌ مستمرّ. أيّاً ما كانت ساعة دخولك فإن العرض جارٍ.

- هل تذهبين كثيراً للسينما؟

- أحياناً. أعني أن هذا على حسب...

أحاط كتفها بذراعه وساعدها على عبور شارع سان أنطونيو.

- علامَ يعتمد؟

- أنا لا أعرفك تقريباً. يعتمد على أشياء كثيرة.

- على سبيل المثال ألا تكوني مفصولة من المدرسة؟

تشجَّعت الفتاة للعذر الذي اقترحه عليها وردَّت بنبرة مبتهجة:

- بالضبط.

كان المحل يسمى إكس باهامونديس، كان هناك اثنا عشر نادلاً سريعين، كانوا يطيرون بأكواب البيرة والدجاج المحمّر وسندوتشات النقانق الكاملة فوق رؤوس الزبائن، وسأل الفتى أحدهم إن كانت «إكس» في اسم المحل تعني أن «السندوتشات الكاملة» لم تعد شهية للغاية كما كانت. ردَّ النادل:

- إنها أفضل مما كانت. أؤكد لك أن الصلصة ستتساقط حتى سُرَّتك عندما تقضمه. هل تريد اثنتين؟

قالت الفتاة:

- أنا لا أريد.

- ألا تشعرين بالجوع؟

- لا.

- ألا يضايقك أن آكل سندوتشاً؟

- إطلاقاً.

حينئذ أخذ الفتى في تلاوة طلبه وهو يفرك يديه وتتمدّد ابتسامته، ويطلب إضافة الصلصات والخضروات:

-سندوتش كامل سوبر. ضع النقانق الطويلة داخل الخبز، سَخِّنه داخل الميكروويف، أضف له خطاً من الكرنب المخلّل وخطّين من الأفوكادو المهروس، وطماطم في قطع صغيرة، بطاطس مهروسة وتَوِّجه بطبقة من المايونيز التي يشقّها خط من الفلفل الأحمر الحار وخط آخر من المسطردة.

تحقّقت نبوءة النادل مع القضمة الأولى، وانطلق مزيج المايونيز والطماطم ليستقر على السترة الجلدية. وضعت الفتاة دستة من المناديل الورقية على السوستة المعدنية، وشجّعته بإشارة على مواصلة الأكل. من حين إلى آخر كان أنخيل سانتياغو يرفع إصبعه مشيراً إلى أنه سيقول شيئاً ما، لكنه بعد ذلك كان يؤثر قضمة أخرى من السندوتش، وبينما يمضغ مستمتعاً كان يبدو أنه يغمغم بالكلمات التي سيقولها بعد ذلك عندما يتوقف عن خلط المزيج اللذيذ فوق لسانه.

كان الزجاج مغطّى بالبخار، وغرق المكان في حَرٍّ خانق بسبب حشد الموظفين في ساعة الإفطار. قالت الفتاة:

- أنا بحاجة إلى الهواء.

اشترى الفتى علبتي لبن وعبرا الشارع باتجاه ميدان «أرماس». تمدّدا على دكّة خشبية وأراح كل منهما قدميه فوق متاعه: هو على الحقيبة التي

تحمل أغراضه التي خرج بها من السجن، وهي على الحقيبة التي تحتوي على الأدوات والكتب والدفاتر المدرسية. فتحت المعطف لتكشف عن زيٍّ موحّد لمدرسة ثانوية عليه شعار غير مفهوم.

- منذ متى تتسكّعين في الشوارع؟

- منذ شهر تقريباً. فُصِلتُ من المدرسة ولم أجرؤ على إخبار أمي بعد.

- وماذا تفعلين؟

- أنهض في الصباح، أتظاهر بالذهاب للمدرسة وأتجول هنا وهناك حتى تفتح سينمات العرض المستمر. بعد ذلك أشاهد فيلماً أو اثنين ثم أعود للبيت.

تأمل الفتى في إمكانية هطول المطر بحاجبين مقطبين. كانت كل السحب فوق رأسيهما شديدة السواد، بعضها مدمج مضغوط ومُحمَّل بالماء، وبعضها الآخر مفتّت سريع.

رفعت نظرها أيضاً وانتهزت الفرصة لتمشِّط شعرها بأصابعها. عندما نزلت أعينهما وجدا أنهما في حالة من الحميمية المفاجئة. ابتسمت له، لكنه قدَّر أن عدم ابتسامه سيكون أكثر جاذبية وذكورية. ببساطة ظلت نظرته ثابتة عليها وهي تبعد قطرات الماء عن جبهتها. حملا علبتي اللبن إلى فميهما بالتزامن، وبينما كانا يشربان، انطلق برقٌ من بين السحب وسرى رعدٌ هائل في السماء. نظرا إلى تلك السحب العدائية، وعاد كل منهما للنظر في عيني الآخر وهما يتذوقان اللبن كأنما في نزهة خلوية ربيعية. استخدمت كُمَّ المعطف لتنظيف الزَبَد الأبيض الذي ارتسم فوق شفتيها كشارب، وعندما لاحظت أن أنف الفتى كان ملوثاً أيضاً مسحته بأحد أصابعها.

انفجر المطر في نقاط كبيرة وغاصت الفتاة بكتفيها داخل المعطف لتحمي نفسها. لم يُعِر الماء المتساقط اهتماماً، وتلقّى نعمة الشراب الأبيض الذي يغمر معدته كمباركة. قال للفتاة:

- هذا هو أنا. هذه اللحظة هي أنا بشكل كامل وُمطلق. لا بيت لي ولا أصدقاء ولا ماضٍ، ولا أي شيء أريد تذكُّره. لا أمتلك مالاً، لكنني أعرف أنني سأصبح سعيداً. أنا معدةٌ وبين أحشائي يوجد سندوتش كامل سوبر، وهذه هي مدينتي من الجليد والوحل. ما اسمك؟

- فكتوريا.

- هل يطلقون عليك فيكي؟

- نعم، لكنني أُفضل أن يدعونني فكتوريا. أو «لا فكتوريا(*)». إنه اسم أكثر بهجة.

نظرت إلى السماء وهي تجفّف الماء المنساب على قفاها. عندما نزلت بنظرتها اكتشفت أن كوفية بنية من الألباكا تظهر من حقيبة الفتى، وجذبتها بشكل تلقائي ثم وضعتها على شعرها. قال الشاب بحدّة:

- اخلعيها!

- لماذا؟

- لأن هذه الكوفية ملوّثة.

- ملوّثة بماذا؟

لم يردّ. انتزعها بخشونة. ودون أن يطويها، وضعها كيفما اتفق في الحقيبة. بدا أن ابتسامتها تتلاشى وسط المطر.

-هذه الكوفية تخصّ شخصاً أُكنُّ له الاحتقار. أُفضِّل أن يجرفني نهرٌ من الأمطار إلى الموت قبل أن أدين بمعروفٍ لذلك الشخص.

-لماذا لا تتخلّى عنها إذاً؟

(*) تُستخدم أداة التعريف «لا\ LA» قبل اسم العلم في الكثير من البلدان الناطقة بالإسبانية. والتلاعب هنا مقصود كما يتبيَّن في الحوار بين اسم فكتوريا ومعناه: النصر. (م).

-لأنها ستكون ذات نفعٍ في لحظةٍ ما.

خلعت معطفها الواسع ووضعته على هيئة مظلّة فوق جسديهما. واصلا شرب علبتي اللبن في هذه العتمة الدافئة. حينئذٍ ضحكت. مجرد رؤيته قريباً للغاية وجاداً للغاية جعلها تتذكر ألعاب الطفولة مع أبناء عمومتها عندما كانوا يتخيّلون الملاءة كخيمةٍ للهنود الحمر، ويتحدثون بلغة الإسكيمو بملامسة أنوفهم. وعندما انتشرت هذه الضحكة في ذلك الفضاء الحميمي للغاية، شعر سانتياغو أن هذا المزاج الرائق يُحطّم درع البرود وعدم الاكتراث الذي ساعده على مواجهة مخاطر السنوات السابقة، وأن شيئاً ما ثقيلاً وذابلاً قد انقشع داخله بسرعة الحمّى.

لامس وجنة فكتوريا، ثم وضع طرف أحد أصابعه على شفتيها ومرَّ عليهما بوقار، وعندما أدركت أن ردَّ فعله يتميّز بهذه الجدية المُركَّزة، توقَّفت عن الضحك واتَّخذت سمتاً جاداً وفضولياً. سألته هامسةً:

- ما اسمك؟

ردَّ مغمغماً:

- سانتياغو، أنخيل سانتياغو.

4

نزل من التاكسي قبل شارع كانتيناس بقليل، لأنه كان يرغب في معرفة كيف تطوَّرت المنطقة. شقق الساونا، بيوت التدليك، والبارات حيث يتم تقديم الكوكتيل مع بهارات من الفتيات المدفوسات في ملابس جلدية وشيء من المخدرات. تمدَّد كل هذا حتى منطقة كوستانيرا. لم يأسف إلا لأنه يجوب ذلك الشارع بالحقيبة متدلّيةً من يده كأنه سائح أعطوه عنواناً خاطئاً. ستلفت الحقيبة الانتباه لحاملها، وعلى الرغم من سنوات السجن الخمس، لم تتوقف صوره عن الظهور في الصحف التي ما زالت تعبّر عن اندهاشها من المهارة في سرقاته. كان أحد الحلول هو التخلّص من شاربه الكثيف، لكن هذا التفريط سيساوي بتر ذكوريته تماماً. انهارت استراتيجيته للمرور دون لفت الأنظار في الناصية الأولى، عندما اكتشفه نيميسو سانتيليشس، لصٌّ من الدرجة الثانية وحارس سيارات يتلقّى صدقةً من حين إلى آخر. قال وهو يسير إلى جواره:

- كم تبهجني رؤيتك حرّاً يا نيكو!

لم يحاول مصافحته باليد أو عناقه. وبدا له مواتياً أن يعرف كل فأر في الوسط أي نوع من الاندفاع الحميمي يمكن أن يسمح لنفسه به.

- لا أعتقد أن الجميع سيبتهجون مثلك.

- لمَ لا يا رجل؟ كلّهم يعرفون أنك أغلقت فمك.

- بيرغارا غراي، \الأخرس، أليس كذلك؟

- الأخرس الذهبي. ازدهرت التجارة أثناء وجودك في السجن. إضافةً إلى هذا فقد أصبحت سانتياغو مدينة كبيرة الآن.

- أبتهجُ لحساب شريكي في البنك.

- نيكو، إن كنت تُجهِّز لأمرٍ ما يمكنك الاعتماد عليَ.

- ابحث عن رزقك في مكانٍ آخر يا سانتيليثس. لقد تقاعدت.

أثناء هذه التمشية القصيرة، ودون الالتفات للخلف، كان يعرف أن الكثير من النظرات تحطّ على قفاه، وأمكنه أن يرى اثنين من المارة يسيران في الاتجاه العكسي بينما ينظران إليه فاغرين فميهما. ودَّع مرافقه بوضع إصبع على جبهته. وقبل أن يدخل محل موناستريوس ترك الحقيبة على الرصيف وفتح الحزام، ضبط القميص ورفع البنطلون فوق بطنه، تنفَّس عميقاً وأغلق الحزام في الثقب الأضيق. على الرغم من أن المساء قد حلَّ قبل قليل كانت حانة شريكه ممتلئة تقريباً، وعلى الرغم من أن الفتيات قد نظرن إليه أثناء دخوله، لم يبدُ أن أيّاً من رفيقات الشراب، المدفوسات في ملابس جديرة بمانيكانات البوتيكات، قد تعرَّفت عليه.

استند على طرف البار، ومن موقعه أخذ يدرس تفاصيل المكان حتى أمكنه العثور على موناستريو الذي كان يعطي تعليمات لإيلزا، موظفة الكاشير. بقوة النظرة فقط أمكنه جعل شريكه يرفع رأسه. وبالتزامن مع لحظة التعرف عليه، ارتسمت على وجهه بقعة من الاغتمام الشديد. لكن ما إن بدأ في السير نحو بيرغارا غراي حتى جعل تعبيراته تنتقل إلى بهجة مسرحية. كان أكثرهما ودّاً أثناء العناق، وقَبِلَ السجين السابق هذا الاندفاع بابتسامة رزينة.

أثنى الشريك على الحلّة الأنيقة، والتصفيف المتقَن للشعر، واللمسة الشبابية التي توحي بها سخرية عينيه. بدا على بيرغارا غراي التواضع وهو يقول:

- الموضة تتغير بعد خمس سنوات.

- ماذا تقول؟ إنك أنيق كالعادة.

- والحقيبة لم تعد تنغلق. اضطررت لإصلاحها بشريط لاصق.

ركله موناستريو ركلة مودّة خفيفة بطرف قدمه وهو يقول:

- حقيبة الإنجازات الكثيرة يا نيكو. عندما تُنشئ متحفك ستكون إحدى أثمن القطع. لا تضحك. يوجد متحف للجريمة في لندن. يوجد تمثال شمع لجاك السفاح. هل تريد شمبانيا؟

ظل الرجل في انتظار ما سيضيف شريكه، وابتسم عندما جاءت الإضافة.

- فرنسية بالطبع. إنك بيرغارا غراي.

أشار للنادل أن يحمل الزجاجة ووعاء الثلج والكؤوس إلى قاعة خاصة في نهاية المحل، وبعد أن جلسا ربت على وجنتيه بتأثّر أبويّ.

- لقد أصبحت حراً في النهاية يا صديقي.

- الوقت يطير في الخارج، لكنه يزحف داخل السجن.

- أود أن أعتذر لك يا نيكو، لأنني لم أذهب لزيارتك طوال كل هذا الوقت.

- لم أنتبه لهذا.

- لقد فكَّرتُ في الذهاب بضع مرّات، لكن....

- هذا غريب، كنت أعتقد أنك قد ذهبت.

- ليس لأنني لا أريد رؤيتك، لكن لأن زيارتي لك كانت ستُعتبر خيطاً تتبعه الشرطة. عدم الذهاب مطلقاً كان اتساقاً.

- اتساقاً مع ماذا؟

- مع صمتك.

- ذلك الصمت يا موناستريو، إنه كل رأس مالي الآن.

- يجب أن نتحدث في هذا الأمر يا نيكو. ليس الآن. إنها لحظة شرب نخب عودتك. إنها ساعة الشمبانيا.

رفع الشريك ذراعه، لكن بيرغارا غراي لم يلمس كأسه. بدلاً من هذا وضع الحقيبة فوق ركبتيه وضغط على القفل المعدني، ثم أخرج مظروفاً.

-لقد أحضرت لك هدية.

- هدية لي؟

- هدية لك يا شريكي.

فرَّغ بيرغارا غراي محتوى المظروف على المائدة. تراصّت التقاويم الخمسة بكلّ أيام السنوات الخمس التي تحمل علامةً حمراء فوق كلٍّ منها.

- نيكو، كنت أبعث حوالة شهرية لعائلتك.

اختار السجين السابق إحدى الأوراق المنفصلة من التقويم ووضعها أمام عينَي مضيفه.

- 2001، أكثر صيفٍ حارّ شهدته سانتياغو. كانت الصراصير ترنّح على القضبان الصدئة.

- سأريك غرفتك.

- أين؟

- لديّ فندقٌ صغير في الناحية المقابلة.

- عائليٌّ؟

- إننا في أزمة يا رجل - حاول الشريك التخفيف من حدّة الإجابة.

- إنه فندق للعشّاق!

- متنوّع الزبائن.

- متنوّع الزبائن!

- خلال ليلتين حتى أحصل على شيء يليق بمقامك.

- لا داعي لهذا. سأعود للحياة مع تيريزا كابرياتي.

- دعني أحمل لك الحقيبة.

دون انتظار الموافقة، رفع الحقيبة وأخذ يسير باتجاه المخرج. كانت العتمة والبرد قد ازدادا في الخارج. كان الرصيف المبتلّ يعكس البهجة الزائفة لأضواء النيون في شارع كانتيناس.

بينما كانا يعبران الشارع، انحنى بيرغارا غراي، الذي كان أطول قامة من رفيقه بعشرة سنتيمترات، على أذنه لكي يسمعه وسط ضجيج المرور:

- اعتنِ بالتقاويم يا شريكي. يمكنك عرضها أيضاً في متحف بيرغارا غراي.

كانت الغرفة تحتوي على دولاب صغير حديث التصميم. علَّق سترته وأخرجَ (بلوفراً) رمادياً مرقّشاً من الحقيبة. ارتداه ثم جلس على الفراش، واختار جورباً من الصوف الثقيل لكي يخفّف من حدّة البرد الجليدي الذي كان يؤذي قدميه. بعد ذلك استلقى على الفراش دون أن يرفع غطاءه، وحاول التَّعرّف على الأشكال التي تشبهها البقعُ التي تملأ السماء. قال لنفسه «لا شيء. الوحدة».

قُرعت دقاتٌ على الباب، فاعتدل في الفراش مستنداً على أحد كوعيه.

- ادخل!

فتح شخصٌ ما الباب بركبته، وقبل أن يتعرف على الشخص، رأى الرجلُ صينية معدنية وفوقها وعاء الثلج وزجاجة الشمبانيا وكأسان رفيعان طويلان. تحملها امرأة في العشرين من عمرها تقريباً، كانت ترتدي طقماً ضيّقاً يكشف عن سرّتها. وكان شعرها الهائش الأسود يحيط بشفتيها الغليظتين المطليّتين بالأرجواني.

- يقول موناستريو إنك تركت هذه الزجاجة.

- لم يكن هناك داعٍ لتجشّم المشقة.

- وقال إن من الخسارة أن تسخن. إنها شمبانيا فرنسية.

- اتركيها فوق المائدة!

اتَّبعت المرأة التعليمات، وبعد ذلك ملأت الكأسين. أعطت أحدهما للرجل وجلست على طرف الفراش وهي تمسك بالآخر.

- لماذا يعتني بك موناستريو ويدلِّلك لهذه الدرجة؟!

- إنه صديق قديم.

- لديه أصدقاء قدماء كثيرون. لكنه أرسل الهدية مضاعفة لك أنت فقط!

- ماذا يعني هذا؟

- الشمبانيا وأنا.

- فهمت. وبما أننا نجلس على الفراش ذاته، هل يمكن أن تخبريني باسمك؟

- راكيل.

- انظري يا راكيل...

- اسمي الحقيقي ليس راكيل بالطبع.

- هذا مؤكّد. انظري يا راكيل! أرى أنك فتاة جميلة وسيشعر أيّ رجل بالسعادة لمضاجعتك. لكنني أحلم بامرأة واحدة، وكأنني مراهق يحتفظ بعذريته، فأنا أنتظرها.

- اللعنة! إنك مرهف المشاعر.

- لا يوجد أيّ شيء شخصيّ في هذا. هل تفهمينني؟

- كيف لا يكون أمراً شخصياً؟ إن كان هذا يحدث لي أنا شخصياً، فإنه لا يخصّ أيّ شخص آخر. أنا محترفة جيدة. لن أؤذيك يا فتى!

- لا يخالجني الشكّ بشأنك، وإنما أشكّ في نفسي.

- هل تخشى من العجز؟

- لقد أتممت الستّين.

- لكنني أثق بنفسي.

رشف بيرغارا غراي الشمبانيا، ودعا المرأة لتقليده بإشارة من يده.

- الشمبانيا تُثقِل عليّ. تصيبني بالصداع.

- أيَّ شرابٍ تُفضِّل؟

- أيس كريم نعناع مخفوق باللبن.

وضع الرجل في يدها ورقة بعشرة آلاف بيزو.

- هاك، لكي تشتري شيئاً لنفسك.

- أنا لا أرفض البقشيش مطلقاً. لكن ماذا أقول لموناستريو؟

- أخبريه أنني أشكره على لفتته الطيبة، لكنني لا أقبل هدايا. وقولي له إنني أنتظره في هذه الغرفة بينما يأتي بالخمسين في المئة التي تخصّني.

- سينهرني.

- لا أعتقد.

أفرغ الكأس في جوفه ومسح شاربه بمعصمه. ربتت على صدره بظهر يدها بضع مرّات ثم نهضت.

- ما اسم المرأة المحظوظة يا سيّدي؟

- تيريزا كابرياتي.

أخرجت المرأة مكعّب ثلجٍ من الوعاء الفضي ووضعته في فمها. وأخذت تحرّكه من جانب إلى آخر بتعبيرٍ متأمّل، كمن ينظر إلى رموزٍ هيروغليفية.

وفي النهاية قالت:

- أنت شخص غريب.

5

قادت فيكتوريا أنخيل عبر سلالم الأكاديمية حتى القبو. ومن هناك قادته حتى قاعة التمرينات. كانت التدفئة تعمل بكل طاقتها وتبعث الدفء والراحة. استند الشاب إلى الجدار بينما تتحدث مع المُدرِّبة. كانت هناك نصف دستة من المراهقات يقمن بتمارين الضغط وهنّ يعتمدن على القضبان، أو يأتين بدورات كاملة على أطراف أقدامهن. كان شعر المُدرِّبة رمادياً وملتصقاً بصدغيها، وخطٌّ من المسكرة يُضفي على رموشها ثقلاً وحجماً كبيرين، فيبدو أنهما يوشكان على السقوط على وجهها الشاحب.

عادت فكتوريا إليه بينما تجرُّ دكّةً.

- إنها تسمح لك بالبقاء.

- لا أعرف ماذا يمكنني أن أفعل هنا.

- النظر.

جرت حتى طرف القاعة، وخلعت «التنورة» لتظل بـ«ليوتارد» راقصة باليه. وضعت المُدرِّبة حزمة من المفاتيح فوق الغطاء العلوي للبيانو، وأصدرت أمراً لجمع الفتيات الستّ، وبدأت نغمة بينما تؤكد بقوة على الإيقاع بدوّاسات القدم.

في البداية اهتمّ الفتى بالتشكيلات، بل وبدا أنه منفعلٌ عندما انعقدت

أذرع أربع فتيات وأدّين حركة راقصة ذات دقة ميكانيكية. لكن بعد نصف ساعة، عندما انتقلن جميعاً إلى القضبان وخضعن لتصويبات المُدربة وهي تركلهنّ بخفّة بطرف قدمها، شعر بالملل من ذلك النظام. ولعدم وجود شيء آخر في متناول يده سوى حقيبة الطالبة، أخذ يعبث بمحتوياتها.

كان دفتر الرياضيات ممتلئاً حتى نصفه، ومسائل الجبر مُصَوَّبة على يد المُعلم بعناية فظيعة. كان التقييم النهائي في كلّ صفحة يتراوح فقط بين سيّئ وسيّئ للغاية وشديد السوء.

كان كتاب اللغة الإسبانية يحتوي على قصيدة لغابريلا مسترال، وكانت فكتوريا قد مرّرت قلم تحديدٍ أصفر على شطرين منها: «سأحملك من القبر الجليدي الذي وضعك البشر به، وأهبط بك إلى الأرض المشمسة».

واصل أنخيل تصفُّح أوراق التدريبات النحوية وقوائم المترادفات والمتضادات، ولاحظ أن الشطرين الشعريين لغابريلا ميسترال مكتوبان في أربع أو خمس صفحات بحجمٍ كبير كاللافتات ومُظللان أيضاً بقلم تحديد مختلف اللون.

في نهاية نصٍّ لأوسكار كاسترو بعنوان «مساء في المستشفى»، كتبت: «يموت الكثير من البشر في كل مكان». وفي دفتر الموسيقى عثر على أغانٍ من كلمات إلفيس كوستيلو، وبضعة سطور من السيمفونية التاسعة لبيتهوفن.

أخذت الحرارة تجفّف ملابسه المبتلّة، وحينئذ فتح حقيبته ليرى الأغراض التي يتوفر عليها بدءاً من تلك اللحظة. ألقى كلّ شيء على الأرض وأخذ يفصل بينها بطرف قدمه العارية: كوفية مأمور السجن، قميصان، سروالان داخليان، بلوفر مرتفع الياقة، إضافة إلى سترة جلدية متشقّقة وسوستها المعدنية تالفة. كان هناك كتابان: قلب، لإدموندو

دي أميسيس، وثلاث زهور صفراء، لرايموند كارفر. فكَّر مبتسماً: «لكي أهديهما لفتاةٍ ما».

بعد ذلك سيحلّ الليل، ويجب عليه أن يبحث عن مكانٍ حيث يمكنه النوم. لم تكن تلك القاعة ذاتها تفتقد للمراتب التي يمكن الاستلقاء عليها، وإذا كانت التدفئة تعمل حتى اليوم التالي فإن المشكلة تكون قد حُلَّت. الحل الآخر أن يتشارك غرفة مع فكتوريا في فندق بالساعات، وهي فكرة مستحيلة بشكل مزدوج، لأنهما لم يتبادلا قبلة واحدة، ولا يمتلكان المال للدفع مقدّماً، كما جرت العادة في فنادق العشاق. كما يمكنهما الذهاب مباشرة إلى فندق عالي المستوى، ويفرّان في الصباح التالي بتدبير أي حيلة. لكن لابد أنهم سيطلبون منه بطاقة الهوية لدى دخوله، وفي اليوم التالي سيكون جهاز الشرطة بالكامل في مطاردته. مقايضة خاسرة.

ولهذا لم يتبقَّ حلّ سوى الحدائق والميادين وعنابر مرضى الصدر. يا لروعة أن يستعيض عن زنزانة السجن بفراشٍ في مستشفى عموميّ بين عجائز محتضرين!

جاءت فكتوريا مع المُدرِّبة وقدَّمته كأخيها القادم من تالكا. سألت عمّا يعمل، وخطر له القول إنه يمتلك أرضاً في الريف وإنه يدرس الزراعة. كان كل ما يعرفه أن نهر بيدوكو يمر بالقرب من تلك المدينة، وأن المراعي والأبقار موجودة في كل مكان، والعنب غزير. ردَّت المُدربة إنه مجال له مستقبل كبير بسبب موضوع التصدير إلى آسيا. وجاملها قائلاً إن الرقص مهنة واعدة بشكل أكبر، لأن الفتيان والفتيات الذين يظهرون في التلفزيون مهووسون بالرقص، وكل من لا يظهرون في التلفزيون يكافحون لكي يظهروا يوماً واحداً على الشاشة وهم يرقصون. ردَّت المدربة إن رقص هذه الأكاديمية لا يحمل إلى التلفزيون وإنما إلى مسارح عريقة مثل المسرح البلدي بسانتياغو، أو مسرح كولون في بوينوس أيرس، مادامت

موهبة الرقص موجودة بالطبع. واستصوب أنخيل السؤال عمّا يعني امتلاك موهبة الرقص، وقالت له إن الموهبة هي قدرة الجسد على أداء رد فعل دقيق على الفانتازيا الأصلية التي يمتلكها كل راقص للتعبير عن شيء ما يخلب لبّه.

- على سبيل المثال، أقوم الآن بمساعدة أختك على اختراع حركاتٍ مستوحاة من قصيدة.

قال الفتى بحماس:

- قصيدة لغابريلا ميسترال.

نظرت إليه فكتوريا مضطربةً، وقد تدلى فكُّها السفليّ رغماً عنها. وبلّل أنخيل شفتيه المبتسمتين وتيقّن من أن حظه حسنٌ لمرّة أخرى في هذه الحرية القصيرة خلال يوم. عثر ملاكه الحارس على طريق العودة للبيت، وكان يرشده للخطوات التي يجب أن يتّبعها بينما يهدي له الإلهام تلو الآخر.

وافقت المُدرِّبة الجادة وقالت:

- بالضبط إنها قصيدة لغابريلا ميسترال. إنها تريد أن ترقص «سوناتات الموت»، لا أكثر ولا أقل.

قال الشاب بسرعة:

- «... وأهبط بك إلى أرضٍ مشمسة».

علّقت المُدربة باهتمام:

- يبدو أنك تحب الشعر.

- آه، لا. هذه القصيدة فقط. في نهاية الأمر فهي قريبة للغاية من عالم الزراعة، أليس كذلك؟

ابتسمت المُعلمة ردّاً على فكرته، وارتدت معطفها ثم ودّعت كلاً

منهما بقبلة. وقبل أن ترحل أخرجت بطانيات من أحد الدواليب وأعطتهما إياها. ذهبت فكتوريا حتى الفرن الصغير ووضعت ماءً ليسخن من أجل النسكافيه. ملأت كوبين من الفخار وجلست على الأرض بالساقين منفرجتين. حرق الفتى لسانه بالرشفة الأولى، لكنها نفخت في كوبها بحذرٍ. قالت بعد برهة من الصمت:

- مَن منّا سيبدأ؟

- يبدأ في ماذا؟

- في قول الحقيقة.

دفّأ الفتى يديه بفركهما على كوب القهوة، وعندما نظر إلى العمق السحيق لعينيها البنّيّتين، تمنّى في صمت أن يحالفه حظه السعيد. لم يكن راغباً في اقتراف أيّ حماقة. لم يكن راغباً في فقدها في تلك الليلة، ولا في أي ليلة.

- اسألي!

- ما اسمك؟ أعني اسمك الحقيقي.

- أنخيل سانتياغو.

- يبدو اسم عازف ترومبيت في أوركسترا لموسيقا السالسا.

- حسناً. إنه الاسم الذي أطلقوه عليَ.

- أبواك؟

- أو قسّ القرية. كنت صغيراً للغاية فلا يمكنني تذكّر هذا.

- وماذا تعمل؟

- أرتحل من مكان إلى آخر.

- وماذا تفعل مرتحلاً من مكانٍ إلى آخر.

- لا شيء. لا أفعل أي شيء في انتقالي من مكان إلى آخر.
- وموضوع الزراعة؟ هل تمتلك أراضيَ في تالكا؟
- الأرض الوحيدة التي أمتلكها هي نعل حذائي.
- وممَّ تعيش إذاً؟
- حسناً، لديّ مشروعات.
- ما هي؟
- بعض الأفكار لكسب المال. الكثير من المال.
- حدِّثْني عن هذا.
- إنه سرّ. إن أخبرتك به، ستحترق الأفكار.

ارتشفا بقية القهوة في صمت، وبعد ذلك خلع أنخيل حذاءه ووضعه بالقرب من المدفأة. وأطلقت الشريط الذي كان يغطي جبهتها، وبهزّة رأسٍ جعلت شعرها يستعيد مظهره الهائش المعتاد.

قال الفتى:

- حان دوري الآن.
- اسأل!
- لا أريد توجيه أي سؤال. لكن لدي ثلاث رغبات.
- الأولى؟
- أخبريني عندما ترقصين في مسرح البلدية.
- لماذا؟
- ذات مرة رأيت في التلفزيون فيلماً حيث يرسل الخطيب باقة زهور للفتاة التي تنجح في عالم الباليه. إنني مهووس بإرسال باقة زهورٍ لك في مسرح البلدية.

- هذا لن يحدث مطلقاً. هذه أكاديمية متواضعة. الفتيات اللائي يتدربن هنا لن يصلن إلى مسرح البلدية أبداً.

- حسناً، على أية حال، إن وصلتِ مصادفةً ذات يوم إلى مسرح البلدية، أخبريني بهذا.

- حسناً.

- رغبتي الثانية أن تذهبي غداً للمدرسة وتطلبي قُبول عودتك.

- احتمالات رقصي في مسرح البلدية أكثر من عودتي للمدرسة. لقد تم فصلي يا أنخيل.

- كل امرئ يُفصَلُ ذات مرة من المدرسة، لكن تُقْبَلُ عودته مرة أخرى.

- لقد حدث هذا معي بالفعل. رسبتُ مرتين وفي الثالثة فصلوني.

- لكن لماذا؟

- لأنه تم استدعاء وليّ أمري في المرّتين الأوليَين، لكن أمي لم تذهب.

- لم ترغب في الذهاب؟

- لا أريد الكلام عن أمي.

- حسناً، اهدئي!

- أنا هادئة.

- أنت هادئة. حسناً، لا تشغلي بالك.

أخذت فكتوريا في شدّ الشريط المطاطي وإرخائه بين يديها، ونظرت خلال وقت طويل إلى المطر المتساقط على نوافذ القبو الصغيرة.

- فُصلتُ من المدرسة لأنني لا أستطيع التركيز. دائماً ما أشردُ أثناء الحصص. أي إنني كنت أفكر دائماً في الأمر ذاته.

- فيمَ كنت تفكرين؟

- في أبي.

- ماذا حدث له؟

- عندما كنتُ في بطن أمي، اعتقلت الشرطة أبي على باب المدرسة التي كان يعمل بها مدرِّساً. رأى الجميع ما حدث. هاجمته الشرطة بطائرات هليوكوبتر وسيارات بلا لوحات أرقام. بعد يومين ظهرَ جسده مذبوحاً في قناة ريّ. ووُلِدتُ بعد خمسة شهور.

- ماذا فعل أبوك؟

- كان مناهضاً للديكتاتورية. كان يمكنه التَّعرف على بعض الخاطفين الذين قتلوا وأخفوا الكثير من الأفراد. أعتقد أنه كان آخر المقتولين. بعد ذلك جاءت الديمقراطية.

- يجب أن لا تفكري فيه طوال الوقت.

- إن لم أتذكّره فسيختفي للأبد.

- لكن هذا هوس. هذا يُضرّ بعقلك. لهذا لم تكوني جيدة في المدرسة.

- التحقت بالمدرسة الثانوية ذاتها التي كان يُدَرِّس بها. كان الجميع لطفاء للغاية معي. كانوا يعاملونني كأنني من الكريستال وقد أتهشم في أي لحظة. حصلتُ على منحة حتى الانتهاء من الثانوية العامة.

- لا يمكنك إهدارها.

- أمي تطمح في أن أدرس القانون. تخيَّل! أدرسُ القانون في بلدٍ، قَتلوا فيه أبي دون عقاب.

- لكنها أمك. يجب أن تخبريها بالحقيقة، وستكلم مدير المدرسة وسيقبلونك مرة أخرى.

- أمي تعاني من اكتئاب عميق ولا تكترث بأي شيء مطلقاً. بينما كان

الجميع يتحدثون عن أبي كبطل بعد اغتياله، كانت هي تشكو من أنه قد هجرها. وعندما وُلدت، بدلاً من أن تبتهج لميلادي، كانت تأسى لهذا لأنني كنت أذكّرها بزوجها. ذات يوم قالت لي: «فقدَ الحزبُ عضواً في الحرب؛ أما أنا ففقدتُ رجلاً في البيت».

فكَّر أنخيل في ارتجال أي مبرر ليُخرجها من الحالة الاكتئابية، لكنه شعر أن الكلمات لا تسعفه، وفضَّل كبح المداعبة التي كانت ستتجه إلى وجنة فكتوريا، لأنه خشي التعبير عن شفقة قد تبغضها الفتاة. ذهب حتى قضبان التمرينات وأتى ببعض الحركات الرياضية التي تعلَّمها في المدرسة الثانوية. بعدما تشجعت روحه بفضل الحركة، عاد إلى الفتاة وقال لها:

- سأصطحبك إلى المدرسة غداً، وأنا بنفسي سأقوم بإقناع المديرة.

انطلقت فكتوريا في الضحك دون سخرية. فجأة أصبحت على حالة من المزاج الرائق الذي لا يُقاوم.

- أنت؟ بأي صفة؟

- أنا أخوك من تالكا. وهذا يمنحني شيئاً من السلطة إزاءك وإزاءها.

- إنهم يعرفون أنني بلا إخوة. عاماً بعد عامٍ، في خطابات افتتاح العام الدراسي، كان المُعلمون يشيرون إلى وحدتي، وإلى المأساة التي تجاوزتها تشيلي. تعبير «تجاوزتها» يثير ضحكي. لا يمكن تجاوز الموت مُطلقاً.

- سأقول لها إذاً إنني خطيبك وإننا سنتزوج.

- إن كنت لا تمتلك ثمن تذكرة الحافلة، بمَ ستُقيم أوَدي وتلبّي احتياجاتي؟

- لقد أخبرتك أن لديّ مشروعات.

- ما هي؟

- هذا لا يعنيك.

تثاءبت فكتوريا ووضعت حشيّة بجوار الحائط. خلعت زيّ الباليه وطوت البلوزة المدرسية جيداً، ثم وضعتها على المقعد بجوار الزيّ المدرسي. وعلى صدرها العاري رأى سانتياغو نهدَين صلبين ومتوسطَي الحجم، وبينهما أرخبيل من النمش الطفولي. جرَّ حشيّةً أخرى ووضعها بجوار حشيّة فكتوريا، وغطّى جسديهما بالبطانية الصوفية الضخمة. كان النسيج الثخين يَعِدُ بدفءٍ أكيد، وأصابه قرب جسد الفتاة بالدوار. عندما وضع ركبته الثلجية بين فخذيها قالت له بعينين مغمضتين:

- تذكَّر أنك أخي من تالكا!

لكن الفتى أمسك كيلوتها بأطراف أصابعه وبحركة خشنة أنزله حتى كعبَيها، ودون أن يمنحها وقتاً للتخلّص منه تماماً، اقترب منها من الخلف بعضوه الصلب، ولحظّه الحسن، وجد أن فرجها رطب، وولجها بينما يعضُّ على شفتيه، وعندما سمع تأوّهات الفتاة لم يقاوم أكثر من هذا، وترك كلّ ذلك السائل الثخين يُراق داخلها، بعدما ظل محبوساً في ليالي الحزن والخيالات.

6

أيقظته دقّات على الباب. في البداية كانت خجولة، وبعد ذلك أصبحت قوية. ذهب إلى الحمّام أوّلاً لكي يغسل فمه، ونظر بأسىً إلى زجاجة الشمبانيا الممتلئة تقريباً. قبل عشرين عاماً لم تكن زجاجتان كافيتين لليلة مبهجة. ارتدى البنطلون بِرويّة. أصبحت الدقّات كدقّات رجال الشرطة.

- إذا خبطت الباب أكثر فسيزداد تباطُئي.

توقَّف الضجيج على الفور. أخذ وقته في تصفيف الشارب، ولم يغفل عن أن اللون الأبيض يربح المعركة ضد الرمادي. وبعد ذلك فتح الباب على آخره، حيلة قديمة للص الذي لا يوجد لديه أي شيء ليخفيه. كان يعتقد أن الشخص العنيف الذي جاء باكراً من رجال الشرطة.

على الرغم من هذا، كان الفتى الذي يحكّ أنفه بعصبية في الممرّ يبدو مُستجدّاً، أو متدرّباً لحوحاً. كان يحمل كتابين في يده اليسرى. ولم يكن شعره قد تعرَّض للمشط طوال شهور. كان يحمل قلماً أخضر على إحدى أذنيه وتفوح منه رائحة شخص لم ينم طوال الليل.

- ماذا تريد؟

حمل الفتى يده إلى صدره تحيّةً، وسعل قبل أن يتكلم في النهاية:

- بيرغارا غراي. أنا أمام بيرغارا غراي ذاته، لا يمكنني تصديق هذا!

- توقف عن التمثيل يا فتى. ماذا تريد؟

- هل يمكنني الدخول؟

- من الأفضل ألا تدخل. هذه الغرفة مسكن عابر فقط. أقلّ من مستوانا بكثير.

- لا يا مُعلِّم. إنها رائعة.

ذهب الرجل حتى النافذة. فتح الستارة وشعر بالراحة لرؤية أشعة الشمس التي تتخلّل الضبخان الذي لا مفرّ منه في شهر حزيران/ يونيو. لكنه مشمس على أية حال. مقارنة باليوم البائس لحصوله على حريته العظيمة، كان يوم الثلاثاء هذا يبدو عيداً.

رفع حاجبيه متخلّياً عن الموقف العدائي الذي يتخذه منذ دقائق.

- فيمَ يمكنني مساعدتك يا فتى؟

- أحمل خطاب توصية لحضرتك؟

- ممّن؟

- من السجن. أفرجوا عني بالأمس.

- أنا أيضاً خرجت. العفو ذاته، أليس كذلك؟

ردَّ الفتى بسرعة بديهة:

- القدر يجمع بيننا.

- هل هي رسالة من مأمور السجن؟

- من تظنّني يا سيدي؟ إنها من سجين.

- من سجين؟

- من ليرا القزم.

- خطاب توصية من مجرم مثل ليرا؟ أنصحك بألا تطلب عملاً في بنكٍ يا صغير!

- من فضلك، افتحه واقرأه.

وضع الرجل الرسالة فوق غطاء الفراش وابتعد بسرعة، ثم ظل ينظر إليها خلال برهة بحاجبيه مقطّبين. أمسكها الشاب وأعطاها له مرة أخرى. مسح الآخر أصابعه في البلوفر كأنما يرغب في إزالة بصمات أصابعه. فتح المظروف بأصابعه وأخرج رسالة مهترئة، ثم رفعها عالياً كأنها ذيل فأر.

سأل الفتى المتلهّفُ وهو يبدل الكتب المُغلفة بأوراق رسم بياني من يدٍ إلى أخرى:

- ماذا يوجد بها؟

- «أُقدِّمُ لك أنخيل سانتياغو». توقيع: القزم.

- هل هذا هو كلّ شيء؟

- هذا هو كلّ محتوى الرسالة العظيمة الهامة. ليرا القزم يكتب ما يناسب حجمه.

- ربما كان قولُ أيّ شيء آخر ورطةً كبيرة. سأحكي لك البقية بنفسي.

- كم يسعدني هذا أيها الشاب. لأن هذه الرسالة تشبه السور المصمت.

- قبل أي شيء، أنا أحمل هديّة لك. كتابان. إنهما مُستعملان لكنهما جيدان.

- أشكرك. آه.. قلب و ثلاث زهور صفراء!

- دائماً ما رأيت نفسي شبيهاً بجارون في كتاب قلب. الفتى الطيب في المدرسة.

- هذا يعني أن دخولك السجن كان بسبب سوء فهم؟

- لا تسخر مني يا مُعَلِّم. في الكتاب الآخر توجد حكاية تتناول موت تشيخوف. هل تعرف من هو تشيخوف؟

- يبدو لي لاعب شطرنج.

- إنه كاتب روسي.

- لم أهتمّ بالسياسة قطّ.

- تشيخوف سابق على الشيوعية.

- حسناً. لابد أنك قد أدركت أنني لست قارئاً كبيراً. على أية حال أشكرك على الكتب. سأحاول تصفُّحها.

دفعَ سانتياغو الهواء بيديه تعبيراً عن عدم الأهمية.

-آه، لا. لا ضرورة لأن تقرأها يا مُعَلِّم. تغليف الكتب هو ما يهمّ وليس الكتب ذاتها.

حكَّ بيرغارا غراي رأسه، ثم ربت على وجنته غير الحليقة.

- فَسِّر لي هذا!

- يشقُّ العثور على ورقٍ أفضل من هذا لتغليف الكتب في السجن. هكذا قرّرنا حمايتها بورق رسم بياني.

- هذا ما أراه.

- إنه ابتذال وسنصوّبه على الفور.

وجمع بين الكلمات والفعل، قام بفضِّ تغليف الكتابين وأخذ يسوّيهما على غطاء الفراش.

- سيد بيرغارا غراي: إن إبداع القزم ليرا متناسب بشكل عكسي مع حجمه.

وبحركة واحدة أدار ورق الرسم البياني إلى الوجه الآخر، فظهر على

سطحه رسمٌ دقيق ومُعقّد يبدو خريطة. كان رسماً مُصغّراً لمخطط هندسيّ معماري.

- ما هذا؟

- إنها استراتيجية لضربةٍ كبرى، خطّط لها القزم خطوةً بخطوة. كانت ستصبح عمليته الكبرى، لكنه سقط في يد الشرطة بسبب عملية تافهة لا تساوي عُشر موهبته. إنه يرسلها لك مع أمنياته الطيّبة كبادرة تقدير.

- آسف، لقد تقاعدت!

- اسمح لي أن أشرح لك!

غطّى الرجل أذنيه.

- الأمر لا يستحقّ. لا أريد سماع أيّ شيء.

- اسمع هذا على الأقل: الأمر يتعلق بألف ومئتي مليون بيسو.

- بالدولارات؟

- السعر غير الرسمي 745 للشراء، هذا يساوي مليون وستمئة وعشرة آلاف وثلاثمئة واثنين وثمانين دولاراً بالضبط.

- الآن لتستمع هذه الحسبة الأخرى: عام من السجن مقابل كلّ مئة ألف دولار. وفي المليون وستمئة وعشرة آلاف يتكرر مبلغ المئة ألف دولار ست عشرة مرة، ولهذا ستقضي ست عشرة سنة في السجن. لكي تضع يدك على هذا المبلغ الرائع لا يكفي أن ترفع ذراعك وتمسك به كمن يقطف عنقود عنب. مثل هذا المبلغ الكبير مُحاطٌ دائماً بمسدّسات وحرّاس. لنقل إنك كنت محظوظاً وقتلت واحداً فقط. بسبب جريمة القتل يمكننا أن نضيف.... هل قتلت أيّ شخصٍ من قبل؟

- ليس بعد؟

- هذا جيّد. يمكن أن يُحكَم عليك بعشر سنوات كعقوبة على جريمة القتل الأولى، إضافة إلى الست عشرة سنة السابقة، يكون المجموع ستّاً وعشرين سنة خلف الأسوار. ولنفترض الآن أنك طيب مثل شخصية جارون في عمل أميثيس، ستُخفَّض العقوبة خمس سنوات لحسن السير والسلوك، وسيكون المجموع النهائي واحداً وعشرين عاماً. كم عمرك الآن؟

- عشرون عاماً يا مُعَلِّم.

- ستخرج من السجن في الحادية والأربعين من عمرك، وربما تخرج بوريقات شبيهة بورقة ليرا في جيبك.

- إن كنت ألجأ إليك فلأنني أعرف أنك لم تطلق رصاصة واحدة مُطلقاً. هذه هي روعة مسيرتك المهنية.

- أنا لست معصوماً يا فتى. ها أنت ترى أنني قضيت خمس سنوات داخل السجن. بل إن الشيب قد طال شاربي أيضاً.

- لكنّك لم تسقط أثناء ارتكاب الجريمة. حكم القاضي عليك بعشر سنوات لأنك التزمت بالصمت.

- إما أنك تعرف الكثير أو تتباهى كثيراً.

- لم يكن هناك موضوع حديث في السجن سوى حضرتك: المُعَلِّم بيرغارا غراي. ليرا القزم يطمح إلى عمولةٍ بالطبع.

- أتمنّى أن تكون عمولة «صغيرة».

- إن تطلّعاته محدودة. ليرا يتمتع بحسّ دعابة كبير. كان يحكي لنا حكايات القزم منوتيروسو.

- لنرَ!

- هذه على سبيل المثال: «الأقزام يمتلكون حاسة سادسة تسمح لهم بالتعرف بعضهم على البعض الآخر من أول نظرة».

مسَّد الرجل شاربه وذهب حتى النافذة لكيلا تنفضح ابتسامته. كان يفضل ألا يعترف بأنه يتسلى بالفتى الطموح، وكان يخشى أن يُسقطه أيّ ضعفٍ في الغواية.

- من الأفضل أن نتناول الإفطار. شاي أم قهوة؟

- أريد قهوة بالحليب. هل ستدعوني حقاً؟

- سأطلب أن يأتوا به من البار. في أثناء ذلك يجب شراء خبز طازج من المخبز.

- سأذهب بنفسي.

- أشكرك على لفتتك الطيبة.

- أيَّ نوع من الخبز ترغب؟

- تشكيلة. أتناول إفطاراً قوياً لكنني لا أتناول الغداء بعد ذلك.

- فهمتُ.

- اشترِ قطعتَي خبز مدوّر وثلاثاً من الخبز المربّع، وثلاثة أرغفة من الخبز الطويل، وأربع شرائح من الخبز المجفّف، وثلاثة أرغفة خبز بالبصل، وثلاث قطع من كعكة الفواكه المحفوظة والزبيب.

- تحت أمرك يا مُعَلِّم! معذرة لأنني سأطلب منك طلباً بسيطاً! هل يمكنك أن تعطيني شيئاً من المال؟ لقد خرجت من السجن مفلساً.

أخرج الرجل ورقة خمسة آلاف بيسو من حافظته ولفَّها كأنبوب، ثم وضعها فوق أذن أنخيل.

- هاك!

- الخبز على حسابي بالطبع. لنحسم هذا القرض من الغنيمة!

- من الألف ومئة مليون؟

- من نصيبي في الألف ومئة مليون.

استعدّ الفتى للخروج، لكنّ المجرم وضع ساقه أمامه.

- كيف خطر للقزم ليرا أننا يمكن أن نعمل معاً؟

- قال القزم ليرا: «مهارة وخبرة بيرغارا غراي، وطاقة أنخيل سانتياغو».

- إنه مديح مثير للحزن إلى حد كبير.

أشار الفتى إلى خريطة السرقة الموجودة فوق غطاء الفراش.

- ما رأيك في هذا للوهلة الأولى؟

- من الواضح أن هناك الكثير من الجهد في هذه الخريطة.

- ثلاث سنوات فقط. في البداية كان القزم يخشى من ترك أيّ دليل. لم يكن راغباً في رسم أي شيء، لأنه كان يخشى من قيام أيّ شخص بسرقة الغنيمة منه. وهكذا كنا نجلس في الفناء الترابي، وكان يشرح لي الخطة مرّةً تلو الأخرى وهو يرسم بفرع شجرة. وعندما يقترب أحد الحرّاس كنا نمحو الرسم بأقدامنا. كنا نقول لهم إننا نلعب! حتى خطر لي تغليف الكتب بورق الرسم البياني. فكرة بسيطة لكنها لامعة، أليس كذلك؟

- هل هذا يعني أنك جيد في تذكُّر الأشياء التي تسمعها مرّة واحدة؟

- أنا لا أعتبر نفسي متباهياً. لكنني أمتلك هذه الموهبة. سأذهب للمخبز وأعود.

تقدَّم نحو الممرّ، وهناك جاءه صوت الرجل حازماً:

- من باب الفضول يا سيّد سانتياغو. ماذا سوف تشتري؟

- خبزاً، بالطبع!

- أيَّ نوع من الخبز؟

رمشت عينا الفتى خلال عشر ثواني، ووضع طرف لسانه بين أسنانه بينما يحكّ أنفه:

- قطعتا خبز مدوّر وثلاث من الخبز المربّع، وثلاثة أرغفة من الخبز الطويل، وأربع شرائح من الخبز المجفّف، وثلاثة أرغفة خبز بالبصل، وثلاث قطع من كعكة الفواكه المحفوظة والزبيب.

- اِذهب في رعاية الربّ يا فتى!

- ولا تنسَ الجزء الذي يخصّك.

- الجزء الذي يخصّني؟

- أن تطلب لي قهوة بالحليب.

7

استقلّت فكتوريا الحافلة الأولى في الفجر، الحافلة ذاتها التي تحمل عمّال البناء من الأحياء المحيطة بالمدينة إلى منطقة الأغنياء، وتقوقعت في المقعد دون أن تستطيع حماية نفسها من البرد. كان شعر الرجال مبتلّاً، والكوفيّات ملفوفة حتى أنوفهم، وكان كلٌّ منهم يُمسك بكيسٍ من الخيش، يحمل فيه ساندوتشاً وتُرمُس قهوة من أجل الغداء.

عندما هبطت في ناصية المدرسة أوشكت على الإغماء: رغم أنها قرأت الكثير من المقالات حول مخاطر النحافة المفرطة، إلا أنها كانت تعرف جيداً أن بضعة غرامات أكثر من اللازم يمكن أن تُحبط تطلّعاتها للأبد، أو تُفشل قفزتها نحو ذراعي زميلها في رقصة الباليه، وكانت تُفضِّل الجوع على فقدان هيئتها كراقصة باليه. بعد التخفّف العنيف من حمولهما في الليلة السابقة، تلهّى أنخيل سانتياغو خلال ساعات بمداعبة جلدها، وبينما كانت هاتان اليدان الخشنتان تمرّان على جسدها، شعرت أنها نحيفة أكثر من أيّ وقت مضى. كأنما كان يكتب شيئاً ما على جلدها بأصابعه الخشنة، وتركته يفعل هذا، خاضعةً للَمْسته الحامية. لكن، في الوقت ذاته، كان ذلك التأثير المفاجئ على حياتها يُفقدها اتزانها. فصلوها من المدرسة قبل شهر، والآن تقف أمام البوابة مرة أخرى بدلاً من الطواف بقاعات

سينما العرض المستمر الصباحية، ولم تكن تعرف ماذا ستفعل عندما يدقّ الجرس. كانت براهين أنخيل أكثر إقناعاً من العتاب الصامت لأمها: كانت في العام الأخير من الدراسة الثانوية، ولا يمكنها أن تسمح بتدمير حياتها بسبب أزمة في التحصيل الدراسي.

«دور المُدرّسين أن يُعلِّموك، وإن لم ينجحوا في هذا، فالفشل يعود لهم وليس لك!»، همس أنخيل حاسماً في أذنيها.

شرحت له الفتاة، دون أن تنظر إليه، وهي تتحدث للوسادة، إنها تعجز في التعبير عن نفسها في كثيرٍ من الأحيان، وإن كل شيء، من أتفه شيء حتى أعمق شيء، يتحول إلى حركة. «يمكنني الرقص بسبب الألم، لكن لا يمكنني البكاء بسببه».

«يجب أن تكون حاصلة على الثانوية العامة لكي يمكنك الالتحاق بالمدرسة العليا للفنون. يجب أن يكون هذا هو هدفك، النصر، وإلا فلن يتجاوز مصيرك العمل عضواً في كورال في عروض مسرحية مبتذلة، أو التدريس للأطفال الصغار». هل ترين نفسك وأنتِ تُعَلِّمين: «نام وكُل رز بالحليب؟!»، لأطفالٍ صغار يتساقط منهم المخاط، وبناتٍ يحملن الدُّمى؟ هل تعتقدين أن أباك كان سيوافق على هذا المصير؟ لابد أنه كان يرغب في شيء عظيم لك عندما قُتل. كان يرغب في حرية الناس!».

«لكن بدلاً من هذا، ترك أمي رهينة بي، أرملة، حبلى». قالت فكتوريا وهي تستدير، «ولم تعتد تكترث بنفسها ولا بي أو بالحياة. وتأتي أنت لتحدّثني عن الحرية!».

ابتسم أنخيل سانتياغو إزاء هذه الجملة، وقال لها: «لا توجد أهمية كبيرة في تاريخ الكون لقيام بضعة مُعلّمين تافهين بطردك من المدرسة وتحطيم حياتك وإفساد حلم أبيك. لكن إن حدث الأمر بهذه الطريقة، فهذا يعني انتصار من قتلوه. هزموك أنت. ومحوه من الخريطة».

كانت قد غطَّت رأسها بالوسادة. لم تكن راغبة في سماع العِظات، قالت. وإنها لم تعد تطيق المثرثرين. وعلى الرغم من هذا كانت تدخل المدرسة الثانوية الآن بزيّها الموحّد الأزرق، الذي كان مُغبرّاً ومتّسخاً ببقع عصائر فواكه وبقع أقلام بيك، والحقيبة الجلدية على ظهرها وهي تنظر إلى بلاطات الممرّ.

كانت أول الواصلين إلى القاعة. فردت المئزر ذا المربعات الزرقاء وارتدته، وحاولت كيّه بيديها دون نجاح. جلست على الدكة المعهودة ذاتها ورأت اسم الراقص خوليو بوكا من جديد. الاسم الوحيد الذي حفرته بنفسها بين حمّى نقش أجيال من الفتيات لأسماء أبطالهن من المشاهير أو أصدقائهن العابرين. سألتها دوتشي الشقراء عندما جلست بجوارها:

- هل حصلت على العفو؟

كانت الفتيات الأخريات ينظرن إليها أيضاً من أماكنهن على الدكك الأخرى.

- لا.

- ماذا تفعلين هنا إذاً؟

- سأرى ما سيحدث.

- سوف يطردونك ركلاً. هذا هو ما سيحدث.

- لا يحقّ لهم هذا. نحن نعيش في ديمقراطية وأنا أريد الدراسة.

كانت الحصة الأولى للفنون التشكيلية، وحسبما أمكن للفتاة أن ترى خلسة في دفتر الرسومات المبدئية لزميلتها، كانوا يدرسون النزعات التصويرية في القرن العشرين. وزَّعت عليهم المُعَلِّمة أوراقاً منسوخة على آلة تصوير مستندات وبها اثنتا عشرة لوحة، ويجب على الطالبات أن يحدِّدن إلى أي مدرسة تنتمي كلٌّ منها، وأن يشرحن الأسباب في عبارة

واحدة. كانت الإجابات المُحتملة في نهاية الصفحة: التعبيرية، السريالية، التنقيطية، الانطباعية، التكعيبية، التجريدية.

غشّشتها زميلتها:

- سيزان تكعيبي، لأنه يُبدِّل أبعاد هيئة شيء ما كأنها أشكال هندسية.

- لماذا يفعل هذا؟ سألت فكتوريا.

- لأن هذا هو ما عنَّ له. كل الفنانين الذين يفعلون شيئاً لم يسبقهم أحد إليه يصبحون مؤسسي مدارس فنية.

- ودالي؟

- هذا سريالي. على سبيل المثال توجد هنا الساعة التي تذوب في الصحراء. ليس بسبب الحر؛ وإنما لأن الوقت بلا نفع، بلا فائدة، كالصحراء. هل تفهمين هذا؟

- أين تعلَّمت كل هذا؟

- أنا أتعلَّمُ ما يفيدني. في رقم ثلاثة اكتبي: «فان غوخ». هذا الرسام يرى الألوان أولاً وبعد ذلك يرى الأشياء. عندما يقوم بإدراج الأشياء في الألوان التي يراها فكأنما يراها لأول مرة.

- مثل عبَّاد الشمس؟

- هذا على الرغم من أنها نسخة رديئة. إن رأيت هذا في أمستردام ستشعرين أنك تحلِّقين.

- هل زرت أمستردام؟

- كيف سأزورها؟ بأيّ نقود؟ اكتبي «فان غوخ» هنا.

- ماذا ستدرسين عندما تنتهين من الدراسة الثانوية؟

- سأعمل. سكرتيرة بلغتين. عائلتي فقيرة. احملي الأوراق للمُدَرِّسة.

كانت عينا السيدة سانهويثا خضراوين طيّبتين، تستقران فوق وجنتيها الممتلئتين، وعادة كانت تجعل الفتيات يمرِّرن التمرينات من طالبة إلى أخرى، لكي تتفادى المرور بحجمها الهائل عبر القاعة، فتصبح هدفاً لصرخات الفزع التي تتظاهر بها الطالبات عندما تتقدم بمؤخرتها المتأرجحة كالزنبرك بين صفوف الدكك. بينما الطالبات يعملن على حلِّ التمارين، كانت المُعَلِّمة مُستغرقة في مجلة لتركيب البازل لممثلي السينما. كانت تشارك تلميذاتها الحماس لهيو غرانت، لكنها كانت تعتبر نفسها أقرب إلى ناضجٍ وسيم جذّاب كريتشارد غير.

ذات مرة شاركت في مسابقة تلفزيونية، وأوشكت على ربح مئة ألف بيسو بإجابتها عن حياة وعمل جيريمي إيرونز، وفشلت تحديداً في السؤال عن قائمة الممثلات اللائي شاركن في «بيت الأرواح». فشلها في الرد على موضوع خاص بتشيلي جعلها تسقط مريضة بالروماتيزم خلال أسبوعين، وهي الفترة التي لم تنظر خلالها في عيني أيّ شخص.

اندهشت المُعَلِّمة عندما رأت ورقة فكتوريا أمام عينيها:

- هل انتهيتِ؟

- نعم يا مُعَلِّمة.

راجعتْ اللوحات والتعليقات ووضعت عليها علامات بقلم رصاص فابير.

- الإجابات كلّها صحيحة.

عندما بحثت عن اسم الفتاة في دفتر الفصل لكي تعطيها أعلى درجة، وجدت أن اسمها ممحو بعلامة حمراء قوية. وصاحت:

- يا ابنتي... أنت غير موجودة. انظري هنا : «مفصولة يوم 20 مايو بسبب تحصيل دراسي سيّئ متكرّر».

ابتسمت الفتاة ببراءة:

- ذهبتُ وعدتُ. وفيما يتعلق بتحصيلي الدراسي، يمكن لحضرتك أن ترَي أنني لست الفتاة ذاتها.

- درجة سبعة في تاريخ الفن تُعتبر إنجازاً يا جميلتي. نادراً ما أعطي أعلى درجة لأي شخص.

- لقد نضجتُ يا مُعلِّمة. قبل ذلك لم أكن أعرف ماذا أفعل بحياتي. أما الآن فالشيء الوحيد الذي أرغبه هو الدراسة. الحصول على منحة والالتحاق بالجامعة.

أحنت المُعلِّمة رأسها موافقة، وضعت الورقة ذات الدرجة العالية فوق دفتر الفصل وقارنت الدرجات السابقة بها.

- وماذا تريدين أن تدرسي أيتها الشابة؟

- مُعَلِّمة فنون تشكيلية - ردَّت.

لم تعرف كيف ولا من أين جاءت بهذه الإجابة، لكن بدا لها نطقها بها غير قابل للتصديق. ربطت هذه الإجابة الموفّقة بذكرى عابرة لأنخيل. هل قام صديقها بتنويمها مغناطيسياً لكي تنطق بهذه العبارة البشعة، كما قامت دوتشي الشقراء بتغشيشها الإجابات الصحيحة بسرعة؟

إن كان وجه مدام سانهويثا عذباً في حد ذاته، فقد ارتقى في تلك اللحظة إلى الحلاوة الخالصة.

- هل هذا حقيقي يا صغيرة؟

- بالطبع يا مُعَلِّمة.

- طوال حياتي المهنية الطويلة لم يختر أي شخص مهنتي، ربما لأنني مُعَلِّمة رديئة، أليس كذلك؟

- العكس تماماً يا مُعَلِّمة. إن اهتمامك الشديد بنا هو ما أوحى لي بهذا الاختيار.

- كمُعَلِّمة في مدرسة ثانوية لن تربحي الكثير من المال مُطلقاً وسيشيب شعرك.

- أنا ما زلت في السابعة عشرة! يمكنك أن تتفهمي أنني لا أكترث الآن بالشعر الأشيب. لا يشغلني إلا تحقيق رغبتي.

وضعت يدها على صدرها كمن يُقسِم بالولاء أمام العلَم. مسحت السيدة سانهويثا الدمعة التي طفرت من عينيها.

كانت فترة الراحة الطويلة تبدأ في العاشرة. كانت الفتيات يقضينها في التَّسَكُّع في الممرات، الإفضاء بالإسرار حول أصدقائهن، تبادل الموسيقى المُحمَّلة من الكومبيوترات، التدخين في الحمامات، وضع كريمات مضادّة للحبوب، محاولة عمل الواجبات المتأخرة للدرس التالي، ومغازلة مُعَلِّم اللغة الفرنسية، الذي يكبرهن بخمس سنوات تقريباً، وبمظهره الذي يشبه جورج كلوني كان يصيبهن بالجنون.

في أثناء ذلك كانت السيدة سانهويثا قد تذرَّعت بمادة ما في لائحة وزارة التعليم، وطلبت اجتماع كل المُعلِّمين في مكتب المديرة لتناول موضوع الطالبة فكتوريا بونثيه، أمر حياة أو موت.

في المكتب الممتلئ بلوحات زيتية لرموز الوطن ومديري المدرسة، أُجْلِسَت الفتاة في المنتصف، تحت ثُريّا متواضعة التصميم، لكن بها ما يكفي من المصابيح لطرد بؤس ذلك الشتاء. عرضت المُعَلِّمة مبرّراتها بحماسٍ وحيوية جعلا وجنتيها البيضاوين تتخضّبان بالحمرة: العقاب العادل الذي أوقعه النظام التعليمي بفكتوريا أتى بأثره، وعادت النعجة الضالة إلى القطيع. لا تعود نادمةً فقط على سلوكها السابق، وإنما ممتلئة

بالرغبة في الدراسة، الرغبة في التفوق على نفسها، مُطيعة ومهذبةً مع مُعلِّميها، ودودةً ومتعاونة مع زميلاتها في الفصل.

ليس هذا فقط: لقد أبهرتها قبل قليل بحلٍّ مُعجِزٍ لتمرين حول تاريخ الفن، وللمرة الأولى خلال سنوات وضع قلمها أعلى درجة في تشيلي في دفتر درجات الفصل: سبعة.

- ماذا تريدين أن تقولي بكل هذا يا أستاذة سانهويثا؟

- أعتقد أن الأمر واضح للجميع. يجب التراجع عن فصل هذه الفتاة.

وجَّهت المديرة ابتسامة ساخرة لفريق التَّدريس.

- هل أخذتِ في الاعتبار أن التلميذة بونثيه قد فُصلت من المدرسة بعد الرسوب مرتين إضافةً إلى إنذارٍ بالفصل؟ هل تدركين أن أولياء أمرها لم يأتوا للمدرسة لكي يتم إبلاغهم بالتحصيل الدراسي الرديء لابنتهم الشاردة المتمردة؟

نهضت المُعَلِّمة سانهويثا من مقعدها بإصبعها إلى أعلى وقالت:

- أنت تعرفين جيداً يا سيدتي المديرة أن أباها لم يستطع المجيء لأنه أُغتيل على باب هذه المدرسة ذاتها، حيث كان مُعلِّما كبيراً. ومنذ تلك اللحظة يبدو أننا جميعاً أسرى للخوف في هذه المدرسة.

أتت المديرة بإشارة مُعبِّرة عن الضجر، ونظرت إلى الثريّا طلباً للصبر من السماء.

- أيّ خوف وأيّ ترهات!؟ لقد حدث هذا قبل سبع عشرة سنة وتوجد ديمقراطية في تشيلي منذ عشر سنوات. إلى متى سنلقي على بينوتشيه بالذنب في كل شيء؟ إن هذه الطفلة لم ترَ أباها.

انفجرت بقعة قرمزية مصحوبة بعرقٍ مفاجئ على جبهة مُعَلِّمة الرسم.

- لكنها خبرت غيابه.

نظرت لاهثة إلى زملائها واحداً تلو الآخر، وانتظرت أيَّ ردٍّ بحذر حيوانٍ مفترس يوشك على الانقضاض على فريسته. أخفض المُعَلِّمون نظراتهم بإذعان، باستثناء مُعَلِّم الرياضيات بيريوس، الذي تكلَّم بينما كان يتحقق من أن أظافره نظيفة ومقصوصة جيداً.

- أشعر بتعاطف شديد مع خَطابتك المملّة إلى حدٍّ ما يا مدام سانهويثا. لكن مستوى تحصيل هذه الفتاة في مادتي أقل من مستوى تلميذة في الابتدائية. أشكّ في أنها تعرف جدول الضرب!

- لنرَ! يا حبيبتي - توجَّهَتْ إلى فكتورياً-. كم حاصل ضرب تسعة في تسعة؟

- أربعة وثمانين يا مُعلِّمة.

رسمت المُعَلِّمة على وجهها تعبير انتصارٍ كمحامٍ يتوجه للنيابة. تنهَّد بيريوس وقال:

- إنه مجرد مثال. إنها لا تعرف أيّ شيء عن الجبر.

- هل كان بيكاسو يعرف الجبر؟

- ما أدراني!

- ودالي؟

- لا أعتقد. هذا كان مجنوناً تماماً.

- ولمَ تحتاج الطالبة بونثيه لمعرفة الجبر وهي لا تتطلّع إلا إلى أن تصبح مُعَلِّمة فنون تشكيلية متواضعة؟

- لكن يوجد منهج دراسي أساسي يا أستاذة. لا توجد أدنى أهمية لأن يخلط مهندس معماري بين الكبد والكلى، لكن أي إنسان مُتحضِّر يجب أن يعرف الدورة الدموية.

- الدم يعرف ما يفعله أفضل من حضرتك. الهواء يدخل ويخرج من

الرئتين دون أن تنتبه لهذا. الكلاب والطيور لا تحتاج إلى دروس في التربية الجنسية لكي تتزاوج.

غطّى بيريوس وجهه بمنديلٍ.

- أشعر بالخجل لوجودي هنا، سماعُ براهينك يحُطّ من شأني ويخفض من قدري يا أستاذة سانهويثا.

- يمكن لأي شخص أن يتعلم الجبر يا زميلي. لكن لم يرسم «مولين روج» سوى تولوز لاوتريه.

صفّقت المديرة لتقاطع عرض البراهين. كانت الساعة تشير إلى أن الراحة ستنتهي دون أن تتناول إفطارها. بدا أن صبرَ المُعَلّمين الآخرين قد نفد.

- ماذا تقولون أيها الزملاء؟ هل نمنح الطالبة بونثيه فرصة أخرى؟

كان المُعَلّمون شاردين أو مهمومين بمشاكل ذات طبيعة أخرى، فرفعوا أكتافهم.

8

طوال أسبوع قام بيرغارا غراي بطلبِ رقم تيريزا كابرياتي مرّتين في اليوم. عندما كانت تردّ عليه كان يقوم بغناء اسمها حرفياً، وكانت تنهي الاتصال. كان ضحيةً للمعاملة ذاتها في مرّات كثيرة، وفي ثلاث مرات طلبت منه زوجته ببساطة ألا يعاود الاتصال مُطلقاً، وتوَّجت الرفض بوضع السماعة بحدّة.

أفقدَه الاحتقار والرفض اتزانه، فلم يعد قادراً إلا على خلط أوراق الكوتشينة في غرفته بينما يحلم بضربة حظ. عندما تغرب الشمس كان يعبر الشارع إلى محل موناستريو، الذي كان يشير للبارمان بتقديم فودكا بعصير البرتقال لشريكه، وكان يتعلّل بأمرٍ عاجل، ويؤكد أنهما سيتحدثان طويلاً في الأسبوع التالي حول الكثير من الأمور المُعلَّقة.

قال بيرغارا غراي وهو يمسك بياقته بوداعة ويرفعه عن الأرض:

- يوجد أمر واحد مُعلق بيننا: النصف بالنصف. أو كما نقول «فيفتي فيفتي». كان هذا هو الاتفاق، وأودّ أن تحترمه.

- لا ضرورة لأن تُذكِّرني بهذا يا نيكو. سنُقَسِّم كلّ شيء كالإخوة.

- كالإخوة؟ لا يا موناستريو! «فيفتي فيفتي!».

بعد ذلك كان يتجول في الشوارع القريبة ويتحقق من أن طاقم الفتيات

قد تغيَّر في السنوات الخمس الأخيرة. كُنَّ كلهن جديدات شابات، وكزيٍّ موحّد يرتدين حمَّالات صدر وبنطلونات جينز تظهر منها ملابسهن الداخلية. وبين القطعتين تلمع حلقةٌ متدلّية من السُّرَّة التي يعلوها جلدٌ مشدود خالٍ من الترهلات. ومن النهود حتى بطونهن، كانت نظرات الرجال تنزلق على حلبة تزلّق على الجليد دون منحنيات.

كان حيّاً للفتيات النظيفات. كُنَّ يشربن مياهاً معدنية فقط مع زبائنهن، وفي فترات الراحة كُنَّ يطلبن بضعة أوراق خسّ وثمرة طماطم دون ملح، دون خلّ، دون زيت، وبلا أي نوع من الإضافات. كُنَّ يتناولن العشاء بهدوء، يمضغن ببطء، كأن هذا الطعام الخالي من السعرات الحرارية كافيار.

نجمات عصره في الإجرام انسحبن من ساحة المعركة مثخنات بجراح بضعة كيلوات زائدة والتجاعيد. بالطبع لم يكنَّ يعرفن استخدام مُشغّل الأقراص المدمجة المحمول، ولا كنَّ قادرات على غناء أغنيات الموضة بالانجليزية كما تفعل هؤلاء الجميلات اللائي يغوين مديري الشركات المتعجرفين. كلما تَمَعَّن في مراقبته للوسط تزايد جرح الوحدة له. كان قد تَخيَّل حرّيته مختلفة تماماً، وذات ليلة شعر بالحنين للسجن.

يوم السبت، بعد أن ألقى نظرة على رسم المصعد الذي يحتوي مخطّط ليرا القزم، أمسك بالتليفون مذعناً وطلب رقم تريزا كابرياتي مُستبقاً الألم الذي سيثيره الرفض. لكن المرأة لم تقطع المكالمة هذه المرة، رغم أنها سألته عن أحواله بنبرة غير مكترثة على الإطلاق.

- أنا بخير يا حبيبتي. بحالٍ جيدة للغاية.

- ابتهج لهذا يا نيكو. هذه المرّة لم أضع السماعة لأننا يجب أن نتحدث معاً.

- هذا ما أحاوله منذ أسبوع.

- إنه أمر مُتعلّق بك وبي وبابنك.

ابتسم الرجل وقال:

- أوراق الآس الرابحة خاصتي.

- سنتحدث وجهاً لوجه. أريد أن نلتقي غداً لننهي الأمر.

- هل نلتقي للغداء؟

- لا. الغداء يستغرق وقتاً طويلاً. من الأفضل أن نلتقي في ساعة الشاي. إنه وقت أفضل.

- أين؟

- يوجد صالون شاي في شارع أوريجو لوكو، عندما تصل إلى ناصية كوستانيرا. اسمه فلوبير. سأذهب مع بابليتو في الخامسة غداً.

- هل أنت متأكدة أنه سيذهب.

- إنه لا يرغب في رؤيتك مُطلقاً، لكن بما أن الأمر هامّ....

- إنه ابني. يجب أن لا يتخذ هذا الموقف.

- لقد أوقعتَ به ضرراً كبيراً يا نيكو.

- أنا؟ أوقعت به ضرراً؟ أوقعُ ضرراً بأكثر شخصٍ أحبّه في العالم؟

- حاول التحكّم في نفسك، وإلا لن يكون هناك لقاء.

- حسناً. من الأفضل أن نتناقش في هذا وجهاً لوجه.

- فلوبير مكان مُحترم. خُذ هذا في الحسبان!

- ماذا تعنين؟

- حسناً. الناس تتوقف أمام ملابس الفرد.

- فهمت.

- لقد تغيَّرت الموضة. تلخيصاً، أنت تعرف ما يجب أن تفعل.

عندما وضع السماعة أسرع في نزول السلالم، عبر الشارع حتى محلّ شريكه وطلب من عاملة الكاشير أن تعطيه شيئاً من المال. قالت له إن الساعة مبكرة ولهذا لا يوجد مال في الكاشير. يتم حفظ المال في الخزانة ليلة الجمعة، وفي يوم السبت تحملها عربة نقل الأموال إلى البنك.

قال الرجل إنه يريد مبلغاً متواضعاً، مئتي ألف بيسو لشراء سترة حديثة الطراز، وربطة عنق حريرية، وقميص مُخطط، على الطراز الإنجليزي. ضغطت عاملة الكاشير على الزر الإلكتروني وأرته أن الدرج لا يحتوي إلا على بضع عملات معدنية لإرجاع باقي الحساب لشراء سجائر أو مشروب فودكا لأحد السكارى المُبكرين.

داعب بيرغارا غراي شاربه وهو يسأل عن مكان الخزانة والرقم السرّي. أوضحت له المرأة أنها تجهل رقم فتح الخزانة تماماً، لكن الدولاب المعدني الذي يزن مئتي كيلو يوجد في الحجرة المجاورة، وأنه مثبت بالمسامير إلى الجدار والأرض. قال اللص السابق وهو يغمز لها بعينه:

- لنُلقِ عليها نظرة!

- على الرحب والساعة يا نيكو. لكن يمكنني أن أؤكد لك إنها غير قابلة للاختراق.

- أنا لا أشك في هذا. إنه مجرد فضول.

تنهد بيرغارا غراي عميقاً أمام خزانة حفظ الأموال. في بضع مرات وجد نفسه أمام هذه الخزانات المعدنية بعد النفاذ عبر ممرات متاهية لبنوك أو محلات تجارية، وأنه اضطرّ للعودة مُهاناً وهو يجرجر أذيال الهزيمة لأنه لم ينجح في الوصول إلى الرقم السري لفتحها. هذا الموديل يمتلك سحراً

خاصاً. يوجد في منتصف الباب ما يشبه الدفّة التقليدية التي يجب التعامل معها لتجاوز الطبقة المعدنية الأولى، وعلى الأرجح لن يعدم وجود نظامٍ إلكترونيّ في الداخل، وربما يكون مرتبطاً بإنذار، ما يتطلب شحنة ديناميت مُعتبرة أو تعاملاً دقيقاً بمفكّات صغيرة للغاية.

أدَارَ الدَّفة يُمنة ويساراً، وضعها في نقطة تمركزها، ثم وضع أذنه على صندوق الأرقام السرية وتحقق بابتسامة أن موسيقا آلية عمله ليست غريبة عليه. إن لم تخُنْه الذاكرة فإنه أمام موديل شلوتز ذاته كما في محل جواهرجي بيتزولد في شهر أيلول/ سبتمبر 1973 العنيف.

كان مُلَّاكه قد رفعوا العلم التشيلي فوق المحل للتعبير عن فرحتهم بالانقلاب العسكري الذي أزاح الاشتراكي أليندي، وذهبوا إلى بيتهم في شاطئ ثابايار في انتظار انتهاء الجنود من قتل اليساريين في الشوارع. ألهمه ذلك العلَم ذاته لكي يصعد إلى سطح محل المجوهرات ليلة الأربعاء 12 أيلول/ سبتمبر بمثقاب. ودون الاهتمام بالدويّ الذي يُحدثه الحفر، والذي كان ضجيجاً بسيطاً مقارنة بمقذوفات المدفعية والرصاص الذي كان يحرق المدينة. صنع ثقباً كافياً لكي يهبط في قفزة واحدة فوق الخزانة. كان أسرع عملٍ قام به في حياته، إضافة إلى أنه كان قد تحصَّل على أفضل غطاء.

عندما ذهب المُلَّاك إلى الشرطة ليشتكوا من اختفاء مجوهراتهم الثمينة، نهرهم الضابط ووصفهم بالتجار اللصوص الذين يطلبون منه القيام بإجراءٍ تافه، بينما يخاطرون بحيواتهم في الصراع ضد إرهابيِّي أليندي. طلب منهم الخروج من قسم الشرطة على الفور إن لم يكونوا راغبين في الدخول في زنزانة بلَّلت دماء المُعذَّبين أرضها الأسمنتية.

قدَّر أن مفكّاته الثلاثة الخاصة بصائغ، إضافةً إلى كمّاشة طبيب الأسنان الصغيرة، يمكنها فتح بطن خزانة موناستريو في ظرف ساعتين،

مادامت سمحت له موظفة الكاشير بالإضافة للسكارى المُبكِّرين بالعمل في هدوء. قال لموظفة الكاشير:

- إيلزا... إن بقيت لساعتين مع السيدة هنا، كيف ستتصرفين؟

- يجب أن أخبر موناستريو يا نيكو.

- هل تعرفين أن ربَّ عملك مدينٌ لي؟

- الكلّ يتحدَّث عن هذا.

- آه. وماذا يقولون؟

- إن الأمر يتعلَّق بمالٍ كثير.

- كم؟

- أنت التزمتَ بالصمت ولم تتم استعادة المسروقات المنهوبة. إن كانت قد بِيعت في السوق الدولية، فلابد أن الأمر يتعلّق بمبلغٍ ضخم.

- ولماذا لم يُسجن موناستريو إن كان الجميع يعرفون الحكاية؟

- لا أريد الكلام عن هذا يا نيكو.

- لقد مرَّت سنوات كثيرة. كلِّميني عن هذا كأنها أسطورة أو فيلم حكاه لك شخص ما.

- لا يمكنني تناول الأمر بخفّة، لأنني كنت متورطة في الحكاية. ولكي يمكنك فهمي: قبل عشر سنوات كان وزني أقل بعشرة كيلوغرامات، وكنت أكافح التجاعيد بمستحضرات تجميل تأتي لي بها ابنة أخي من السوق الحرة بالمطار.

- وما علاقة هذا بالأمر؟

- أعنى أن موناستريو كان يهتمّ بي.

- هل كنتِ عشيقته؟

- ياه... هذه كلمة قذرة للغاية!

- كنتِ صديقته؟

- صديقته.

- الحميمية؟

- يمكن أن نقول هذا. بعد بضعة شهور من الضربة التي وقعت فيها، كان التَّخلُص من المجوهرات ضرورياً. لكن كان يجب فعل هذا بطريقة ذكية.

بدا أن موظفة الكاشير قد انتبهت فجأة إلى أنها قد تحدَّثت أكثر من اللازم. ذهبت إلى الثلاجة وأخرجت زجاجتين من المياه المعدنية. وضعت شريحةً من الليمون في كل كوب ودَعَتْ الرجل لتبادل الأنخاب. بعد ذلك شربت كثيراً وبلّلت لسانها بالسائل الذي تبقّى على شفتيها.

- إن كنت أحكي لك هذا فمن أجل موناستريو. أريد أن تعرف أنكما ما زلتما صديقين. أنت أكثر من شريك بالنسبة له. إنه يعتبرك أخاً.

- ماذا حدث للمجوهرات؟

- وصلته الوشاية بأن الشرطة ستأتي لإلقاء القبض عليه، وخطرت له فكرة رائعة باستباقهم. طلب لقاء السيدة الأولى. حمل نصف الغنيمة وأهداها الجواهر لإعادة بناء البلاد التي يقوم بها العسكر.

- يا إلهي!

- أتاح له هذا الاحتفاظ بالنصف الآخر دون أن يعودوا لمضايقته. أنا أحب موناستريو ولا أودّ أن تنتهي صداقتكما بسبب بضعة بيسوات أكثر أو أقل.

- بضعة بيسوات أكثر أو أقل! لقد عوقبت بعشر سنوات في السجن.

- لقد فعل ما يمكنه من أجلك.

- زيارتي في السجن على سبيل المثال؟

- كان يُرسل مبلغاً شهرياً إلى تيريزا كابرياتي بطريق غير مباشر.

- أيّ طريق غير مباشر يا إيلزا؟

- إنك ترى الطريق غير المباشر أمامك مباشرة.

وضعت المرأة دفترَ شيكات فوق الطاولة، وتحققت من التاريخ في تقويم يحمل صورة للعذراء والطفل يسوع في دعاية لمصنع شموع: «مضيئة من بدايتها إلى نهايتها.»

- ماذا ستفعلين؟

- سأحرِّر لك شيكاً لكي أخرجك من ضائقتك.

- إيلزا! أنا لصّ، لكنني لست قواداً. لا أريد سوى أن يعطيني موناستريو حقّيَ الشرعي.

ابتسمت المرأة بينما تحاول إخراج الحبر من قلم البيك بتمريره على صحيفة.

- ماذا يدفعك للابتسام هكذا؟

- كلمة « الشرعي» يا نيكو. كم يكفيك لتدبير أمورك؟

- لا أريد صدقة. قلت لك هذا.

- إنها ليست صدقة: إنه مُقدَّم.

داعب بيرغارا غراي ذقنه، ثم الشارب وتلاه بالصدغ، واختتم قائلاً بكبرياء:

- بطرح الأمر بهذه الطريقة، يبدو لي اتفاقاً مُحترماً.

- هل تكفي مئتان؟

- اكتبي ثلاثمئة!

9

ذات مرّة ألقى القزم ليرا الحكمة التالية: « في عالم المجرمين لا يصلح إلا العنف أو الصبر. الخيار الأول يجعلك ثريّاً أو يعود بك للسجن. وبالخيار الثاني ستستمر فقيراً، لكنْ حُرّاً».

بينما كان الوقت يمرّ، كان الفقر يجعله غير مُحتَمَلٍ.

كان يريد الوصول إلى مدرسة الباليه، وبعد ذلك دعوة «أخته الصغيرة» إلى مطعم صيني والاطّلاع على مغامرتها في المدرسة. إن كانت الأمور قد سارت بشكل جيد، فسيعرض عليها بعد العشاء قضاء ليلة حب. لكن كما يجب أن تكون، بفراشٍ ومشروبات كحولية.

كان يريد محو صورة العاشق الفَزِع الذي يُطلق سائله المنوي دون الاهتمام بمتعة صديقته. كان يتعزّى بتفسيره الخاص بأن تلك الدفقة كان طاقة خالصة مختزنة طوال شهور من الخيالات والرغبات دون رؤية نساء سوى موديلات المجلات اللامعة على جدران الزنازين. لم يكن يحقّ لأي شخص أن يطلب منه التّحكُّم في نفسه. لكنه لم يعترف لها بأن رحلته ذلك اليوم لم تستغرق أربع ساعات في القطار من تالكا إلى سانتياغو، وإنما ثلاث ساعات وسنتين من السجن حتى سينما العرض المستمر حيث عرفها. ربما تكون الفكرة التي كَوَّنتها عنه، وهي مُحِقَّةٌ في هذا، أنه شخص

متعجرف وفظّ. إضافة إلى هذا فإن الفتاة كانت تعجبه. وفي المقام الثاني، كان جسدها متعة خالصة أياً ما كانت النقطة التي يلمسها: هذان الردفان الرائعان، الصلبان بفضل تمرينات الباليه، واللذان يُذكّران بفتاة من السكان الأصليين في البرازيل، والنهدان الناهضان اللذان تزداد صلابتهما مع إيقاع التنفس.

لكن أكثر شيء يجذبه إليها هو ضعفها، هذه الهشاشة لتلميذةٍ مفصولة من المدرسة تطوف بسينمات الحي لتحتمي بدفء دفّايات شمع البارافين. بينما تكون غارقة في مقعدها، يكون اهتمامها بلاعبي الكاراتيه والمغامرات العاطفية أقلّ من أحلامها بالتدريبات التي ستؤديها ليلاً عندما تذهب إلى مدرسة الباليه.

عندما رآها في ذلك الوسط، كان واضحاً أن الفتاة متألّقة وبها شيء جاذب. كانت مُحاطة بفنانين يهتّمون بالدقة المليمترية لخطوةٍ يقوم بها راقصان في رقصة ثنائية أو لفَّة مفعمة بالحماس. لكن عندما تتوقف الموسيقا وتُكْنَس رمال السيرك، يكون الشارع موجوداً في الخارج، إضافةً إلى الشكّ، والأم المكتئبة، والفقر، وهو أيضاً: أنخيل سانتياغو. هكذا قام أنخيلِ بوضع قائمة دقيقة. هو... لم يكن سوى شخص تعثَّرت به مصادفة. ثرثار، جائع، يدسّ أنفه فيما لا يعنيه، غير واثق من مصيره، لكنه في نهاية الأمر شخصٌ اقتسمت معه الفراش. فكَّرَ أنه ألقى عليها موعظة بسماجةِ قسٍّ قريةٍ. لم يفعل هذا لمضايقتها، وإنما بشكل تلقائي صادر من قلبه، باهتمامٍ ومودّة لا تشوبهما المصالح. وأرسلها كالسهم إلى المدرسة.

كان بحاجة إلى المال، على الأقل لكي يصل بالحافلة إلى مدرسة الباليه، وكان يشعر بيديه متجمّدتين، بسبب البرد، وبسبب رعبه من اكتشافه

وهو ينشل الحافظة من بدينٍ ما في المترو، فتجري إعادته بالطريق السريع إلى السجن، حيث سيفرك المأمور يديه فرحاً لأنه يعرف أنه وَفَّر على نفسه عامين من كوابيس اغتياله.

لم يكن أمامه أيّ احتمال سوى طريق الحذر والصبر، وبعد ساعتين من الطواف حول ماكينة الصرف الآلي في مخرج «حلبة سباق خيل تشيلي»، بدأ يشعر باليأس وبالملل. وفجأة انتبه.

نزلت امرأةٌ متعجرفة عالية الصوت من التاكسي الذي أوقفته بجوار الرصيف، ثم صرخت في السائق لكي ينتظرها. دخلت القاعة الصغيرة لاهثةً وضغطت على الرقم السرّي وهي تركل الماكينة بنفاد صبر. وفي لحظة تلقّيها المال، اقترب منها أنخيل سانتياغو ببراءة، وسألها ما إن كانت الماكينة تُخرج أوراقاً صغيرة. نظرت المرأة إلى الرزمة التي تحملها وتحقَّقت من عدم وجود أوراق نقد صغيرة القيمة. وعادت مهرولة إلى التاكسي دون إلقاء تحية الوداع. أيّاً ما كان سبب عجلة السيدة، فقد فعلت تماماً ما انتظره الفتى لوقت طويل: تركت الماكينة مفتوحةً بسؤال: «هل تريد شيئاً آخر؟». ضغط على زرّ «نعم»، وطلب مئة ألف بيسو، وقد أخرجتها الماكينة بسرعة. وضع الرزمة في جيبه وقدَّر أن الحذر يستَوجِب ترك الماكينة تحاور نفسها، ولم يأخذ بطاقة السيدة لكيلا يشعر بغواية ارتكاب ألاعيب يفتقد للخبرة اللازمة لها.

أثناء عبوره شارع بيباثيتا كان هناك حصانٌ عائد بعد السباق، وداعب الفتى شعره.

- هل هذا الحصان هادئ الطباع؟

ردَّ السايس:

- هادئ الطباع؟ إنه كالبلسم.

- كم عدد السباقات التي ربحها؟

- هذا؟ سباق واحد، عندما كان في الثالثة من عمره. لكنه يوشك على تحقيق الإنجاز لأنه هبط إلى مؤشر 1.

- كم يستغرق في جري ألف ومئتي متر؟

- دقيقة وخمس عشرة ثانية وجزأين من الثانية. إن نزل عن هذا الوقت بمقدار الخُمس، سيربحها جميعاً.

- وكم يبلغ سعر هذا الحصان؟

- سعره يقترب من الثلاثمئة ألف. لكنه ليس ملكي.

- أعرض عليك مئة ألف. هل تبيعه لي؟

- لا أرغب في إهانتك يا فتى. لكن توجد جياد في السادسة من عمرها واستعادت عافيتها وربحت سباقات. إن بعتُه لك بهذا السعر ستُعتبَر سرقة.

- أشتريه منك بمئة ألف.

- لا تغضب يا سيّدي! لكن هذا الحصان يمتلك مستقبلاً.

- مؤشر 1. ربحَ سباقاً عندما كان في الثالثة. كم عمره الآن؟

- ثمانية.

- ثمانية... يمكنه أن يربح في صحراء أنتوفاغاستا، لكن انسَ سانتياغو!

- كم تعرض عليَ يا سيدي؟

- ثمانين ألفاً.

- هل هو سعر قابل للتفاوض؟

- قابل للتفاوض؟ إنك تسرقه من المُدرّب، هكذا سأعطيك سبعين ألفاً ولا كلمة واحدة بعد ذلك.

- المدرب يحبّه كثيراً. سيقتلني.

- أعطيك ستّين ألفاً عدّاً ونقداً، وانسَ كلّ شيء آخر. كم يستغرق في سباق ألف ومئتي متر؟

- دقيقة وستّ عشرة ثانية. لا يمكنني الكذب على مالكه الجديد.

في طريقه إلى أكاديمية الباليه بحث عن الشوارع غير المطروقة. كان قد نسي سؤال الرجل عن اسم الحصان، وعلى نحو ما كان هذا يشعره بالسعادة، عندما يُطلق المرء اسماً لأول مرة على شيء ما فإنه يجعله ملكه. سيسمّيه فكتوريا بونثيه تيَمُّناً بفتاةٍ ما. كان يسير ببطء في شارع أينشتين، وكان منتبهاً إلى مسار عذراء «ثيرو سان كريستوبال». عندما أطلق له العنان أطاع الحصان أوامره. لم يَمُرّ عليه أسبوع في عالم الحرية، ولا يمكن للحساب النهائي أن يكون أفضل من هذا: كان يمتلك حصاناً، وبه كان ينتوي الطواف بالمدينة شبراً شبراً، كما فعل في طفولته في مروج تالكا. إضافةً إلى هذا، كانت لديه فتاة يمكن وصفها بالخطيبة، على الرغم من عدم وجود أي شيء رسمي بينهما، لكنهما سجّلا هدفاً بالفعل. كما يجب إضافة المكان الذي يُمكن أن يوصف بالفندق، والذي كان مدرسة الرقص التي يدخلها ليلاً خلسةً بعد أن صنع نسخة من مفتاح المُدرّسة. ومن جانب آخر يوجد ما يُمكن وصفه بالثروة، وهي ستكفيه لكي يدعو صديقته ممشوقة القوام لتناول الطعام بالعصيّ في مطعم «الصينيون الفقراء».

من بين العناصر القليلة لليوتوبيا الخاصة به، أصبح يمتلك الحصان على الأقل: حصانٌ مُنهك، داكن الشعر، عريض الردفين، غليظ القوائم، لكنه في نهاية الأمر حيوان يشبهه، حَلمَ في الطفولة أن يكون أميراً على حلبات العالم، ولم يمكنه الفوز في النهاية إلا في سباقات مؤشر 1

المتواضعة للجياد من أي عمر. إن كان المُجتمع قد خفَّض من طموحاتهما في العشرين، فإن أنخيل سانتياغو سيبدل حظّه بحظّ الحصان.

عَدَّ ذخيرته للمستقبل مرّة أخرى: امرأة، حصان، ضربة القزم ليرا، والعظيم الشهير السيد نيكولاس بيرغارا غراي.

10

قبل ساعةٍ من الموعد كان يحوم بالقرب من صالون شاي «فلوبير»، وأخذ يتفحّص المكان مثل مفتّش. استند على سور البيت المقابل، ولبرهةٍ ظلّ يتأمّل نوعية الزبائن، السيارات التي يهبطون منها وهيئة الزبائن القدامى. وصل إلى استنتاج أنه من فئة الأماكن الخاصة بأفراد لا يرغب في الحياة بينهم. من جانب آخر، ابتهج للذوق الرفيع لتيريزا كابرياتي، وإلى أن تربية ابنه في أيدٍ أمينة.

على الرغم من وقفته المتعالية، كان مُدركاً أنه قد يُغشى عليه في أية لحظة. تلاعب كثيراً بالشريط الأحمر المحيط بالهدية حتى أنه بدأ مفكّكاً، كأنما هو مُستعملٌ. لم يرغب في رؤيتهما يدخلان قبله، وفرَّ إلى ضفّة النهر حيث دخَّن سيجارتين بينما يتأمل انسياب الماء العكر دون التفكير في شيء مُحدَّدٍ.

ظلّ لسنوات يُعِدُّ خطاب التصالح الذي سيبرهن لهما به أنه رجلٌ صالح، كما لا يوجد أيّ شيء في تصرّفاته أو في خططه للعودة إلى الجريمة. حاول هذا طوال حياته، وجاء قراره باختيار الأخلاق الحسنة والعمل الشريف بناءً على الحكم بالسجن لعشر سنوات. وإن كان هذا قليلاً، فقد مرَّت خمس سنوات من دون الزوجة، وبزيارات عابرة من

بدرو بابلو، التلميذ الذي كان يؤدي مهمة زيارته بمزاجٍ عكِر لكي يخفي ضيقه.

في الخامسة وخمس دقائق دخل إلى «فلوبير»، وقادته الغريزة إلى أكثر الأماكن ابتعاداً عن الأنظار في نهاية صالون الشاي، تلك المائدة بجوار المدفأة، حيث يبدو أن رائحة الكعك تتركّز هناك. كان قد اعتقد دائماً أن تيريزا كابرياتي هي أجمل امرأة عرفها طوال حياته، فعندما رآها مُرتديةً تاييراً أسود اللون، والمنديل بلون اللؤلؤ يحيط بعنقها، وحلية حفل الزواج مُعلَّقة في ياقة السترة، انتابه فجأةً شعورٌ مثير للضيق بأنه لا يستحقّها.

النُّضج لم يؤثر عليها بالسلب. على العكس، يبدو أن التجاعيد المختفية تحت المكياج والغرامات التي تملأ وجنتيها تستكملان جمالها الرائع. وفي لحظة غير مواتية انتابه الشك أن لها عشيقاً. ولهذا وصل السجين السابق الوقور إلى المائدة بظلِّ ألمٍ مُفسدٍ للابتسامة التي أعدَّها طويلاً.

شخصٌ ما في المائدة المجاورة ظل ينظر إليه ملياً، بينما يبحث في ذاكراته عن وجه ذلك الشخص. مال بيرغارا غراي الحذِر على وجنة زوجته وطبع قبلة طويلة. نهض بدرو بابلو من مقعده وأتى أبوه بإشارة كأنما سيعانقه. على الرغم هذا فقد مدَّ الابن يده فاصلاً بينهما. جلس بينهما دون أن ينطق كلمةً خلال دقيقة.

- لقد طلبنا زجاجتي مياه معدنية.

- مياه معدنية؟ لكن يجب أن نحتفل بهذا اللقاء. أيّ فكرة هذه؟ مياه معدنية!

- أُطلب ما تشاء. لكننا طلبنا مياهاً معدنية.

- ماذا تريدان أن تأكلا إذاً؟

- ليس لدينا وقتٌ كثير يا نيكو. سنترك أمر الطعام لمرّةٍ أخرى.

- لكن انظري إلى هذا الكعك! ألا يجعلك تشتهينه؟!

جاء النادل بالطَّلب وسأل الرجل:

- ماذا ستتناول يا سيدي؟

- أنا؟ شاي.

- أيّ صنف؟

- شاي. مجرد فنجان شاي.

- لدينا قائمة بها ثلاثون صنفاً من الشاي.

قدَّمها له النادل كأنَّما يوجّه له طعنة. عندما نظر إليها اكتشف أن أسماء تلك المشروبات الشرقية الساخنة تثير لديه شعوراً مقزّزاً.

- ائتِ لي بخلطة «فلوبير».

- نعم يا سيدي. هل تريد شيئاً آخر؟

- لا أعرف.

وَدَّ طلبَ شيءٍ ما يُبطئ الوقت، يهدِّئ من سرعة جريان الأمور، لكن لم يخطر له أي شيء.

- هل ترغب في قطعة من الكعك؟

- نعم. قطعة من الكعك.

- لدينا تشكيلة كبيرة. هاك القائمة: كعكة بالشوكولاتة، بالفواكه، «الغابة السوداء».

- فيمَ ترغبان؟

- تكفينا المياه المعدنية.

- إذاً ائتِ لي بمياهٍ معدنية أيضاً.

- بغازٍ أم دون غاز؟

- ماذا؟

شعر بيرغارا غراي بالدهشة، واستغرق في تأمل ضربات نفاد الصبر التي يوجهها ابنه للمفرش المسدَل فوق المائدة.

- المياه المعدنية يا سيدي.

- بغازٍ، إن تفضّلت!

عندما اختفى النادل اللحوح ساد بينهم صمت كثيف. وقال الرجل فجأة:

- أنا أحبّكما. أتيت هنا لأقول لكما إنني أحبكما كثيراً، إنكما كل شيء بالنسبة لي.

حملت تيريزا كابرياتي كوب الماء إلى شفتيها الغليظتين، بعد ذلك جفّفت فمها المبتلّ بفوطةٍ قماشية. وضع زوجُها الهدية المُغلَّفة فوق المائدة وقدَّمها لابنه.

- شكراً! قال الشاب.

- لا. هكذا لا توجد قيمة للهدية. يجب أن تفتحها يا بابليتو.

- هل هذا ضروري؟ كل الناس تنظر لنا.

- لن يغضب أي شخص لأنك تفتح هديةً.

- حسناً.

حاول الابن فك العقدة بأظافره بضع مرّات ولم ينجح. أمسك بسكّين الطعام وقطع الشريط مرَّةً واحدةً. فضَّ ورق التغليف بعناية وأحنى رأسه موافقاً دون كلام.

- ما رأيك؟

- جيّدة.

قبض بيرغارا غراي على يد ابنه ووضعها على جلد الحقيبة.

- المِسها يا رجل، مَرِّر أصابعك عليها! هل تشعُر بنُبْلِ الجلد؟

وأرشده بيديه إلى الحركات التي يقترحها عليه. بعد ذلك وضع أصابعه فوق يد ابنه وضغط عليها بحنان.

قال الفتى وهو يُخلِّص يده من الأب:

- حسناً. إنها حقيبة جيدة.

- سأريك الآن أفضل جزء: كيف تُفتَح. كلُّ قفلٍ يمتلك رقماً سرياً. كثيرٌ من الحقائب تُفتَح برقم سرّيّ، لكن في هذه الحالة فإن الرقم مختلف لكل قفل. يجب أن تحفظ الأرقام في ذاكرتك، وألا يعرفها غيرك، أنت فقط، وهكذا لن يمكن لأي شخص سواك أن يفتح الحقيبة. رقم القفل الأيمن هو يوم وشهر ميلادك، ورقم الجانب الأيسر هو يوم وشهر ميلادي. اتفاق بين أبٍ وابنٍ. افتحها الآن!

- هنا؟!

- أريد رؤية كيف تعمل. إن كان هناك عيب ما، لديّ إيصال الضمان. يمكن إرجاعها.

أخذ بدرو بابلو يعبث بالقفلين وتابع الأبُّ الطقس ناطقاً بالأرقام دون صوت، بينما يتقدَّم الفتى.

- إن نسيت الأرقام يمكنك أن تسألني.

تدخَّلت تيريزا:

- أين؟

تراجعَ الرجل في مقعده مصعوقاً. ظل يحكُّ شاربه خلال نصف دقيقة، ثم قال بصوت غير مسموعٍ تقريباً:

- لقد فكرتُ في أننا... أعني أنت وأنا وبدرو بابلو...

ثم تراجع مُضيفاً بعصبية:

- أنت مُحقٌّ يا بابليتو، سأكتب لك الرقم السرّي في ورقة.

قطع ورقةً من مُفكِّرته الصغيرة واستعدّ للكتابة. أوقفه الابن.

- لا ضرورة لأن تكتبه. لقد حفظت الرقمين السريين جيداً. الجانب الأيمن...

-أُصمت - قاطعه الأب بحدَّة وهو يتلفَّت حوله -. إنه سرٌّ بيني وبينك. لا تنطقه بصوتٍ عالٍ مُطلقاً. إن لم يعرف أيّ شخصٍ الأرقام السرية، لن يمكن سرقة مستنداتك.

توَقَّف بابلو بابتسامة كبيرة، وبعد ذلك انطلق في الضحك مقهقهاً لدرجة أنه خبط ظهر المقعد في الحائط.

- ما الذي يُضحِكك؟

- من الحقيبة يا رجل! لا يخطر على بال شخصٍ ما أن يقوم بإهداء حقيبة آمنة لهذه الدرجة إلا إن كان لصّاً.

سرتْ رعشةٌ مفاجئةٌ في يدَي الرجل وضغط عليهما تحت المائدة، بين ساقيه، بينما يحاول التَّحكُّم في نفسه. شعر أنه أبله عندما استطاع أن يقول:

- ألا تعجبك؟

- نعم، تعجبني.

جاء النادل بفنجان والمياه المعدنية وإبريقاً يحتوي على المشروب الساخن. أخفى بدرو بابلو الحقيبة تحت المائدة، تاركاً مساحة لكي يضع النادلُ الطَّلبات. وضعت تيريزا كابرياتي كوباً من الماء لنفسها، وعندما بدأ بيرغارا غراي في صبِّ المشروب استأنفت كلامها:

- يوجد موضوعان يا نيكو.

- آه، نعم. سأتحدَّث مع موناستريو لكي يرفع المبلغ الذي يرسله لك شهرياً. لقد ارتفعت الأسعار للغاية في تشيلي.

- متى ستتحدَّث معه؟

- اليوم دون تأخير. ما هو الأمر الآخر؟

نظرت تيريزا كابرياتي إلى ابنها الذي مسح طرف أنفه بسرعة ومال فوق المائدة، ثم أخرج ورقةً مُغلّفة بالبلاستيك من جيب سترته.

- نيكو، لقد قرّرت أنا وأمي تغيير اسمي.

- لا أفهم.

-بيرغارا غراي. أريد تغيير اسم بيرغارا غراي.

- وأيَّ اسمٍ تريد أن تُطلِق على نفسك؟

- كابرياتي، مثل أمي. فعلُ هذا قانونيٌّ تماماً.

- لكنك ابني يا بابليتو. لماذا يجب أن تغيّر اسمك؟

- لأنه يجيء بالمشاكل.

- أيّ مشاكل؟

- حسناً. كلّما سألوني ما اسمك وأُجيب أن اسمي بيرغارا غراي، سألني الجميع: «بيرغارا غراي مثل....؟».

أتى الفتى بحركة بيده اليُمنى كأنما يفتح شيئاً ما أمام شخصٍ ما.

- وماذا؟

- حسناً، يشعر المرء أنه في موقف غريب. قبل أيام تقدَّمت للتدريب في مصنع ستروين لتعلُّم الميكانيكا. كتبت الاسم وكان يجب أن أضع تحته مهنة الأب...

- مُحاسب! أنا حاصل على شهادة المُحاسبة!

- تغيير الاسم أفضل بالنسبة لي يا نيكو.

- لكن يوجد مئات الأشخاص الذين يحملون اسم بيرغارا، ولم يخطر لأيٍّ منهم تغيير اسمه.

- لكن يوجد بيرغارا غْراي واحد فقط. لماذا خطر لعائلتك التباهي باستخدام لقبٍ مزدوج؟

- لكي نُورِث اسم عائلة انجليزية من المخترعين.

- ما هو؟

- غراي يا رجل.

- ماذا اخترع؟

كان الرجل متوتراً وفاقد التركيز، فوضع السكَّر مرَّة أخرى في الشاي، وعندما شربه بدا على وجهه الامتعاض.

- ما هذا يا بُني؟ اختبار القبول بالجامعة؟

- أنا أسألك فقط!

- خَطَرَ هذا لجدّك كإصلاح لضيم. كانت أمُّ جدِّك، واسمها إليشا غراي، تقوم بإجراء الاختبارات في مجال الاتصالات. وفي يوم 14 فبراير 1876 ذهبت إلى مكتب براءات الاختراع لتسجِّل اختراعاً جديداً: التليفون.

- غراي؟

- غراي. لكن بيل قام بتسجيل الجهاز ذاته قبل ساعات في مدينة أخرى. خسرت الجدّة القضية وأصبحت براءة الاختراع باسم بيل.

ابتسم الفتى وقال:

- إنها حكاية أشخاص فاشلين خاسرين.

- هذا حقيقي.

- إنك تشيليٌّ تماماً يا نيكو. بدلاً من تخليد ذكرى الانتصارات، تحتفل بالهزائم. مثل بطلنا أرتورو برات تماماً. يتذكَّره الجميع بحُبٍّ لأنه خسر معركة إيكيكيه البحرية أمام البيروفيين.

أخذت تيريزا المُستند المحميّ في حافظة بْلاستيكية من بابلو ووضعته فوق المفرش.

- قام المحامي بملء الأوراق. لا ينقص سوى توقعيك.

قِصَرُ النَّظر جعل بيرغارا غراي ينحني فوق المائدة، وأخذ لسانه في الجفاف بينما كان يقرأ، ألقى ظهره على المقعد ورَغبَ أن يكون جالساً على كرسي الإعدام، وأن يقوم مأمور السجن بخفض ذراع الكهرباء.

سَعلَ ثم قال:

- هل تدرك يا فتى أنك لم تنادِني بكلمة «بابا» منذ جلسنا هنا؟

رفع الشَّاب كتفيه. وأعطته تيريزا كابرياتي القلم الذهبيّ الذي كان قد أهداه لها عندما بلغت الأربعين.

11

خنزير منغولي، دجاج شيتان باللوز، بطّ مُغطّى بالشعرية المُحلَّاة بالسكر، سمك قنجر فونشوي، جمبري صغير مقلي، سمك حوملة في حساء الصويا، لفائف الربيع، فطائر المحار، دجاج شنغهاي في صلصة فطريات، بطّ بخمسة مذاقات، كفتة كروية بالأناناس، خضروات مُشكَّلة مشوية، ونبيذ سانتا ريتا استريا دي أورو، ونبيذ ريهن كارمن، ونبيذ كابيرنيت أوندوراجا. كانت هذه بعض الأصناف التي اقترحوها عليهما في مطعم «الصينيون الفقراء».

اختارت فتكتوريا بونثيه الخضروات المشوية ذات السُّعرات الحرارية المُنخفضة، وعلى العكس منها، فقد مال أنخيل سانتياغو إلى الخنزير المنغولي المُتبَّل. أختارت مياهاً معدنية ماركة كاتشانتون، واختار زجاجة نبيذ أحمر سعة ثلاثة أرباع اللتر. حملها على ظهر حصانه من مدرسة الباليه حتى ميدان البرازيل بخُطاً مُتمهّلة، تحت سماء مُرصَّعة بالنجوم. واضطرت فكتوريا لرفع جونلّة الزيّ المدرسي لكي تركب خلفه منفرجة الساقين، وبعد ذلك تغطَّت بالمعطف الرمادي من خصرها حتى جورب المدرسة.

من موقعهما بجوار نافذة في الطابق الثاني، كانا يريان الحصان المبتهج

بسبب التنانين والمصابيح الحمراء التي يراها من موقعه، حيث ربطاه إلى نخلة في ميدان البرازيل. كان يمضغ العشب بينما بضعة صبية يداعبون شعره. فكَّرا في حكي مُستجدَّات الأيام السابقة عندما التقيا، لكنّ طقس امتطاء الحصان بدلاً من ركوب الحافلة، والجلوس في «مَطعمٍ»، بدلاً من التهام سندوتش بسرعة في الشارع، والتحفّظات المعهودة لِمن يبدأ في التكلّم بحساب، لأن الشخص الآخر يهمّه ولا يريد أن يخيّب أمله أو إفزاعه بزلّة لسانٍ، جعلتهما يلتزمان بالصمت خلف الابتسامات. عندما أصبحت الأطباق فارغة، ولعدم وجود خبز في المطعم الصيني لكي يغمساه في الصلصة فيؤجّلا الكلام، سألها عن المدرسة.

- قبلوني بشروط. يجب أن أجتاز اختباراً يُغطّي كل المواد من بداية الفصل الدراسي حتى الآن، بعد عشرة أيام.

- ما هي هذه المواد؟

- علوم طبيعية، تاريخ العالم، تاريخ تشيلي، تربية حضارية، فيزياء، كيمياء، لغة فرنسية، لغة إنجليزية.

- أنا أعرف شيئاً من الإنجليزية.

- ماذا تعرف؟

- وان دولار ميستر، بليز.

- أين تعلّمت هذا؟

- في فالبارايسو هاربر.

- في الميناء؟ ماذا كنت تفعل هناك؟

- أتدبَّر أموري.

أحضرت لهما النادلة شاياً بالياسمين وقطعتين من الكعك الشرقي الذي يحتوي في داخله على وريقات تنبئ بمستقبل الزبون.

- كم كان عمرك في ذلك الوقت؟

- سبعة أو ثمانية أعوام.

- وماذا كان عمل أبيك؟

- كان يرحل في السُّفن.

- وأنت؟

- كنت أبقى هناك.

- مع أمك؟

- مع أمهات كثيرات. اسمعي يا فكتوريا. لم أتعلَّم الإنجليزية التي أعرفها في غرانغ سكول، وإنما في بيوت العاهرات.

تلهَّت الفتاة بتقليب الشاي بالملعقة، رغم أنها لم تُضِف له سُكَّراً.

- أشعر بالأسف لم تحكي لي!

- لا ضرورة لأن تشفقي عليَّ. لقد تدبَّرت أموري في الحياة بشكل رائع. قبل أن أُمسِك بقلم في يدي لتعلُّم الكتابة كنت أُمسك بمدية. أستطيع تقشير برتقالة مرَّةً واحدةً دون خدشها.

- حسناً. الكثيرون يفعلون هذا. أنا نفسي أفعل هذا.

- هل تعرفين أيضاً أين تكون الطعنة أكثر تأثيراً؟ في الكبد أم الرئة أم المثانة؟

- في القلب. أعتقد هذا.

- حسناً. هذه كلمات كبيرة. يتعلَّق الأمر بإصابة الخصم وليس قتله. طعنة في القلب يُمكن أن تُكلِّفك سجناً مؤبداً.

- لماذا تحكي لي كل هذا؟

- لكي تعرفي أنني أعرف شيئاً ما من كلّ شيء: تشريح، لغات، قانون جنائي...

- يجب أن تدرس في الجامعة.

- لديّ خطط أخرى. طلبت أربع رغباتٍ من الربّ، لأن الثلاث التقليدية لا تكفيني.

- أخبرني ما هي؟

- توجد رغبةٌ لا يمكنني إخبارك بها.

- هل هو أمرٌ سيّئ؟

- سيّئ، لكن ليس بالنسبة لي.

- هل ستؤذي شخصاً ما؟

- أمرٌ شبيهٌ بهذا. رغم أن كلمة «أذى» تُعتبر خفيفة للغاية لكي تصف هذا.

-إنها تلطيف.

- لا أفهم ماذا تعنين.

- إنها صيغ لغوية. تعلَّمت هذا في دروس اللغة الإسبانية. «التلطيف» طريقة لطيفة ومُخفّفة للتعبير عن شيء قويّ أو جارح. على سبيل المثال، عندما ترى رجلاً بديناً للغاية تقول له: «إنك بصحّة جيدة».

شرد أنخيل سانتياغو وهو ينظر إلى تمثالٍ لبوذا مُبتسماً ومحاطاً بزهورٍ متعددة الألوان. قال بعد برهة:

- هذه «سخرية»، وليست «تلطيف».

- يُمكن استخدام التلطيف بطريقة ساخرة. إنه ليس ممنوعاً. ما هي الرغبات الثلاث الأخرى؟

- حسناً. الحصان وأصبحت أمتلكه.

- أين سيعيش؟

- أينما أعيشُ بالطبع.

- وهذا يعني، أين؟

- يجب أن أتدبّر هذا الأمر. لكن في أثناء ذلك، سأعرضه للتأجير كحصان جرٍّ عربات في السوق.

قَبِلتْ فكتوريا كأس نبيذ واحتجزت السائل لبرهة فوق لسانها. عندما تجرَّعته شعرت بحرارة تصعد إلى صدغيها.

- رأسك ليس مُرتَّباً يا أنخيل سانتياغو. لا تمتلك أولويات. من الطبيعي في الحياة أن يأتي أمرٌ قبل الآخر.

- لا تعطيني دروساً حول هذا. في حالتك، كان يجب أن تكون المدرسة دائماً قبل سينمات العرض المُستمر.

- السينما تجعلك تحلُم.

- نعم. لكن من يحلمون ينتهي بهم الأمر برؤوسهم ممسوسة. إن لم يُحوّل المرء أحلامه إلى حقيقة، فسيذهب إلى مستشفى المجانين. لحسن الحظ أنك عُدت للمدرسة.

- الفضل يرجع إليك.

- لا أحبُّ أن تكوني شخصاً يعيش بمرارة لأنك لم تستطيعي فعل ما تريدين.

- يجب أن أنجح في ذلك الامتحان اللعين. أحملُ عشرة كتب في الحقيبة. يجب أن أدرسها وأحفظها تماماً. يجب أن أبدأ هذه الليلة.

- هذه الليلة، لا.

- لمَاذا؟

- هنا نصل إلى موضوع الرغبة الثالثة.

رسم أنخيل أفضل ابتساماته على شفتيه، وبعد أن استند بكوعَيه على المائدة، رَشَقَ رأسه بين يديه. أزالت الفتاة الشعر عن صدغها مرَّةً بعد الأخرى، كأنما تستطيع تهدئة عواصف حياتها بهذه الملاطفة. لم يكن لديها يقينٌ من أيّ نوع: بالطبع كان الباليه هو حلمها، مسرح المدينة، مسرح كولون في بوينوس أيرس، مسرح مدريد، متروبوليتان في نيويورك. لم تكن الرغبة تنقصها، وكانت قادرة على تدمير أيّ شيء من أجل الوصول إلى هدفها. لكن من أجل هذا كانت بحاجة إلى الثانوية العامة والمال والموهبة. من يضمن لها أنها تمتلك الموهبة؟ مُدرِّبة المدرسة التي كانت توزِّع إطراءها بالتساوي على كل المتدربات كأنما كلّهن تامارا كاسارفينا، أو إيسيدورا دونكان، أو مارتا غراهام، أو مارغوت فونتين، أو بينا باوش، أو آنا بافلوفا. كانت تمتلك هلوسات أكثر من الموضوعية، ولم يكن حكمها يساوي أيّ شيء. أيّ فتاة تافهة بجلدٍ مشدود وردفين صلبَين وبطنٍ مفرودة كانت تشعر أنها مُحترفة، لأنها تعلَّمت بضع حركات لمادونا أو شاكيرا في أكثر صورها ركاكة، وكن يترقَّصن في استوديوهات التلفزيون وصالات الديسكو بأمل أن يكتشفهن أيُّ منتج تلفزيوني.

على العكس، لم يكن أيّ شيء مما يتطلب الجهد الكبير الذي بذلته خلال سنوات في الأكاديمية ذا أدنى إمكانية في السوق المحلي.

بل إنها لم ترَ في الرقص عملاً للحصول على أجرٍ. كانت قد رأت كثيرين يبيعون ويشترون أنفسهم لكي يبقوا على قيد الحياة -هي ذاتها في المقام الأول- وتعتقد أن الرقص الكلاسيكي أو الحديث فضاءٌ مُقدّسٌ لا يمكن لأيّ شيء خارجي في العالم أن يُدنِّسه: سواء أمها المكتئبة أو اغتيال الأب أو المُعلِّمين الذين كان يحتقرونها بسبب صمتها أو نفورها، ولا حتى السقوط الذي كانت تربح به شيئاً من المال لكي تدفع قسط الأكاديمية.

إن وصلت ذات يوم للرقص بشكل احترافي، حتى وإن كان في الصالون الثقافي لقرية صغيرة تافهة في الأقاليم، فلن تطلبَ مُقابلاً مالياً. العِرفان الحقيقي هو انتصار الفن على الشُّطَّار الذين يتاجرون بالموت والقُبح في كلّ مكان. لا يحقّ للتجارة أن ترعى الفنون.

إن كان أنخيل سانتياغو يرغب في مضاجعتها مرّة أخرى، فهذا يعني أنه لا يعرفها جيداً. كانا قد اقتسما بضع ساعات وتضاجعا على الحشيّة النحيفة، وألهمها، بنجاح، لكي تعود للمدرسة. هذه الأمور التافهة في عالمها الفارغ كانت تعني علاقةً أكثر قوة مما امتلكت في سنوات، وربما في حياتها بالكامل.

قبل أن تتحطّم هذه المعايشة بشكل لا رادّ له، بسبب غياب الحب والفقر والفظاظة الموجودة في حياتها والتي كان يجهلها، وتذرُّعها بالصمت الذي لا علاج له سوى بالرقص، ربما كان من الأفضل إلقاء هذا الحب الذي يُولَد في سلة المهملات، مثل تلك الفوطة المُتجعدة فوق صلصة الخضروات المشوية. فكَّرت: «هل يرغب في أن نحتفظ بذكرى عذبة من هذا الحب؟ لنمارس الحب كثيراً اليوم، وفي الغد نقول: وداعاً». وقالت بصوت ناعم للغاية:

- والرغبة الرابعة؟

- حقل. كبير. فيه كلّ أنواع الحيوانات. أيْ حديقة حيوان: أبقار وحمير، لكن أيضاً طواويس وبجع بأعناق سوداء.

- على العكس، أنا أتخيّل نفسي أعيش في مدينة كبيرة. باريس، مدريد، نيويورك.

- لقد أوقعوا الضرر بنيويورك.

- لكن الناس لن ينسَوا هذا. أنا لا أريد نسيان ما حدث لي. سأتذكر أبي دائماً.

- أفهمك. أنا أيضاً أعرف ما يعني الهوَس بشيء ما. لكنني أُوشك على تحقيق حلمي.

- كيف؟

- لقد أقنعت رجلاً عظيماً يُدعى نيكولاس بيرغارا غراي لكي يصبح شريكي.

- فيمَ؟

- في مغامرة واحدة فقط، مُغامرة عظيمة ستجعلنا من الأغنياء، وستحكي عنها الكتب في المستقبل.

- سطو؟

- لا يا فكتوريا بونثيه. إنه عمل فنّيّ.

السيدات من سكان ميدان البرازيل، اللائي انبهرن بالحصان، كُنَّ يُقدِّمن له جذوع الخرشوف، وبدا أن الحيوان يشكرهنّ بجلدهن بذيله، وهو ما كان يثير بهجة الأطفال، الذين كانوا يضعون رأسهم تحته لكي ينتصب عضوه.

- كيف حالك يا حصاني الحبيب، يا قرّة عيني، يا رفيقي؟

هكذا حيّا أنخيل الحصان بشكلٍ أدبيّ وبإلقاءٍ شعريّ قبل أن يمتطيه مع صديقته، ويقوده على مهل حتى المُعسكر القريب للشرطة الراكبة. طلب من رجال الشرطة أن يسمحوا له بربطه في حظيرتهم، وودَّعا الحرّاس والحصان على وعدٍ بالذهاب لأخذه في اليوم التالي.

كانت عاملة الكاشير إيلزا في استقبال الفندق، وعندما رأت العاشقين أطفأت التلفزيون الصغير الذي كان يعرض برنامجاً واقعياً.

قال أنخيل سانتياغو وهو يضع النقود على الطاولة:

- نريد غرفة!

- هل بلغت الفتاة السن القانونية؟

- إنها خطيبتي منذ سنوات.

- كم عمرها؟

- عشرون.

- لنرَ يا ابنتي. افتحي المعطف!

اعترضت فكتوريا:

- في هذا البرد يا مدام!

- إما أن تفتحيه أو ترحلا.

فتحت الفتاة المعطف، ولم تكن ماكرةً بما يكفي لإخفاء الزيّ المدرسي.

- لكن هذه الطفلة تلميذة. هل تريد أن يغلقوا الفندق؟

- في المقام الأول، لقد بلغت السادسة عشرة. وثانياً، أنا أخوها.

- هذا أسوأ يا بُنيّ.

- وثالثاً، نحن من طرف بيرغارا غراي.

ارتدت عاملة الكاشير النَّظَّارة، ونظرت إلى التلفزيون المُطفأ كأنه يعمل. فتحت دفتر الزبائن ووضعته أمام الفتى والفتاة لكي يُسجّلا اسميهما.

- أنت تدركين أننا من فريق المُعَلِّم بيرغارا غراي، ولهذا لا يمكن أن نعطيك أسماءنا الحقيقية.

- هذا مفهوم.

- أقول هذا لكيلا يخطر لك أن تطلبي منا بطاقات الهوية.

- أنا لبؤة قديمة في هذا المجال يا جميل.

وضع أنخيل الدَّفتر بالقرب من فكتوريا وأشار لها لكي تُوَقّع.

- اكتبي أيّ اسمٍ!

- اسم مُعَلِّمة الرسم؟ يخطر هذا على بالي لأنني أحبها.

- ممتاز. ما اسمها؟

- سانهويثا. إيلينا سانهويثا. إنها تحب أفلام جيرمي إيرونز كثيراً.

- سأعطيكما الغرفة المجاورة لبيرغارا غراي. لكن لا تنفعلا كثيراً في الليل لكي يمكن للمُعَلِّم أن يستريح.

مدَّت عاملة الكاشير يدها لتعطيهما المفتاح، لكنها تراجعت ووضعته مُتعامداً على شفتيها على هيئة صليب.

- يجب أن تعداني أنكما ستقولان إنكما دخلتما خلسةً، إن جاءت الشرطة للتفتيش. أنا لم أركما. أنا رأيت السيد إنريكيه جوتيرث والسيدة إيلينا سانهويثا، اللذين رحلا قبل بضع ساعات إلى وجهة غير معلومة، بعد الانتهاء من أمورهما القذرة. اتفقنا؟

- اتفقنا. هل تعطيني المفتاح؟

بدلاً من أن تمنحه ما طلب، وضعت المرأة المفتاح فوق أنفها واستنشقت رائحته طويلاً.

- هل هو أمر هام؟

- ماذا تعنين؟

- ما تخطّطون له مع بيرغارا غراي.

- إن لم يكن أمراً هاماً لم أكن سأعمل معه. أم أنك ترينني تافهاً؟

- مُطلقاً. لكن إن كان أمراً هاماً بالفعل، أودُّ المُشاركة. قُل لنيكو إن إيلزا عاملة الكاشير طلبت منك هذا.

- أخبريه بنفسك. أنا لست حامل رسائل لأيّ شخص.

رفعت حاجبيها ورسمت تعبير غضب، ثم علَّقت المفتاح في اللوحة.

- إذاً اِذهبا لتدبير أموركما مع جيش المُبشّرين.

لاحظ أنخيل أن فكتوريا تتراجع نحو الباب بشعورٍ بالمهانة، فوضع يداً على كتف الحارسة وقال لها:

- حسناً. سأحاول استمالته من أجلك.

- إن كان الأمر يتعلَّق بالأفضال، فهو يدين لي بأكثر من معروفٍ.

- سأقول له هذا.

- الطابق الأول. الباب الثالث على اليمين.

في الثانية صباحاً، بينما كان يلعق الجانبين الداخليين لفخذيها، أمرته فكتوريا:

- اِسألني!

- امنحيني شيئاً من الراحة.

- من فضلك. اِسألني أيَّ شيء!

- فيزياء؟

- حسناً.

- ماذا كتب ستيفن هاوكينج؟ وما هي النظرية التي يطرحها؟

- كان هذا آخر ما راجعنا، أليس كذلك؟

- يجب أن تتذكّري.

- كَتبَ هاوكينج «تاريخ الزمن»، ويقول إن الزمن بلا بداية ولا نهاية.

- ممتاز.

أزاحَ الملاءة وأخذ يلعق ردفاً حتى وصل بالقرب من فتحة الشرج.

- توقّف هنا يا مجنون!

واصل الفتى طريقه دون تبديل، ولعبَ بأنفه بين ساقيها.

- ماذا حدث عام 1989 في ميدان السلام السماوي؟

- وقعت مجزرة في بكين بعدما خرج العسكر بالدبابات.

رفعَ رأسه حتى صدرها ورسمَ دوائرَ حول حلمةٍ.

- ما هو اللوح الهوائي؟ وأيّ هيئة يمتلك؟

- إنها ألواح تُستخدم في الطيران. وهي مستوية في القاعدة ومنحنية في الأطراف، وتشق الهواء لتُوَلِّدَ ضغطاً في الأسفل، وهو ما يساعدها على الارتفاع إلى أعلى.

- ماذا سيحدث لأجسادنا إن انتقلنا فجأة من ضغطٍ جوّيّ إلى ضغطٍ آخر؟

- ستنفجر.

- ممتاز. ماذا كان شعار حياة إغناثيو دي لويولا؟

- «في خدمة الرب».

- إجابة صحيحة. ما اسم المهندس المعماري الأول لأهرامات مصر؟

- إمحتب.

- ما هو تعريف المعجزة؟

غرست الفتاة أصابعها في الشعر الأشعث للفتى، والذي يعصى على أي مشط، وأرادت تمسيد أكثر خصلاته السوداء تمرُّداً دون نجاح.

- حَدَثٌ يقع بالمخالفة لقوانين الطبيعة، ويتحقق بتدخّل فوق طبيعي ذي أصلٍ إلهيّ.

- ما هو الاسم العلمي لأشجار السنط؟

- الطلح الأنباري.

- ما هو المُركَّب العضوي الذي يُسبِّب النُقطة والروماتيزم إذا تراكم في الجسد؟

- حمض اليوريك.

- هذا رائع يا فكتوريا. لم تخطئي في أيّ سؤال.

- المذاكرة معك أكثر سهولة. تُنقشُ المعلومات في ذاكرتي. هل كنت تعرف كل هذا؟

- لم تكن لدي أدنى فكرة. عرفت هذا الآن، بينما كنا نقوم بالتمارين.

أمسكت الفتاة بقضيبه وأنزلت الجلد حتى آخره، لتترك القلفة مكشوفة. اقتربت لتشمّمه واستنشقت رائحته طويلاً.

- لم يكن لك وجودٌ في حياتي قبل أسبوع. ماذا أتى بك نحوي؟

- لم أستطع التَّحكّم في نفسي في المرَّة الأولى.

- ماذا تعني؟

- أنزلت السائل المنوي بسرعة وكلّ هذا.

- أنت أبله. هذه ترّهات ذكورية. النساء لا يُعِرنها اهتماماً كبيراً.

- لكن هذا هامّ بالنسبة لي.

- يبدو أن هذا الأمر قد شغل رأسك كثيراً. لكن اليوم...

- هل وصلت إلى النشوة بالفعل في تلك الليلة؟

- ألم تنتبه لهذا؟

- يُقال في المجلات إن النساء يتظاهرن.

- يا إلهي! أنخيل سانتياغو. ألا تدرك أننا نطفو فوق بحيرة؟

- حسناً. ما هو التوالد العذري؟

- تناسل الكائنات الحية في غياب العنصر الذكري. بالمناسبة، هل استخدمت واقياً ذكرياً؟

- هذه المرّة لا. في المرة القادمة بالتأكيد.

- وماذا سيحدث إن كنتَ قد أجدتَ التصويب هذه المرة؟

- لا أفكّر في حلِّ أيّ مشكلة حتى تقع.

- هذا أمرٌ فظيع للمرأة.

- أنت...

- لا أريد الكلام عن هذا الآن. هندسة.

- ما هي مبرهنة فيثاغورث؟

- في كلّ مثلث قائم الزاوية، مساحة المربع المرسوم على الوتر مكافئة لمجموع مساحتي المربعين المرسومين على الضلعين الآخرين.

- ما هي العصارة الصفراوية؟

- إفرازات البنكرياس.

- أسماء الأبناء الذكور لأوديب

- إيتيكوليس وبولينيس.

- الأعراض المميزة للتسمّم بعضّة عنكبوت الأرملة السوداء.

امتطت فكتوريا عضو أنخيل، وبدأت في التَّحرك سعياً وراء ملامسة بظرها ببطء.

- لا أعرف.

- نعم، تعرفين.

-أشعر بالخجل من قول هذا.

- ولا تخجلين مما تفعلين؟

- اللغة مقدّسة. أُنظر في أمر تلك الكلمات التي تجوب العالم. هذا يثيرني.

- يجب أن لا تكون لغتك أكاديمية هكذا. يمكنك أن تقولي ببساطة: «يسخّنني».

- نعم، يا حبّي.

- انتباه! لقد قلتِ كلمة «حبّ» الآن.

ضغطت الفتاة على أسنانها، ضغطت بعضلات المهبل على قضيبه، وأطلقت دفقة من السائل فوق بطن العشيق.

- «أيّها الوحش، لقد جعلتني أصل إلى النشوة!». قالت وهي تنهار فوق صدره.

12

حسبما قالت فرسيا سانشث، مالكة المخبز الكائن في تقاطع شارعي سلفادور أليندي والجنرال شنايدر في قرية سان برناردو، كان الرجل الذي عبر ببابها فجراً هو ريغوبيرتو مارين، وكان يسير مُلتصقاً بالجدران المصنوعة من القرميد الأحمر، كأنما يرغب في الاختباء في عتمة الليل الأخيرة.

قالت إن دستةً من الكلاب الضالة كانت تتبعه وهي تتشمَّم الأرض والهواء، كأنما ترغب في اكتشاف خطرٍ ما. كانت الكلاب الهجينة غارقةً في صمتٍ شبحيّ، بينما تُركِّز في مُهمّةٍ أسمى، وهي التبوّل على الأشجار وأعمدة الإنارة.

كانت ساعة ذهاب العمال إلى ناصية الطريق لانتظار الحافلة التي تحملهم إلى أعمال البناء في وسط المدينة، وكان تناقض ريغوبيرتو مارين معهم جلياً. كانوا يبدؤون اليوم، وكان مارين يُنهي الليل.

فكَّرت الخبَّازة: «لم أرغب في دخوله مخبزي».

كما لم تشعر بالغيرة من الشخص الذي سيفتح له باباً. كان هذا الرجل يجذب الموت كما تجذب الجِيَفُ النسورَ. كانت الأرض التي يخطو عليها مسرحاً ملائماً لشجارٍ بالمُدَى، حتى تضع رصاصةٌ حدّاً للفوضى، وحينئذ

يظهر رجال الشرطة ليضعوا الميت في كيس بلاستيكي، ثم يستجوبون الشهود ضرباً.

كان معروفاً في الحيّ أن عقوبة الإعدام كان يجب أن تُنَفَّذَ في مارين بضع مرّات، ولم يتغيّر مصيره إلا بفضل قرارٍ صادر من رئيسٍ عاطفيّ بالاستعاضة عن الإعدام بعقوبتين أو ثلاث عقوبات نهائية بالسجن المؤبد بلا إمكانية للعفو أو التخفيض. فكَّرت فرسيا سانشث، وهي تضع الخبز الذهبيَّ اللون في سلّةٍ ضخمة، أنه تصرَّف بدهاء إن كان قد فرَّ من السجن ويسعى للاختباء في سان برناردو. من جانبٍ، لعدم وجود من يجرؤ على الوشاية به، ومن جانبٍ آخر فإن لديه قائمة طويلة من النساء من مختلف الأعمار، من المراهقات حتى الجدَّات، اللائي استمتعن بقوّته الجنسية وسيجتهدن في حمايته. يحكين أنه يمتلك اتقاداً مشوباً بحنانٍ عنيف وهو ما يحيّرهن ويثيرهن.

هي ذاتها استمعت ذات فجرٍ لفضفضة «الأرملة»، التي تذكَّرت بدقّة فوتوغرافية أن مارين ظل يداعبها خلال ساعة دون التوقف عن البكاء، بعدما أفرغ سائله المنوي.

ورغم أن كل أهل القرية كانوا يخشونه، إلا أن النساء كُنَّ مستعدّات للتخلّص من مخاوفهن إن نظرَ إليهنّ الرجل وألحَ قليلاً.

كان هناك مُبرِّرٌ عمليّ لتبرير المُغامرة: لم تكن هناك امرأة واحدة من بين ضحاياه، رغم أن الضحية في بعض الأحيان كان زوج إحداهن. وهو ما لم يمنع «الأرملة» ومارين من المضاجعة بعد الانتهاء من الطقوس الجنائزية، وقد ذهبا إلى فندق للعشّاق في كوناشالي، وأقاما علاقتهما بين زهورٍ جنائزية وشموعٍ نصف مُحترقة. قالت المرأة بعد أن نثرت الديكور في الغرفة: «لأنني أحبّك أنت، وأحترمه».

كانت القوة الجنسية لمارين تثير بين الرجال سخرية أقل شاعرية. كانوا يقولون إن جسد الرجل ساخنٌ للغاية، لدرجة أنه كان يكوي القمصان بيديه.

حسبما قالت فرسيا سانشث، فإن المجرم قد بحث عن مأوى في بيت «الأرملة» تحديداً. والدليل القاطع أن أكثر من عشرة كلاب قد تناثرت من فناء المرأة حتى الرصيف المُقابل وهي تمارس الجماع، وقد أعاقت سير العربات التي تحمل الفاكهة للسوق وتحمَّلت دلاء الماء البارد التي ألقاها الجيران فوقها.

في غرفة الطعام ببيت «الأرملة»، التي كانت ملتزمة بالحداد حتى تلك اللحظة، كان هناك رفٌّ فوقه تمثال لسان أنطونيو دي بادوا، وفوق المائدة المدوّرة المُغطّاة بمفرش تُلٍّ منقوش بمناظر ريفية تشيلية، كان هناك كوبٌ يقوم مقام المزهرية، وبداخله توجد زهرتا مارغاريتا. أزاحه مارين جانباً ليخلي مكاناً ألقى فيه بدستتين من المحار وثمرتي ليمون. فتح قوقعة إحدى فواكه البحر بضربةٍ واحدة من المدية، ليضع نقطة ليمون على الضحية. بعد التحقّق برضا من تَقَلُّصها لأنها ما زالت حية، وضعها على لسان «الأرملة»، التي مضغتها بمتعة قبل أن تبتلعها. قال مارين:

- هوسٌ. طوال العشر سنوات الأخيرة حَلِمتُ بإفطارٍ كهذا.

- بفواكه بحر تشيلية؟

- وبك يا «أرملة». لقد غويتني.

- إن جسدي هو الذي تحدَّث. كنت مضطربة وحائرة بين الألم والمتعة. أعرف أن الرَّب لن يغفر لي هذه الوحشية.

أشار مارين بجدّية إلى تمثال القدّيس فوق الرَّفِّ.

- كنت طيّبةً معه. ما زلت تحتفظين بتلك الصورة للمرحوم. وعلى العكس، لا يوجد أيُّ أثرٍ لي.

- أنت لا تترك صوراً يا ريغو، وإنما تترك جروحاً.

ذهبت المرأة إلى الموقد الصغير، وجاءت بماء مغليّ، ثم صبَّته في فنجاني نسكافيه. مضغَ الرجل محارةً أخرى بمتعة، ثم أشار للأرملة بالمدية، كأنها امتداد لسبابته.

- منذ خرجت إلى الشارع قادتني قدماي إلى هنا دون أن أدري.

- هل فررت؟

- على نحوٍ ما.

- ماذا تعني يا ريغوبيرتو؟

- منحوني عفواً مؤقتاً مشروطاً.

-لك أنت؟ ذكرت الصحافة أنك مُعاقَب بعقوبتي سجنٍ مؤبّد وخمس سنوات ويوم. لا يمكنك أن تكذب عليَّ أنا. لقد فررت!

- فعلتُ هذا من أجلك. لا توجد من تضغط عليه مثلك عندما يكون داخلك.

وضعت المرأة يدها على وجنة المجرم غير الحليقة. داعبتها بحنان، ثم رفعت الشَّفة العلوية وظلّت تنظر متلهّيةً إلى التجويف بين السنّين الوسطيين.

- لن أشي بك.

- يجب أن لا يعرف أيّ شخص أنني خارج السجن. إن عرف أي شخص بهذا، فأنا رجلٌ محكوم عليه بالموت.

- هل رآك أيُّ شخصٍ وأنت تدخل هنا؟

- لقد جئت ببطء متخفّياً بالظلام.

- لا أحب أن يتهامس الناس بأن قاتل زوجي دَخَلَ بيتي.

- بيتك؟ إن كان يحبّك حقيقةً كان يجب عليه أن يجتهد لإخراجك من هذه الحظيرة.

- كانت هناك زمن أفضل يا ريغو. لكن النبيذ والفصل من العمل أدّيا إلى انهياره. هذا بيت المتوفَّى، وأطلب منك أن تُبدي احتراماً. وإن لم يعجبك هذا يمكنك أن ترحل.

- سأصمت إذاً.

جمعَ أصداف القواقع الفارغة وهزَّها في يده، ثم قذفها على المفرش كأنه يرمي نرداً.

- هل تعرف قراءة الحظ في هذه الأصداف؟

- الأصداف لا تصلح لهذا. يمكنني قراءة الكوتشينة لك.

- لا ضرورة لهذا. دائماً ما يكون حظي سيّئاً.

حملَ كوب القهوة إلى فمه وأعاده إلى المائدة بتعبير ألمٍ.

- لقد حرقت لساني.

نفخت «الأرملة» في كوب القهوة، وأضافت له ماءً بارداً. قلَّبتَ المزيج بملعقةٍ صغيرةٍ وأشارت له في دعوة لتناوله من جديد. أطاعها مارين دون أن يحيد بنظرته عن عيني المرأة السوداوين الواسعتين.

- في الحقيقة، يا أرملة، لقد أخرجوني لكي أقتل رجلاً.

- من؟

- فتىً مسكين لا أهمية له، وجريمته الوحيدة لم تقع بعد.

- لا أفهم.

- إنه فتىً جميل للغاية ألقاه مأمور السجن في زنزانة السجناء الخطرين لكي يقوموا بتعميده. مأمور السجن ذاته امتطاه. والآن أصبح الفتى حرّاً، والعجوز متيقّنٌ من أنه سيقتله.

- كيف يعرف هذا؟

- الفتى قال هذا للجميع في السجن. ويوم الإفراج عنه تَوَعَّد مأمور السجن وجهاً لوجه.

- الفتيان في عمره يثرثرون كثيراً. يُعوِّضون نقص خبرتهم بالكلام الكثير.

- هذا الفتى ليس من هذا النوع. إنه يُنفِّذ ما يقول.

- وأنت؟

- أعطاني مأمور السجن شهراً كمُهلةٍ. تم التفكير في كل شيء جيداً، لأن الجميع في السجن يعتقدون أنني في الحبس الانفرادي. لا يمكن لأيّ شخصٍ أن يشكّ بي.

- لماذا قبلت القيام بهذا يا ريغو؟

- ثلاثون يوماً. ثلاثون ليلة من الحرية. أولاها معك. إنك تثيرين جنوني يا «أرملة»!

وضعت المرأة يدها فوق إحدى ركبتيه وصعدت على الفخذ وهي تداعبه حتى اقتربت من عضوه. بدأت شعلة مدفأة الغاز في التواري بين أشعة الشمس المتسلّلة من أطراف الستارة القماشية.

- وماذا سيحدث إن أمسكوا بك؟

- فرقة الإعدام بالرصاص.

قال هذه الكلمات بينما يُعَزِّم بلعنة. وانتفض ثم ذهب حتى النافذة وفتح الستارة بضعة سنتيمترات. كانت الكلاب ما زالت هناك، تنتظره بخطومها في التراب.

- منذ طفولتي تتبعني الكلاب. تقترب مني، تشُمّني ثم تصطحبني أينما ذهبت.

وضعت «الأرملة» يديها الباردتين فوق الموقد الصغير، بعد ذلك حملتهما إلى وجنتيها وفركتهما لتُوَزِّع الحرارة.

كان السرير غير مُرتَّبٍ. كان على حاله كما تركته عندما سمعت دقّات مارين على الباب.

- ادخل الفراش يا بُني. النوم سيريحك.

- لا أريد النوم يا امرأة. يجب استغلال كل دقيقة في هذه الحرية.

قالت مُبتسمةً:

- حرية الكلاب.

ألقت بجسدها على الفراش واعتمدت على ركبتيها، وبحركة مُعقَّدة أنزلت سروالها حتى أصبح ردفاها القويّان النحاسيّان عاريَين. وضعت يداً بين فخذيها وشقّت الشعر الكثيف الذي يغطّي فرجها، وانتابتها المتعة عندما فتحت الشفتين وشعرت بالإفرازات الغزيرة وبارتعاش عضلات مهبلها.

ترك ريغوبيرتو مارين بنطلونه يسقط على الأرض، ودون خلع السترة الصوفية البنية الباهتة، اتَّجه إلى السرير وولج المرأة حسبما كانت تُحفِّزه.

وضعه من الخلف.

كما كانت تريد تماماً.

كالكلاب.

13

بعد الغداء ظل بيرغارا غراي يسير بحذاء ضفة نهر مابوتشو، النهر الذي كان يكتسب لونه الوحليّ من مُخلّفات المدينة. كانت مياهه تحمل إطارات سيارات ممزّقة، وأجزاءً من أكواخ، قطع خشب من أعمال البناء القريبة وعلباً وأوعية صدئة للأغذية المحفوظة، بقوليات متعفّنة، فروع أشجار أسقطتها الرياح، حمامات أسقطتها أحجار النِّبال، ومن حين إلى آخر جثّة شخص ما. بعد الانقلاب العسكري كان المشاة ينظرون من فوق الجسور ويشيرون بأصابعهم إلى الأموات الذين يطفون بصدورهم ورؤوسهم التي مزّقتها رصاصات العسكر. في بعض الأيام كان أقارب المُعتقلين يجلسون على ضفاف نهر مابوتشو بأمل رؤية الأجساد التي لا يجدونها في أقسام الشرطة ولا في المُعسكرات، بينما هي تسبح في تلك المياه. عثر البعض على آبائهم وأمكنهم دفنهم.

لكن يد التطوير امتدّت إلى المدينة الآن. كان نهر موباشتو قد انصاع لتصميمات المهندسين، التي حولّت مجراه من أجل تمديد طرقٍ ناعمة حيث يمكن للأغنياء أن يتجهوا إلى بنوك وسط المدينة بسرعة. لم يعد النهر وكراً للنشّالين واللصوص الصغار الذين يسرقون الحافظات في السوق الرئيسي أو سوق لا فيغا، وأصبح مكاناً مميزاً، بل وكان يشقّ

المدينة بالقرب من المنطقة المصرفية لسانتياغو. أربع أو خمس بنايات عالية مغطّاة بطبقة معدنية لامعة تُحاول التَّشبُّه بناطحات السحاب، وخفّة ظلّ التشيليين أطلقت على هذه المنطقة المتعجرفة اسم «سانهاتان(*)».

كان بيرغارا غراي يرغب في التَّخلص من ضيقه بالسير حتى السقوط إرهاقاً. كان يمكن لحالته النفسية أن تدفعه إلى دقِّ عنقه على سور النهر عندما عبرَ الجسر أمام «كلية الحقوق»، لكن الفكرة تبخَّرت قبل أن تمرّ دقيقة واحدة. كان يعتبر الانتحار أمراً قذراً. يجب أن يفتقد المرء لأدنى قدر من الخجل لكي يمكنه الظهور بعد ذلك أمام سكّان مكانٍ ما يمرّ فيه النهر، بملابسه ممزقة بسبب فروع الأشجار التي تحملها المياه، ومقلتاه فارغتان بعدما أكلت الفئران عينيه.

مع الشروق، عندما حوَّلَ الضوءُ ضيقَه إلى مجرد حزن هادئٍ، تشجَّع على السير باتجاه شارع لاس تابيرناس للذهاب إلى غرفته، أو إلى قبره، إلى شاهد قبره، كما وصفه.

إحدى أغاني التانغو المُفضّلة لديه كانت تقول: «في هذه الساعة يُودِّع العالمَ من يعرفون كيف يموتون». أرخى ربطة العُنق وهو يصعد السلم، ثم حلَّ زِرَّ القميص الأعلى دون أن يُشعره هذا بالراحة.

اعتقدَ أنه أخطأ الغرفة عندما فتح باب غرفته. في وسط الغرفة، كانت مائدة فوقها مفرش جميل يُغطي إبريق قهوة يتصاعد منه البخار، وسلّة مليئة بأنواعٍ مختلفة من الخبز. وإلى جانبي المائدة تنتظره الابتسامة اللانهائية البريئة للشاب أنخيل سانتياغو، الذي كانت ترافقه تلميذة ضعيفة نحيفة كراقصة باليه.

- الإفطار جاهز يا مُعلِّم. ألا يضايقك أن نكون في صحبتك؟

(*) مزيج بين اسمي سانتياغو ومانهاتن. (م).

- ماذا تفعل هذه الفتاة بزيٍّ مدرسيّ في هذا الماخور؟ إن اكتشفوا وجودها في الغرفة سوف أذهب للسجن مباشرة. يا لقيمة الحرية اللعينة إن أهدرتها ليمسكوا بي كأبله، بسبب الفسوق!

قفز الفتى من كرسيّه ليُعدِّل وضع مقعد الرجل، وبعد ذلك دعاه ليصافح يد الفتاة التي كانت تمدّها له فوق المائدة.

- إنها فكتوريا بونثيه، «لا فكتوريا»، «النصر»، أساعدها للتسخين لامتحانٍ في المدرسة هذا الأسبوع.

- كلمة «تسخين» مُتَّسقة تماماً مع هذا الفندق الحقير.

أشار الفتى مباشرة إلى جبهة الفتاة وقال:

- ما الذي يُميّز الأميبا؟

ردَّت الفتاة بسرعة:

- أنها مُكوّنةٌ من خلية واحدة.

فركَ أنخيل سانتياغو يديه، ثم فتحهما وأشار إلى المائدة العامرة:

- تقدَّم يا مُعلِّم! أصناف الخبز التي تُفضّلها. عيد ميلاد سعيد يا سيد نيكو!

- اليوم ليس عيد ميلادي.

- لا تكن شديد الاهتمام بالتفاصيل يا بروفيسور. أراهن أنك ستطلب رؤية الجثة إن ذهبت إلى جنازة. وإن تلقَّيت دعوة إلى حفل تعميد ستُطالب برؤية الماء. استمتع بعيد ميلادك دون كثيرٍ من التدقيق!

أضاف بيرغارا غراي لبناً للنسكافيه، وبعد ذلك وضع طبقة من الزبد فوق شريحة خُبزٍ. تفحَّص الفتاة بعمق مع أول قضمة. ردَّت الفتاة على الحصار بتحريك جدارَي أنفها كالأرنب.

- بمَ نحتفل حقيقةً يا سيد سانتياغو؟

- بدء تنفيذ خطة القزم.

- هكذا؟

- تسلّلت بالأمس إلى منطقة الراحة والطعام في مصنع شيندلر. دخلتُ القاعة التي يتناول فيها الطعامَ عُمّال فحص وصيانة المصاعد. هذا أسهل شيء في العالم. عندما يجلسون لتناول الطعام يتركون ستراتهم ببطاقة الهوية مُعلَّقة.

- أنا مبتهج لأنك تتلهّى مع هذه الطفلة بحكاياتٍ عن الجنيّات.

- أيُّ جنيّاتٍ وأيُّ ترّهاتٍ يا مُعَلِّم؟!

وجَمعَ بين الكلمات والفعل، رفع من فوق الفراش كيساً بلاستيكياً أزرق وأخرجَ سترتين من الجينز وهو يرفع كلّ واحدةٍ في يد، كأنه صيّاد يرفع أسماكاً ضخمة.

- وكيف يتَّسق هذا مع خطة القزم؟

- لقد أخبرتك أننا نحتفل ببدء تنفيذ الخطة. الآن ينقص الجزء الخاص بك.

- عمّ تتكلّم أيها المجنون؟

اقترب الفتى بالسترتين على كتفه، وهو يعرض الآن بطاقات الهوية. كان قد وضع محلّ وجهي العاملين وجهي أنخيل سانتياغو وبيرغارا غراي. قال الفتى متباهياً:

- هل تنتبه للتفصيلة؟

- من أين أتيت بالصور؟

- أخذت صورتي في شارع ماتي. وحمَّلت صورتك من الإنترنت.

مسيرتك كلّها مشروحة. يجب أن يقوم شخص ما بدراسة الوثائق وكتابة رواية عن حياتك.

بينما كان الرجل يمضغ شريحة خبز بالزبد، بحاجبيه مقطّبين، أعار انتباهه لبطاقتي الهوية، وبعد ذلك التفتت نظرته إلى فكتوريا التي نظرت إليه أيضاً وهي ترتشف القهوة بالحليب في صمت، منتبهة إلى ما سيقوله بعد ابتلاع الخبز الذي يمضغه داخل فمه.

- ما هي «البَشرة»؟

تراجعت فكتوريا في مقعدها وبحثت عن عون أنخيل دون كلمات. فَرَكَ الفتى جلدَ إحدى يديه براحة الأخرى بشكل موحٍ.

- دون غشٍّ أيتها الفتاة.

قالت الفتاة بحماس:

- حسناً، «البَشرة» هي مجموعة الأنسجة التي تُشكِّل حدود الكائن الحي مع الوسط الخارجي.

- وأنت، من أين أتيت بخاتم «مصاعد شيندلر» لتضعه على صورتينا؟

- هذا أسهل شيء في العالم. في كل مصعد من مصاعد المدينة توجد فترينة صغيرة حيث يوجد خاتم شيندلر، ويوم إجراء الفحص الفني الأخير. كسرت إحداها بالشاكوش، والبقية تركيب على الكومبيوتر، بعد ذلك تصغير الحجم في آلة ناسخة بالألوان، ضربتان بالمقص وصمغ وحافظة بلاستيكية، وكلّ شيء جاهز.

خلع بيرغارا غراي بطاقتي الهوية من السترتين، وبتصويبٍ جيد ألقى بهما في سلة القمامة المجاورة للنافذة. صاح الفتى وهو ينهض:

- لا يا مُعلِّم! لا ينبغي أن تَلقى الأعمال الفنية هذه المعاملة.

سقط الفتى مُحبَطاً على المقعد، وارتشف الرجل القهوة بصوت مرتفع. مدَّ يده للفتاة التي أمسكتها لبرهة.

- من «بَشرة» إلى «بَشرة»، أتمنّى لك حظاً سعيداً في الامتحان يا صغيرة.

- إن رسبت، فسيفصلونني من المدرسة. يجب أن أجتاز الاختبار في الجزء الذي تمت دراسته خلال هذا العام في كل المواد في يوم واحد.

- متى؟

- الأسبوع القادم؟

ضبطت الرباط المطاطي الذي كان يُمسك بشعرها ونهضت من المقعد. أمسكت بحقيبتها المدرسية الكبيرة، وأشارت لأنخيل سانتياغو لكي يصطحبها خارج الغرفة. وفي عتمة الممرّ تركت الفتى يضع عليها المعطف فوق زيّ المدرسة، وعندما عانقها همست في أذنه:

- توجد أشياء كثيرة لا تعرفها عنّي بعدُ، يا أنخيل سانتياغو.

- على سبيل المثال، أيّ أشياء؟

- إنها ليست بالأشياء الجيدة.

- سوف يحين وقتٌ تحكين لي كل هذا. أسوأ ما يمكن أن يحدث الآن أن تصلي متأخرة إلى المدرسة.

- غداً آخر الشهر، ويجب أن أدفع الرسوم لمدربة الباليه. هل يمكنك أن تقرضني أي مبلغ؟

- من أين يا فتاة؟ لقد أنفقتُ آخر قرشٍ في الإفطار.

- لن تدعني المُدرّبة أدخل.

- سندفع بعد يومٍ أو يومين. إنها لن تموت من الجوع لأنك تأخرت عن الدفع شهراً.

- ليس شهراً واحداً. لكنني أدين لها بثلاثة شهور. يجب أن تدفع الإيجار والتدفئة.

- يجب أن تشعر بالعرفان لأن لديها مُتدربة مثلك. لا يوجد أي شخص يقوم بهذه اللفّات بكلّ تلك الأناقة. يمكنك أن ترقصي في المسرح البلدي، بدلاً من أن تتجمّدي كلّ ليلة في هذه الحظيرة القذرة.

- لن أدخل المسرح البلدي مُطلقاً يا أنخيل. هناك يرقص البجع. أما في حيِّي فإن الفئران هي التي ترقص.

- حاولي التركيز الآن في الامتحان. الأميبا، الغشاء الجلدي، متى يتم وضع التشديد في كلمة؟

- «التَّشديد».

- «التَّشديد»، على سبيل المثال. هل لديك «مالٌ» لركوب الحافلة؟

- لديّ ما يكفي للذهاب حتى المدرسة.

- والعودة؟

- سأتدبّر أمري.

- ماذا تقول أُمك؟

- ما زالت غارقة في اكتئابها.

فرك الفتى وجهه بقوة، كأنما يرغب في محوه، ثم قال:

- كلّ شيء سيتغيّر بعد ذلك. لقد رأيت أنني بدأت الخطة.

- لا أعتقد أنها ستنجح. هل رأيت كيف كان ردُّ فعل العجوز؟

- من الطبيعي أن يشعر بالفزع. لقد قضى خمس سنوات في السجن، ويشكّ الجميع أنه يُدبّر أمراً ما. يتشوّق الكل موتاً لكي يعملوا معه، لكنّني شريكه الوحيد.

مسحت الفتاة طرفَ أنفها بكُمِّ المعطف وهبطت السلالم حتى الشارع.

14

عندما دخل الغرفة كان بيرغارا غراي يلتهم شريحة خبزٍ عليها طبقة من المربّى. أخذ يمضغها بهدوء بفمٍ مغلق، لكن في الوقت ذاته، رفع إصبعاً في إشارة إلى أنه سيقول كلاماً هاماً بعد ذلك. وبالإصبعِ ذاته أمر الفتى بالجلوس على طرف الفراش.

- القانون الأول في وصايا الغابة: «ألا توقع نفسك في مشاكل»، وأنا لن أزجّ بنفسي في مشاكل معك، ولا مع أيّ شخص أصغر سناً منك.

- هكذا ستتعفّن في هذه الحجرة يا مُعلِّم.

- ولا مع شخصٍ وقحٍ مثلك.

- معذرة يا مُعلِّم! لكنك لا تعامل نفسك كما تستحق. أيُّ مُحترف في الوسط سيشعر بالفخر لامتلاك سيرتك الذاتية.

- «العار» الذي أحمله. لا تأتِ لي بعبارات مُلطَّفة.

ابتسم الفتى وفتح عبوة لبن بطعم الأناناس. شربه مرة واحدةً ولوّث وجهه بشاربٍ أبيض لم يمسحه.

- أعرف جيداً ما يعني «التلطيف اللغوي» يا دون نيكو. اسمح لي أن أحدّثك بمصطلحات تجارية. إنك تعيش في هذا الفندق الخاص

بالعاهرات والقلوب المُحطَّمة، بينما تسمع الأغاني القديمة وموسيقا تانغو رديئة، ولا تنتهز أثمن كنوزك. رأس مالك! إنك ترمي بحياتك إلى الفراغ وتهدرها دون طائل.

- اطمئن! موناستريو يدين لي بمال كثير. وربما تعيدني زوجتي إلى البيت مرة أخرى.

- أهنّئك.

- إضافةً إلى هذا، لن أحاول أي شيء إجرامي طوال حياتي. بينما كنت سجيناً فقدت زوجتي وابني ومالي وأحلامي. لقد مللت الحياة كشخصٍ حقير.

- شخصٌ بشهرتك ليس شخصاً حقيراً. الكثيرون يمكن أن يُقدِّموا خُصاهم لكي يكونوا في مكانك.

- الأدب شيء والواقع شيءٌ آخر. يوجد من يتخيل أننا نركب سيارات فارهة وندخن السيجار، ولا يعرفون أنك تشمُّ رائحة بولك لأن الحارس مخمور ولا يفتح لك الباب لكي تذهب للحمام، ولا عدد الصراصير في المتر المربع التي يجب أن تدهسها في زنزانتك في الصيف، عندما تُحوِّل الشمسُ سريرَك الحديديّ إلى مشواة.

- هذا الفندق الحقير لا يبدو لي أفضل بكثير.

- إنه مكان عابر.

- كل الناس تعرف أن موناستريو لن يدفع لك. ليس لأنه لا يرغب في هذا، وإنما لأنه أنفق كل ماله في رشوة المافيا المحيطة ببينوتشيه.

- أنفق نصيبه؛ نصيبي لم يُلمَس.

- ولماذا لا يعطيه لك إذاً؟

- لابد أنه يعاني من مشاكل في السيولة.

- لماذا لا تواجه الحقيقة يا مُعلِّم؟

- لأنني سأقتله إن سمعت الحقيقة. ولا أريد العودة للسجن.

- أنا أقترح عليك بديلاً، وبه تضرب عدة عصافير بحجرٍ واحد دون دخول السجن.

- خطة القزم.

- احتفظ القزم بهذه الضربة كجوهرة حتى حُكِمَ عليه بالمؤبد. عدم احتفاظه بها لنفسه حتى الموت وإهدائه لك يُعتبر بادرة حبٍّ وإعجاب للعظيم بيرغارا غراي.

- لا أرفض الخطة تعالياً وإنما بسبب الحذر.

- العصفور الثاني يا مُعَلِّم: الخزانة التي سنفتحها تخصّ رئيس الخدمات السرية للديكتاتور، الجنرال كانتيروس.

- لكنه دخل السجن.

- أنشؤوا فندق خمس نجوم لكي يقضي العقوبة داخله. حُكمَ عليه بخمس سنوات، والآن يسير في الشوارع مُخرجاً لسانه للجميع. كلّ المال الذي جمعه حصل عليه من الخدمات الأمنية. جمع حوله كل رجال التعذيب الذين كانوا يعملون معه أيام الدكتاتورية، والذين تمت إحالتهم للتقاعد مع الديمقراطية. وضع عليهم زيّاً موحّداً لرجال الأمن، ووعد رجال الأعمال أن رجاله سيحرسون تجاراتهم. من يرفضون التعاون يتلقّون طريحة.

- إنك فتى مهووس. انسَ الماضي!

- إن أردت، يمكنك أن تنسى ماضيك، وهو طويل. أما ماضيّ فهو قصير وجعله أبي جحيماً.

- احكِ لي!

- لا أريد الدخول في تفاصيل. لكنني أودّ سلب الخنزير كانتيروس كل هذا المال.

- إن نجحت فسوف أسعد لقراءة هذا في الصحف.

- من دونك لا توجد ضربة يا مُعلِّم. بيرغارا غراي يعرف هذا، القزم يعرف هذا وأنخيل سانتياغو يعرف هذا. كثيرون يعتمدون على قرارك.

- كثيرون؟ أودّ أن أعرف من يكونون.

- أنت وأنا وزوجتك وابنك وفكتوريا بونثيه ومُدرِّبة الباليه والقزم أيضاً، الذي يمكنه أن يستبدل البقوليات باللحوم.

حلَّ الفتى الشريط الوردي الذي يحيط بلفافة الأوراق، ووضع خطة القزم على الفراش مرَّة أخرى وثبَّت طرفيه بحذاء بيرغارا غراي حائل اللون.

- أبعِد هذا يا فتى!

- أريد أن تخبرني بشيء واحد فقط!

- ارفع هذه الأشياء من فوق فراشي!

- بغضّ النظر عن مشاركتك في الضربة أم لا، إن قمت بالحكم بشكل موضوعي على الخطة، فما هو تقييمك لها؟ أطلب رأيك كخبيرٍ فقط. جيّدة؟ سيّئة؟ عادية؟

صبَّ بيرغارا غراي ما تبقّى من قهوة في كوبه، ثم شربه مُستمتعاً بالمذاق الذي كان يغمر لسانه. وقال بعد وقتٍ طويل:

- رأيٌ موضوعيٌّ؟

- بالضبط. رأي مُحترفٍ.

- دون التزامات.

- دون التزامٍ من أي نوع.

سعل بيرغارا غراي ومرَّ بظهر يده على شاربه لكي يمسح ما علق من قهوة. وقال بحماسٍ داخليّ، لكن بتعبيرٍ رصين:

- خطة القزم ليرا رائعة، يا أنخيل سانتياغو! بغضّ النظر عن عامل الحظ الذي يعتمد على الرَّب، فإن الخطة رائعة للغاية.

ألقى الفتى حذاء الرجل إلى أعلى حتى ارتطم بالسقف، وألقى بجسده عليه وعانقه، وقبَّله قبلتين مدويتين على كلّ وجنة. دخل موناستريو الغرفة دون سابق إنذار. وأتى بتعبيرٍ ساخر إزاء المشهد الذي يراه، ودون أن يطلب إذناً رفع ملاءات السرير.

- أتمنّى ألا تقول لي: «هذا ليس ما تتخيّل يا شريكي!». ثم أضاف:

- ماذا تفعل في غرفتي؟

اتَّجه الرجل إلى الدولاب، فتحه على مصراعيه وأدخل ذراعه بين الملابس المُعلَّقة، ثم نظر إلى الأكواب الفارغة فوق المفرش.

- ثلاثة أمور يا نيكو. أولاً يجب أن تتذكر أن هذه الغرفة ملكي بكل معاني الكلمة. ثانياً، لقد أخبروني أن السادة جاؤوا بتلميذة إلى الغرفة. لا أودّ أن يغلقوا مصدر دخلي الوحيد، وألا تظهر هذه المرة في الصحف مُرتبطاً بفندقي كمُغْوٍ لصغار السن. وثالثاً، لا أحب أن يدقّوا أرضية مكتبي بالأحذية. ورابعاً - جاء الإلهام فجأة- أشعر بالأسف الشديد إن كان ما رأيت لدى دخولي يعني أنك قُمت بتبديل وجهتك.

طوَّح أنخيل سانتياغو قبضته إلى الخلف لكي يمنحها قوةً قبل أن يضرب فكّ موناستريو، لكن بيرغارا غراي قبض على ذراعه بقوّة حديدية.

- لا أسمح للصٍّ عجوز أن يُشكِّك في ذكوريّتي!

- أنا لا أشكّ يا صغير. أنا أعرف. أنا على علمٍ بأنهم كانوا يُطلقون عليك: «الملاك»، في السجن. لابدّ أن مؤخرتك أوسع من طريق أوميدا.

15

شعر الفتى بدوارٍ يتملَّكه من أحشائه، واحتقنت عيناه بالدم والدموع، وعلى الرغم من أن حنجرته حاولت إطلاق صرخةٍ، إلا أن رئتيه كانتا فارغتين من الهواء. بدأت يداه في الارتعاش، وتسارعت دقّات قلبه بسبب حمّى مفاجئة عنيفة. صبغَ الغضبُ جلده باللون الأحمر، وبحركة حشويّة حادّة استطاع التّملّص من بيرغارا غراي وأمسك بعنق موناستريوس وهو يغرس إبهاميه فوق حنجرته، ولم يتوقف عن الضغط حتى سقط الرجل على ركبتَيه باختناقٍ يمنعه من طلب الرحمة.

رغب في أن يُرفِق الخنق بالصرخات والكلمات التي كانت تغلي على لسانه، لكنه كان يجد نفسه في موقفٍ سابق على النُّطق، كان يجب أن يقتل، حتى وإن لم يمكنه أن يقول «سأقتلك». كانت غريزة خالصة، كان قد عاد إلى زمنٍ دون ذاكرة أو أفكار.

استطاع بيرغارا غراي أن يزيحه من فوق ضحيّته، بعد أن استخدم قوّة كافية لتحريك حصان، وبدفعة قوية أرسله إلى النافذة، ثم ألقاه إلى الرصيف. نهض الفتى في الشارع بينما ينهمر الدم من أنفه، وكان ظهرا يديه مجروحين بسبب الأسفلت، ووجَّه نظرته إلى بيرغارا غراي بوجهٍ غير

مُصدِّقٍ، بينما كان هذا يأمره بحزمٍ أن يبتعد عن المكان جَرْياً، لينجو. ثم صرخ به:

- سأقول إنني فعلت هذا. كلّ الناس يعرفون أنه سرق مالي، سيبدو مُقنِعاً بل ومثيراً للإعجاب أن ألقّنه درساً. اهرب الآن يا فتى!

- أين أذهب؟

- اِذهب بعيداً، بتذكرة ذهاب فقط.

- ألم تسمع ما قال لي؟ لم يحتقرني أيّ شخص من قبل بهذه الطريقة.

- هذا ليس سبباً لكي تفقد أعصابك. يجب أن لا تكون سريع الهياج عندما يكون لديك مشروعٌ كمشروعك.

تلَفَّت الفتى حوله وانتبه فوراً إلى أنه مُحاطٌ بمجموعة من الفضوليين: ماسح الأحذية، السبَّاك، حارس السيارات، بائع الزهور. رفع حارس السيارات عينيه إلى الطابق الأول، ثم ذهب ليُنفّض ياقة سترته.

- هل سقطت يا فتى؟

كان بيرغارا غراي قد ابتعد عن النافذة واتَّجه إلى داخل الغرفة. رفع أنخيل سانتياغو رأسه وتنهّد بعمق وهو يحاول ابتلاع الدم المتساقط من أنفه.

- هل تريد أن أطلب الإسعاف؟

- لا تشغل بالك يا رجل! أنفي حسّاس منذ كنت صغيراً. كثيراً ما يدمى.

- ألا ترى أن هذا نزيف؟

- الدَّم يثير الفزع، لكنّه ليس إلا شيئاً بشرياً. كم تربح يومياً من حراسة السيارات؟

- ثمانية آلاف بيسو يومياً.

- هل يمكنك أن تُسدي لي معروفاً وتقرضني ألفين للتاكسي؟

- أنا لا أعرفك.

- أنا أعمل مع بيرغارا غراي.

- وفيمَ يعنيني هذا؟

- الألفان اللذان ستقرضني اليوم قد يصبحان ثروةً في الغد.

ضبط الحارس القبعة الرمادية لحارس سيارات، التي تحمل شعار البلدية في مُقدمتها. ومن يدٍ إلى أخرى نقل الفوطة الصفراء التي يستخدمها لإزالة الغبار من فوق السيارات، أو للإشارة لها لكي تتوقف في المكان الخالي الذي يتظاهر أنه حجزه لها بشكل خاص. بعد ذلك غاص بيده في جيب السترة الأيسر لتَرنَّ العملات المعدنية.

- يجب أن تكون بالعملات فقط.

- لا توجد أي مشكلة.

- ألا تريد أن أطلب الإسعاف؟

- لا يا سيدي. ستأتي الدورية مع الإسعاف.

- أنت لا تحب الشرطة، أليس كذلك؟

- ثرثار.

مَدَّ الفتى يده صانعاً منها تجويفاً، وأخذ حارس السيارات يضع عملات من فئة المئة بيسو حتى وصل إلى ألفين. اقترب هامساً عندما انتهى:

- أنت لم تسقط من النافذة أيها الشاب. لقد رأيت كيف يلقيك بيرغارا غراي من الطابق الأول!

- إنه دائماً ما يفعل هذا.

- هل تشاجرتما؟

قال الفتى وهو يبصق كتلة الدم التي تحرَّكت حتى لسانه:

- لا يا رجل! مجرّد مناقشة. مناقشة أبوية.

على الرغم من هذا، وصلت عربة الإسعاف بعد عشر دقائق، لكن لكي تُسعف موناستريو. حملوه إلى غرفته، حقنوه بمُرخيات للعضلات، ووضعوا قناع الأكسجين على وجهه خلال نصف ساعة تقريباً. وفوق الحنجرة كانت هناك بقع بنفسجية بحجم برتقالة. قامت موظفة الكاشير بوضع مرهم تجانسي للحدّ من التهاب الجلد. لم يرغب بيرغارا غراي في تركه بمفرده، ورافقه في كل لحظات الألم مُتحمِّلاً مسؤولية الفتى. عندما وجد أن موناستريوس قد تعافى تماماً، طلب منه أن يصرف عشيقته، وقرَّب المقعد لكي يستعيدا الحميمية التي كانت تجمعهما قبل الخيانة.

- أنا آسف لِما حدث يا موناستريو! لكنّك كنت فظّاً للغاية مع الفتى.

كان مُمدَّداً على الفراش، رشف مشروب المتّة وقلَّص أنفه احتقاراً.

- أوشكَ على قطع الوريد، هذا اللوطيّ القاتل!

- إنه ليس لوطيّاً. لقد قاموا بـ«تعميده» في السجن، وبالمناسبة، إنه لا يُحب أن يُذكِّروه بهذا.

- يا رجل، لقد قلت هذا بكلماتٍ لطيفة!

ظل بيرغارا غراي يداعب شاربه مُفكِّراً، وبعد ذلك سوَّى فودَيه الأشيبين.

- حسناً يا فتى. لقد حان وقت الكلام بيننا. أنت مدين لي بنصف الغنيمة، وحتى هذه اللحظة لم تقل أيّ شيء.

- أعلمُ يا فتى. لكنني فقط كنت أنتظر اللحظة المناسبة. لكن إن كان الأمر يتعلّق بالحديث فلنتكلّم، لأن الأمور تسوء!

- لنتناول كلّ أمرٍ على حدة. أين مالي؟

ترك موناستريو وعاء المتّة فوق الكومودينو.

- ليكن حاضراً لديك أن شريكك اعتدى عليَ قبل قليل، وفي هذا العمر لن أعيش بعد اعتداءٍ كهذا.

- أنت تعرف أنني لست شخصاً عنيفاً.

- في البداية وضعت نصيبي في البورصة. أعطاني البنك كل الضمانات، وكان كلّ شيء يسير على ما يُرام حتى وقعت الأزمة الأسيوية. ضاع كلّ شيء. بعد ذلك جاءت هجمات نيويورك والانهيار العالمي. لقد انهار حُلمنا يا نيكو!

- انهار حُلمك ومالك يا مونو. أين مالي؟!

- لقد أعطيناه لتيريزا كابرياتي في دفعاتٍ شهرية.

- إنكم لا تدفعون لها أيَّ شيء منذ ستة شهور. أنا لا أحدّثك عن فُتاتٍ يا شريكي. أنا أُكلّمك عن المليون دولار التي تخصّني.

- لم يكن المبلغ كبيراً هكذا. إنه تقريباً تسعمئة ألف دولار فقط.

- موافق. أريد التسعمئة ألف دولار هذه!

- حسناً، لكي يكون هناك شيءٌ من الدخل كان يجب أن نستثمر. المحل، الفندق، رشاً للمفتشين، لم يكن هناك معنى لتجميد رأس المال أثناء وجودك في السجن.

- استخدمت نصيبي دون إذن مني!

- دون إذنك، لكن لصالحك. بينما كنت تعيش هادئاً في السجن، كنا ندفع الشهرية بانتظام لتيريزا كابرياتي.

- هل تعرف ما هي عاقبة ما فعلت في أوساطنا؟

- أنا أحفظ العرف والتقاليد في ذاكرتي. لكنك لست شخصاً عنيفاً يا

نيكو. أنت مشهور بالقلب الذهبي وكل الناس يشعرون نحوك بالإعجاب. أما أنا فيحتقرني الجميع، ومنهم ماسحو الأحذية. أنا شخص بلا قيمة إطلاقاً. إن سمحت لي باعتراف يا نيكو، أنا أحسدك!

ضغط بيرغارا غراي يديه بين ركبتيه لكي يمنعهما من استكمال ما بدأه الفتى، ثم قال بصوتٍ ناعم:

- لنأخذ الأمور على مهل. إن كان المحل والفندق الصغير قد اِشتُريا بمالي، فأنا مالكهما.

تظاهر موناستريو بوضع الوسادة جيداً تحت رأسه، لكنه في الحقيقة كان يتحقق من وجود المسدس براونينغ 45 في متناول يده.

- تقنياً، نعم. لكن يجب خصم بعض النفقات والتكاليف.

- مثل ماذا؟

- نفقات الإدارة، رأس المال السلبي، المشروبات، الأثاث.

- موافق. لكن كل هذا كان يُدفَع من الأرباح.

- لا توجد أرباح يا نيكو. لهذا لم نرسل المظروف لزوجتك منذ ستة شهور.

- وإن لم تكن هناك أرباح يا موناستريو، لماذا يظلّ كلّ هذا مفتوحاً؟!

- لن تفهم هذا.

- إنه مالي. سأحاول الفهم.

- إن أغلقت سيصبح الموظفون بلا عمل. توجد بطالة رهيبة في سانتياغو. لن تعرف موظفة الكاشير أين يمكن أن تعمل.

- عشيقتك.

- فتيات البار اعتدن على العمل هنا. وفي الأماكن الأخرى سيتمّ

استغلالهن. بعد ذلك لديك الساقي، والغرسونات، ومُنظّفو الحمامات، وحارس البوابة، والعاملات اللائي يُرتّبن الفُرُش وينظّفن الغرف. كل هذا.

- وهكذا، فأنت رجل البرّ والإحسان يا موناستريو!

- أعرف أنني لست ملاكاً يا نيكو، لكن لديّ مشاعري أيضاً.

- مع الجميع، باستثنائي أيها اللعين؟! تتركني أعيش في ماخور وزوجتي وابني يحتقرانني!

- أعرف هذا. أشعر بالأسف لهذا يا شريكي. إنها أوقات صعبة للغاية في كلّ العالم. بل إن هناك كساداً في ألمانيا.

ذهبَ بيرغارا غراي إلى النافذة وفتحها. كان ينتظر دفقة هواءٍ منعِش تُخرجه من حيرته، لكنه لم يتلقّ سوى ضبخانٍ رماديٍّ رطبٍ شتويّ. كان موناستريو يبدو قدّيساً مُحتضراً، وأدّت مبرّراته إلى اضطراب أفكاره: كان ماله هو الذي قد تبخَّرَ، لم يزُره في السجن مُطلقاً، لم يرسل أحد مبعوثيه بزجاجة نبيذٍ أو ديكٍ روميّ في أعياد الميلاد. والآن يحاول رجل العصابات الغامض أن يصبغ على اختياراته الخاطئة وسرقاته صفة العمل الخيري الاجتماعي.

- ماذا ستفعل يا نيكو؟

- أنا أُفكِّر في هذا.

- حسبما أعرف فإنك لم تقتل أيّ شخص من قبل.

- ليس حتى الآن.

- لن تفعل هذا مع صديق قديم. كنتُ مخلصاً لك حتى انقطع الحبل من كثرة الشَّدِ.

صبّ موناستريوس القليل من الماء المغليّ في وعاء المتّة وقلَّبه بأنبوب الرشف.

- أُحبُّ تناول المتّة. إنه يهدّئ أعصابي ويمنحني ألمعية.

- هذا يُسعدني، لأنك ستحتاج للكثير من الألمعية من أجل ما يلي.

- أدّيتُ أغنيةً دعائية لأعشاب المتّة في شبابي. نجحت كثيراً. هل سمعتها ذات مرّة؟

- أبداً.

- كانت تُذاع في راديو «ريفادافيا» في بوينوس أيرس. التشيليون لم يكتشفوا المتّة قطّ.

غمغم بيرغارا غراي بصوتٍ كئيب:

- متّة. اُقتل، أقتلُ، سأقتل(*).

ثم أضاف بصوتٍ عالٍ:

- ما هي كلمات أغنية المتّة؟

- هل تريد أن تسمعها حقيقة؟

- نعم. أودُّ سماعها.

- هكذا؟ بصوتي منفرداً؟ دون غيتار ولا أيّ شيء.

- قُلها هكذا، بدمٍ باردٍ.

- تقول هذا بنبرة توحي أنك تُفضِّل ألا تسمعها.

- أتحرَّق شوقاً لسماعها.

- حسناً! كما تريد إذاً. سأغنّيها بسرعة، لأنها تكون أفضل بهذه الطريقة:

(*) لعبٌ لفظيّ بالكلمات ذات الحروف و الأصوات المتشابهة، ذلك أن الكلمة الأولى «متّة - mate»، تشير للمشروب الشهير في أمريكا اللاتينية، وفي الوقت ذاته، هي تصريف لفعل «قتل - matar» بصيغة الأمر. وهكذا تكون قراءة الجُملة الحوارية كالتالي: «متّة/ اُقتل، أقتلُ، سأقتلَ».

اشرب المتّة وانتعش،
فالحياة يا زميلي، يا أخي
بسيطة للغاية:
متّة حلو ومتّة مُرٌّ،
بأنبوب للشفط أو دونه،
إنه الأعجوبة الثامنة
للصناعة الوطنية.

- هل أعجبتك؟
قال بيرغارا غراي بصوت خشنٍ:
- بعْ!
- لا أفهم.
- تبيعُ كلّ شيء: الفندق، البار، الفُرُش، الخزانة، اللافتة النيون، وتدفع دَينك لي يا موناستريو.
عدَّل الرجل من وضعه، وفي هذه المرة أمسك بالسلاح تحت الوسادة ووضع سبابته فوق الزناد.
- أكثر شيء أرغبه هو أن أُرضيك يا نيكو. لكن هذا غير ممكن.
- لماذا؟
- كل ما ترى وكل ما لم ترَ مرهون لدى البنك. البنك يمسك بخصيتيٍّ. نعيش على الاقتراض يا فتى. لقد ولَّت موضة التانغو. الشيء الوحيد المتبقي لنا هو الانهيار الأخير.

أطلَّ بيرغارا غراي من النافذة، وعندما استنشق الهواء المسموم في الشارع شعر بنغزة حادّة في قلبه.

سقط مغشياً عليه بجوار الفراش، وأدار موناستريو قرص التليفون بهدوء، ثم قال:

- أُطلبي من سيارة الإسعاف أن تعود!

16

كان مزاج رجال الشرطة رائقاً للغاية عندما ذهب الفتى لاسترداد الحصان. كانوا قد تلقَّوا ما يشبه منحةً لشراء ملابس شتوية، وقبل العودة للبيت مرَّوا على قسم الشرطة لتناول الطعام مع الحرّاس وليُروهم المعاطف والأحذية المطاطية ذات الرقبة العالية. لم تكن هناك حاجة بعد ذلك لقراءة توقعات الطقس في الصحف: حلَّ الشتاء بشكل نهائيّ، وكانت طبقات الصقيع الخفيفة تغطي النوافذ ورائحة شمع البارافين تُعبِّق الغرف. كانت الشعلات القذرة لمدافئ شمع البارافين تساهم في تسميم الجو في كل مكان. كان عريفٌ قد تصرَّف بشهامة وغطّى الحصان ببطانية، والآن يزيلها مبتهجاً قبل أن يُعيده لمالكه.

- ابحث له عن حظيرة يا رجل! إن مَرَضَ البطل بالبرد لن يمكنه المشاركة في المسابقة الكبرى للجياد في تشيلي.

- إنه يقطع الألف ومئتي متر في دقيقة وست عشرة ثانية.

- اِذهب به ليشارك في سباق «لا سيرينا» إذاً. هناك، في الأقاليم، تحرز الجياد هذا الوقت في السباقات الكلاسيكية.

- وكيف أحوال جيادكم؟

- إنها بطيئة لكن شجاعة. يجب أن تتحمّل الأحجار التي يقذفها

الطلبة، بل وقنابل مولوتوف الشيوعيين أيضاً. لقد اعتادت على هذا. لا يثير أيٌّ شيء فزعها. هل تمتلك الحصان منذ وقت طويل؟

- لقد تربّينا معاً في الريف.

- في أيّ مكان في الريف.

- في تالكا.

- الحياة هناك صحية. هنا توجد حركة كثيرة، لكن حزن كثيرٌ أيضاً.

- أريد العودة إلى هناك يا سيدي العريف. لا أجد نفسي في المدينة. حلمي أن أمتلك ضيعة.

- لتلعب اليانصيب؟

- حظّي سيّئ في اللعب.

- وفي الحب؟

- ما بين بين.

- هل لديك خطيبة؟

- نعم، لدي خطيبة.

- وما اسمها.

- فكتوريا. لكنها تُحب أن تُنادى «لا فكتوريا: النصر».

عندما رأى أن خطم الحصان يُطلق بُخاراً كثيفاً بسبب البرد القارس، عاد لوضع البطانية فوق ظهره.

- هل تعرف يا فتى؟ سأهديك البطانية!

- أنت تسخر مني!

- أنا جادٌّ. الآن، على الفور، سأقوم بحذفها من قائمة الممتلكات الحكومية.

- أشكرك كثيراً، يا سيدي العريف...؟

- ثونيغا. إن واجهتك أيّ مشكلة مع الشرطة، ستجدني هنا في القسم. إن فرضوا عليك غرامة...

- لا أمتلك سيارة.

- إن فرضوا غرامة على الحصان، قل إنه يخصّ الدوريات الراكبة في تشيلي. من طرف العريف ثونيغا. والدليل هو البطانية.

- أشكرك سيدي العريف!

- لا تدخل في مشاكل يا فتى!

سار به أنخيل سانتياغو ببطء حتى «لا فيغا» وعندما عبر بين عربات تحميل الخضروات والفواكه، وضع السائقون سيقان خرشوف وخضروات أخرى في فمه. في منتصف اليوم شعر بالجوع، لكن كبريائه منعه من طلب الطعام صدقةً، واكتفى بالتهام نصف جزرة انتزعها من بين أسنان الحصان.

إن لم يتشجَّع بيرغارا غراي على المشاركة في الضربة، فإن اختياراته في الحياة ستتقلّص إلى حدٍّ كبيرٍ. لا يمكنه العودة لفندق المُعلّم، لأن شريكه اللعين سيجعل أحد رجال العصابات يُطلق عليه الرصاص، بعد أن ترك تلك الكدمات الهائلة المُستحقة على عنقه. كانت كل الظروف تُحتِّم عليه أن يكون عابر سبيل، فارساً شبحيّاً يعيش على سرقات صغيرة- «سرقة لدرء الجوع»، تذكَّر-، على بقايا طعامٍ وصدقات، بينما يلوذ بحظائر تفوح برائحة الروث، وأن يتغطّى بالقشّ وأجولة الدقيق لكي يتغلّب على الليل والرياح الحادة في جبال الإنديز.

بالطبع يمكنه الوصول دون المُعلِّم العجوز، وهو يرتدي ملابس عامل مصاعد، إلى خزانة الجنرال كانتيروس، لكنه سيصطدم بهذا السَّدّ المعدني

المنيع دون أن يعرف كيف يفتحه. سيُمسك به رجال الشرطة بينما يكون ذاهلاً أمام الأقفال والمقابض دون أن ينجح في فتحها، وسيرسلونه إلى السجن مرَّة أخرى، حيث سيقطع القزم ليرا عنقه لأنه أفسد ضربة الألفية بهذه الطريقة الحمقاء. هذا إن لم يُخضعه أتباع كانتيروس لمجموعة منتقاة من أفضل أنواع التعذيب، التي كانوا يُطبِّقونها على السجناء السياسيين أثناء ديكتاتورية بينوتشه، ثم يضعونه في زنزانة سرّيّة.

هل يوجد لديه سببٌ ما لكي يواصل الحياة؟ باستبعاد الضربة، ستتبقى له ثلاثة أو أربعة أشياء بسيطة يمكنه أن يحلم بها. بترتيب الأهمية -قال لنفسه وهو يمتطي الحصان باتجاه مدرسة فكتوريا بونثيه-، تصفية حسابه مع مأمور السجن سانتورو. كانت الإهانة التي وجهها له قد أصبحت معروفة في أوساط اللصوص والمجرمين، بل إن موناستريو النذل قد بصق بها في وجهه. من الصعب أن يستريح قلبه إن لم يأخذ حقه. يجب أن لا يتأخر كثيراً، لأن الوعد الذي قطعه على نفسه يمكن أن يؤخذ كعنادٍ طفوليّ أمام المحكمة. كان يكره لقب «الملاك» الذي لم يكن يؤكّد جماله، وإنما يجعله يظهر في حكايات أوساط المجرمين كشخصٍ ترك نفسه ليلوطوا به مُستمتعاً. لو كان وجهه يُعبِّر عما يعتمل في روحه، لظهر أنفه خطافياً كمنقار الغراب، وعيناه محتقنتين بالدم كالمجنون، والجراح في وجنتيه كالمحارب، وشعره الكثيف الأشعث كشخصٍ وحشيّ، والنابان كنابي النمر. كان الناس سيشعرون بالرعب لمجرد رؤيته.

لكن تدرُّبَه على إظهار تعبيراتٍ خشنة وامتعاضات ساخرة لم ينجح في إخفاء طابعه الرقيق، الجسد الممشوق والأنف المرفوع، والطلاقة التي تعلَّمها في مدرسة عمومية، والرغبة الهائلة في رفع الظلم الذي وقع عليه،

والإهانات التي يتعرض لها الضِّعاف. كان لديه حسابٌ مُعلَّق مع مأمور السجن، لكن أيضاً مع بلده الممتلئ بالذهب والخراء، الذي لم يكن يجرؤ على معاقبة القتلة والمغتصبين، وعلى الرغم من هذا، أوقع به العقاب، طفلٌ في السابعة عشرة كما كان عمره في ذلك الحين، عقوبة طويلة لأنه سرقَ من أجل الحب، بسبب حُبٍّ خالص مجنون لمُغامر، لأنه سرق حصاناً أسمر يخصّ أحد الإقطاعيين الأثرياء.

ألقوا القبض عليه ذات ليلة صيفية بينما كان يأكل البطيخ على ضوء القمر بجوار شجرة بلوط، بينما كان الحصان شديد السواد يغبّ الماء من نهر بيدوكو وسط حشرات الجدجد والديدان المضيئة والخنافس ونعيق البوم المتقطّع. تخيَّل أن الحصان لوى عنقه ليوَدِّعه عندما أخذه العمال ورجال الشرطة ليعيدوه إلى مالكه.

ذهب أبوه إلى محكمة الأحداث تحت إلحاح أحد المُستأجرين، بعناد الرجال ذوي المبادئ الخشنة، وأمام ربِّ عمله، طالب القاضي بـ «عقاب نموذجيّ لكي يُصبح أنخيل رجلاً، فمنذ ترك المدرسة لا يفعل شيئاً سوى التجوّل في الحقول مثل السادة وهو ينظر إلى القمر، ويقرأ كُتباً تملأ رأسه بالجنون، ويحتقر العمل في الأرض: بل إن فواكه السيد تتعفّن على الأرض بعد سقوطها من الأشجار، لأن الفتى رقيق الظهر ولا يمكنه الانحناء ليلتقطها».

17

ربط الحصان في مكانٍ خالٍ يُستخدم لتوقف الشاحنات، وحاول تسوية تجعّدات سترته دون نجاح، ثم دخل المدرسة بينما كان الفناء خاوياً والطالبات يملأن الفصول.

تقدَّمت امرأة بدينة، بعينين واسعتين كعملات المئة بيسو، وهي تشير له بسبابتها.

- ماذا يفعل شابٌّ جميل للغاية مثلك في مدرسة للبنات؟ ستثير الجنون بهذا المظهر يا فتى.

نظر أنخيل سانتياغو بتواضع إلى حذائه، ثم رفع عينيه شيئاً فشيئاً ليردّ.

- أنا قادم برسالة عاجلة لأختي.

- من هي أختك؟

- فكتوريا بونشيه.

خبطت المُعلِّمة كفَّيها بمرح، وجذبته من كوعه إلى حيث توقَّفا خلف شجرة النخيل المُعمِّرة.

- أنا أعرف كلّ شيء عن هذه الطالبة.

- من تكونين حضرتك؟

- أنا مُعلِّمة الرسم.

- بالطبع، نعم. إنها تحبُّك كثيراً. بفضل مساعدتك لم تُطرَد من المدرسة.

- لقد ساهمت بحبّة رملٍ فقط. لكن تَغَيُّرها هو ما حسم الأمر. أصبحت ممتلئة بالرغبة في الحياة.

- بالأحرى، بالرغبة في الرقص. إنها تطمح إلى أن تكون فنانة.

- كل البنات في عُمرها يمتلكن الأفكار المجنونة ذاتها.

- لكن ليس هي. لن تترك نفسها مُطلقاً لكي تُهان في تلك العروض الخاصة بالهواة في التلفزيون.

رأت المُعَلِّمة أن الفتى لا يتوقف عن تسوية الياقة بينما يتحدّثان، وساهمت في تهذيب مظهره بوضع الجانب الأيسر من ياقة القميص فوق البلوفر الأخضر.

- لا يوجد إخوة لفكتوريا. من تكون إذاً؟

- أنا صديق. تقريباً كأخيها.

- هل أنت خطيبها؟

ارتعشت الرموش الضخمة للمُعلِّمة في تواطؤ.

- حسناً... كلمة «خطيب» رسميّة للغاية.

- عشيقها؟

أخفض الفتى رأسه فجأة كأنما قُطِعَت.

- جميلٌ هكذا وخجول للغاية، لقد تخضّب وجهك باللون الفوشيا!

- إنه لونٌ لا يمكن سوى لمُعلِّمة رسم أن تخترعه. لقد فوجئت بما قلت.

- لكنه ليس سبباً لكي يُصبح لون وجهك قرمزياً. يمكنك أن تغسل وجهك بماء النافورة. أنصحك أن تنتظر فكتوريا في الشارع. سأوصل إليها الرسالة.

- شكراً يا مُعَلِّمة!

- قُل لي شيئاً يا فتى. هل تُحبُّها؟

- ماذا؟

- كالحبّ في الأفلام. كما كان توم كروز يُحبُّ نيكول كيدمان في «عيون مُغلقة باتّساع».

- أعتقد أننا فقيران للغاية لكي نحبَّ هكذا.

- هل تستخدمان شيئاً ما؟

- معذرةً يا مُعلِّمة؟

- للوقاية. عندما تدخلان الفراش معاً... كيف أشرح لك هذا؟.... هل تستخدم غطاء؟

- هل تعنين الواقي ذكري؟

- ها أنت قد قلتها.

- أعتقد أننا فقيران للغاية أيضاً لكي نستخدم هذا.

أخرجت المُعَلِّمة من حقيبتها الكبيرة علبة واقٍ ذكريّ ماركة «إكستازيس»، بصورة راقصة عارية في «حريم»، ووضعتها في يده، وأخذت تُغلقها حتى أصبحت قبضةً.

- أنا كاثوليكية مُتديّنة. لكن تخيّل فكتوريا بينما ترقص وتتقدَّم بالونةً بطنها. ستكون هذه نهاية كلّ أحلامها. أعتقد أنك تحبّها إلى حدٍّ ما ولا ترغب في إيذائها.

- أعِدُك بهذا يا مُعَلِّمة!

- إنها فتاة حساسة، لكنّها حزينة للأسف. رسّامها المُفضّل هو إدوارد هوبر. هل تعرفه؟

- لا يا مُعَلِّمة. أنا سيّئ في الرسم.

- حسناً، هوبر. ضع هذا في جيبك، لأنه يثير أعصابي!

رافقت الفتى حتى البوابة، وهناك أخذت تدفعه بنعومة حتى الشارع.

- هوبر فنان حزين. إن رسم بيتاً، فهو أكثر بيوت العالم عزلةً. إن رسم حاجبة سينما في قاعة ممتلئة، فإنها ستكون أكثر حاجبة تشعر بالوحدة في العالم. أي إنه يُقطِّر حزَناً من السقف.

دقَّ جرس الراحة، وصاحبته صرخات المرح الصادرة من الطالبات اللائي ملأن ممرّات الفناء. حكَّ أنخيل أنفه المتجمّد ووجد خطاباً مُفاجئاً على طرف لسانه.

- إعجاب المرء بالأشياء الحزينة لا يعني أنه حزين. على سبيل المثال، فكتوريا تقوم بأداء رقصة قائمة على قصيدة لغابريلا ميسترال: « سأحملك من القبر الجليدي الذي وضعك البشر فيه، وأهبط بك إلى الأرض المشمسة». إنها كلمات حزينة، لكن عندما ترقصها، فإنها تفعل هذا بابتسامة.

أنْزَلت مُعلِّمة الرسم نظارتها قليلاً فوق أنفها، لكي تنظر في عيني الشاب دون وسيط.

- هل تعرف كيف تنتهي قصيدة ميسترال؟

- لا توجد لدي أدنى فكرةً. أنا سيّئ للغاية في اللغة.

- «فلن تنزل يد أيّ شخص إلى هذا العمق السحيق لتُنازِعَني حفنة العظام المتبقّية منك». هل تعرف كيف مات أبو فكتوريا؟

- ليس تماماً. إنها تُحدّثني أكثر عن أمها.

- فكتوريا فتاة حزينة للغاية، وهشَّة للغاية. أيّ شيء يمكنه أن يكسرها. إن لم تكن قادراً على حمايتها، يجب أن تبتعد عنها.

مرَّت بضع دقائق قبلِ أن تخرج الفتاة للشارع بصحبة مُعلِّم وهو يقول لها شيئاً ما بتركيز شديد. عندما انفصلا على الناصية اقترب منها:

- لم أستطع تدبير مال من أجل دروس الباليه يا فكتوريا. أنا آسف!

- حسناً. سأتحدَّث مع المُدرِّبة. ربما تمنحني مُهلةً أخرى.

- كيف كنت تدفعين لها الشهور السابقة؟

- كان لديّ بضعة مدخرات. لماذا أتيت؟

صُعِق أنخيل وسط المرور في الشارع. كان هذا السؤال يتركه مُعرّضاً أكثر من أي وقت للضجيج وانبعاثات عوادم السيارات، ولصافرات رجال المرور، ولصيحات الباعة، ولمجموعات الطلبة الذين مرّوا بجوارهما بينما يُغنّون بالإنجليزية، وللمطر الخفيف الذي كان يتساقط على وجهه. ربما يكون أكثر أسئلة العالم براءة، لكن اختراقه له في تلك الساعة من النهار، بعد كل ما عاشه ذلك اليوم، كان يُذكّره ويلومه بوضوح شديد على أوضاعه المتردية.

حتى تلك اللحظة كانت خطة ليرا وتحالفه القصير مع بيرغارا غراي هما مشروعه الكبير في الحياة. بعدما أسفر الأفق عن سيلٍ من الإهانات، لم يكن هناك سوى حضوره البغيض، الذي كان واضحاً تماماً أن الفتاة يمكن أن تستغني عنه: «لماذا أتيت؟».

- كنت مُتجهاً للريف.

قال وهو يُدرك أنه يحاول الجمع بين مِزَقٍ ذات معنى في حياته لكي يقاوم الحزن. وأضاف:

- يجب أن أحمل الحصان للنزهة. الحصان الذي لا يجري بسرعة يمرض، يفقد البهجة.

- فهمت.

- وأودُّ أن ترافقيني.

- أنا؟ أذهب للريف؟

فردت فكتوريا ذراعيها كأنما لتحيط بالشارع، ومدَّت نظرتها إلى السُّحب الرمادية ومِزق سلسلة الجبال التي تظهر بينها.

- حسناً، كما رأيتك ترقصين، أرغب في أن تذهبي معي للريف.

- لا أفهم ما علاقة كلا الأمرين. الرقص يعني فعلَ شيء ما. الوجود في الريف.... حسناً، إنه لا يعني سوى الوجود في الريف.

بدا له منطق الفتاة مُفحِماً. شعر أنه أكثر إنسان حمقاً وتفاهةً. كان وضعُه قد أخذ في التدهور طوال اليوم. إن كان قد خرج من السجن بظهرٍ منتصبٍ كمن يملك العالم، فإنه الآن كان آخر حيوانات الكوكب. عانق الفتاة باندفاع وهمس في أذنها:

- تعالي معي يا فكتوريا! أتوسّل إليك!

18

وضعت تيريزا كابرياتي صورة الرجل فوق مائدة القهوة. كان وجهه على درجة من اللون الزيتوني، وجنتاه نحيفتان، شفتاه رفيعتان، وكان تعبيره جاداً كالصور الخاصة ببطاقة الهوية. وبالفعل كان الجزء السفلي يحمل اسماً وسبعة أرقام.

- من أين أتيت بها؟

- فتّشت سترته عندما جاء للكلام مع بدرو بابلو. هل تعرفه؟

اقترب بيرغارا غراي من الصورة كأنما يشمّها تقريباً. رفعها، نظر إليها من الجانب، وقلبها لينظر إلى ظهرها، كأنه يبحث عن إشارة ما.

- لماذا خطر لك هذا؟

- ماذا تعني؟

- سرقة صورته.

- كان يبدو رجلاً قادماً من عالمٍ آخر. لم يكن السن ولا طريقته أو مظهره توحي أنه من زملاء الدراسة أو من مُعَلِّمي ابننا.

- هل لاحظت شيئاً آخر؟

- كانت ملابسه جديدة تماماً. من القميص حتى الحذاء. كانت كل ملابسه واسعة عليه، كأنما سرقها من محلّ دون أن يقيسها.

- هل أخبرك باسمه؟

- عندما دخل قال إنه يهنّئني لأن ابني بدرو بابلو شديد الذكاء. قال إنني محظوظة بابني، الذي كان تلميذاً جيداً على الرغم من الظروف العائلية التي يعرفها كل الناس.

أدخل الرجل يده في جيب البنطلون وعدَّ الأوراق المالية التي يحملها. وحَسَبَ ما إن كان المال كافياً لتناول دورٍ آخر من القهوة بالحليب. استدعى النادل بإصبعه وأشار لكي يكرّر المشروبات.

- البيت يفتقد لوجود رجل يا تيريزا. يجب أن تتركيني أعود.

- لا أرى سبباً لهذا. لم يتحسَّن أيّ شيء منذ التقينا آخر مرة.

- لكنني أسير في الطريق القويم.

- هذا واضح عليك. ستة شهور دون تلقّي الشهرية! لماذا تعتقد أن بدرو بابلو يتحدَّث في أمور كهذه؟

- لم أكن راغباً في استباق الأحداث حتى أكون مُتيقناً تماماً. لكن إن الححت يجب أن أخبرك أن أمامي أمراً جيداً للغاية.

- متى؟

- قريباً.

وضعت المرأة ملعقتي سكر في القهوة بالحليب، ثم ألقت الملعقة باحتقار فوق المفرش.

- قانوني أم كالعادة؟

- ما أهمية هذا بالنسبة لك؟

- لأن إجابة هذا السؤال تصنع الفارق بين الحرية والسجن.

كان هو الآن من يقذف الملعقة نحو سلة الخبز الموجودة فوق المائدة.

- يا لاهتمامك! لقد أُفرِج عني منذ أسابيع ولم ترغبي في رؤيتي.

- لقد رأيتك. وفي هذه اللحظة تحديداً أراك.

- أنت تعرفين ماذا أعني يا تيريزا. أنا أعشقك، ولا تسمحين لي بدخول مسكني.

- لقد أنقذت مسكنك من الضياع لأنك وضعته باسمي، وأجبرتك في الزفاف على الفصل بين الممتلكات.

- ما علاقة كل هذا بالحب؟

- له علاقة يا بيرغارا غراي. بالنسبة لي لا يوجد حبّ دون كرامة ولا أمان. وهما أمران غير مُدرَجَين في عرضك.

- أنا أعرف أنني لست قدّيساً. لكن، هل تشعرين نحوي بشيء ما؟

- هذه الحوارات الشبيهة بالأغاني تثير غضبي. اسمع يا نيكو. لقد طلبت لقاءك لأن ابننا متورّط في أمرٍ ما، في أمرٍ ما غير شرعي لكي يحصل على المال الذي لم تعد ترسله. هل تعرف الشخص صاحب الصورة؟

- لقد غيَّر تصفيفة شعره، وشعره الآن قصير، ولابد أنه قد غطى الندبة في وجنته اليُمنى بنوع ما من المكياج. إنه يحمل صوراً حديثة لأنه يريد أن يقدم نفسه بهوية جديدة. لكنه لا يستطيع إخفاء هذه النظرة.

- من هو؟

- لا يمكن أن يكون الشخص الذي أقصده، لأن الشخص الذي يمكن أن يكونه يقضي عقوبة مؤبدة في السجن. لكنه يشبه شخصاً ما.

- إنه ليس الشخص الذي تفكر فيه إذاً. لا يمكن أن يكون سجيناً وحراً في الوقت ذاته.

- المنطق ليس حتمياً دائماً في هذا العالم، ولا الإخلاص.

- هل تقول هذا بسببي؟

قلَّب الرجل القهوة بحنق.

- تُدخلين أيّ شخص في بيتك وترفضين دخول زوجك!

- ماذا ستفعل الآن يا بيرغارا غراي؟ هل ستصفعني كما في أفلام رجال العصابات؟

- لم أفعل هذا من قبل يا تيريزا ولن أفعله مُطلقاً.

- فلتهدأ إذاً!

وضع الرجل يديه فوق المفرش وظل صامتاً لبرهة، كأنما يدرس خطوط حياته.

وضعت تيريزا كابرياتي يديها فوق يدي زوجها وظلت تنظر إلى أسفل، في إشارة إلى أنها تتأمل. فكَّر الرجل أن ستّ سنوات كاملة قد مرَّت دون أن يبدي له أيّ شخص بادرة حنانٍ. مال على المائدة وقبَّل يدي زوجته بقوة. بعد ذلك ابتعد بهدوء لكي تقوم بسحب يديها دون أن تهينه.

- من هو الرجل صاحب الصورة يا نيكو؟

- يجب أن أقوم بتحرّياتي. يجب أن لا تعرفي اسمه الحقيقي قبل أن أتصل بك.

- لماذا لا يمكنك أن تخبرني به؟ ألا تثق بي؟

- الأمر لا يتعلَّق بالثقة. إن لم أخبرك به فهذا لكي أحميك.

رفع الصورة وعاد لتأمّلها بحاجبيه مقطّبين.

- ماذا أفعل إذاً؟

- قبل أيّ شيء، يجب أن تقبلي اسمه المزيف الموجود في البطاقة دون المزيد من التحريات. هذا الشخص يُدعى ألبرتو باررا تشاكون،

وانتهى الأمر. إن رأيته ستخاطبينه بالسيد ألبرتو. «تسعدني رؤيتك يا سيد ألبرتو.» هكذا.

- ما علاقته بابننا؟

- إن كان الشخص الذي أظنّه، فمن الغريب للغاية أن يسعى للاتصال بطالب جامعي. بعض تجّار المخدرات يحاولون التحالف مع الشباب لإدخال المخدرات في قاعات الدراسة. يُهدون شيئاً من المخدّرات لفتىً في أحد البارات أو المقاهي، وفي لقاءٍ ثانٍ يعطونه جرعات أخرى وشيئاً من المال كأرباح مُقدَّماً لما يمكن أن يبيع.

- لا أعتقد أن بدرو بابلو يمكن أن يتورّط في أمر كهذا. إنه فتىً سليم العقل والصحة، يحبّ الرياضة ويجتهد في الاستذكار.

- حسناً، لكن أيّاً منّا لم يُعطِه مالاً منذ شهور.

تراجعت المرأة في مقعدها وأراحت قفاها على الجزء العلوي من ظهر المقعد. جعلها هذا الوضع تبدو أكثر ابتعاداً.

- لست أنا المُذنبة في هذا.

- لا أعتقد أن الأمر يتعلّق بالمخدرات. شيءٌ ما ينبئني أن هذا الرجل يريد الوصول إلى الأب عن طريق الابن.

- ماذا؟

- لابد أنه لا يعرف أين أعيش، ولهذا يتردّد على الأماكن التي يمكن أن تقوده إليّ. الطبيعي أن يبدأ بآخر عنوان معروف، أي بيتي.

- ولماذا يبحث عنك؟

- يمتلك الفتيان بعض المهارات ويفتقدون لمهارات أخرى في هذا الوسط. يبحثون عن الجزء الذي ينقصهم، وأنا مشهور بأنني جيّدٌ في بعض الأمور.

- نيكو!

- أنا لست فخوراً بعيوبي يا تيريزا. لم أتّجه للجريمة منذ خرجت من السجن.

- ولن تفعل هذا.

- لست متأكداً لهذه الدرجة يا حبيبتي. بمَ خرجت من الحرية؟ أنت لا تريدين لقائي، ابني يتهرَّب مني، شريكي سرق مالي، الفقر يقضي عليّ.

وضع ساقاً على ساقٍ وكشف عن ثقبٍ في نعل حذائه.

- وكيف تتدبّر أمورك؟

- أضع في الثقبِ ورقَ جريدة وشريط لاصق. ولا أفعل أيّ شيء لحالتي المعنوية. أهمّ شيء الآن ألا تخبري ألبرتو باررا تشاكون أين أعيش. ويجب على بدرو بابلو أيضاً أن لا يخبره بهذا.

- يجب أن لا تقلق بشأن هذا. نحن لا نعرف أيّ شيء.

- هذا أفضل. هل تمتلكين سلاحاً في المسكن؟

- دائماً ما قلت لي إنني يجب أن أبتعد عن السلاح.

- عندما لا يعرف المرء كيف يستخدم السلاح جيداً، من الأفضل ألا يمتلكه.

اقتربت منه زوجته بشكل حميمي، وأزالت خيطاً عالقاً في ربطة العنق.

- هل نحن مُعرَّضان للخطر يا نيكو؟

- إطلاقاً. هل لفت شيءٌ آخر انتباهك في الرجل؟

- الملابس جديدة، لكنه يبدو كشخص يعيش في بيت دعارة، أو مثل الذين يطلبون صدقة في الشارع.

- وقح؟

- بالضبط. وقح.

- أيّ معلومة أخرى!؟

- لا أعرف ما إن كانت ستُفيدك في أيّ شيء.

- قولي!

- تفوح منه رائحة الكلاب.

19

في الثالثة عصراً انجلى اللون الرمادي من السماء قليلاً، وبعد برهة تمزَّقت بضع سحب، ومن هناك نفذت أشعة الشمس. فسَّر أنخيل سانتياغو هذا الضوء المفاجئ كفأل حسن. ورغم أن الجو لم يصبح أكثر دفئاً، إلا أن الهواء لم يعد ثلجياً. جعل الحصان يعبر الجدول، ثم دفعه للصعود على المنحدر الخفيف لأحد التلال. من أعلى يمكن رؤية سجّادة من القمح، وفي الوسط عربة يجرّها ثوران، حيث كان ثلاثة أطفال ينثرون الحبوب.

ترك الحصان بجوار شجرة بلوط، وقاد فكتوريا من يدها عبر دربٍ من الشعير العالي باتجاه غابةٍ من أشجار الصنوبر. توغّلا بين الأشجار وهما يشقّان طريقاً لخطّيهما بين الشجيرات التي يطنّ النحل والحشرات فوقها. وأسرع الفتى في سيره ودفع الفتاة للسير بهرولة مثيرة. لم يتأخرا في الوصول إلى نقطة تنفتح فيها الغابة على منطقة مضيئة، حيث كانت هناك بحيرة صغيرة يسبح فيها البط والبجع.

قاد فكتوريا بين جذوع الأشجار التي تم تقشيرها وصقلها لتُستخدم في الجلوس. خلعتْ معطفها وجلست على أحدها منفرجة الساقين، وفي أثناء ذلك أراح أنخيل رأسه على جذعٍ آخر ونظر إلى السماء.

– من يمتلك هذه الأرض؟

- إنها محميّة طبيعية. مِلك الحكومة.

- إنها رائعة.

- كنت أعرف أنك ستحبّينها. من الممنوع إطلاق النار على الطيور أو الاعتداء على الحيوانات التي تأتي لتشرب من البحيرة. هل تدركين أنه مكانٌ كما أراد الرَّب أن يكون العالم؟

- ماذا يمكنك أن تعرف أنت عمّا أراد أم ما لم يرد الرَّب؟ لا يمكن لأي شخص أن يعرف أفكار الرَّب.

- والبابا؟

- مع كلّ احترامي، البابا إنسان مثل كلّ البشر.

- لكن لديه امتياز معرفة ما يدور في خلد الربّ.

- إنك تقول هذا لأنك لم تدرس الفلسفة.

- اشرحي لي إذاً!

- أُنظُر، إن الرَّب...

- الرَّب موجود في كل مكان- قاطعها أنخيل وهو يتخيل أن سحابتين مدفوعتين بالرياح تتنافسان في سباق سرعة في السماء.

- ... الربّ لا يمكنه التفكير!

- هل طار عقلك يا مجنونة؟ الرَّب قادر على كلّ شيء. وإن كان قادراً على كلّ شيء، يمكنه التفكير. أفضل منك وأفضل مني ومن البابا ومن بيرغارا غراي.

- إن كان الرَّب يُفكّر، يجب أن يكون الرَّب وأفكار الربّ في الوقت ذاته، وهذا غير ممكن لأن الربّ واحدٌ فقط، أبديّ، لا نهائي وغير قابل للانقسام. الشيء الوحيد الذي يمكن للرب أن يفعله هو التفكير في ذاته.

- لماذا سيطرح الرَّبّ قضيةً كهذه؟

- يجب أن تُفكّر بذكاء أكبر يا أنخيل سانتياغو. لا يمكن أن تُعامل الرَّب كأنه حطَّاب. إن الرَّب هو مفهوم الرَّبّ، وهو واحد وغير قابل للانقسام في مفهوم الرَّب.

- من قال هذا؟

- الفلاسفة السابقون على سقراط.

- والمسيح؟

- هنا الخدعة الصغيرة. لأن الرَّب وابن الرَّب هما الشخص ذاته. إنه ما زال واحداً حتى إن كان له ابن.

- لا أقبل هذا يا فكتوريا.

- أفضل شيء أن تتخيّل أن كلّ شيء هو الرب. أي أن النجوم والرياح والبحار والبشر والجبال والأنهار والأشجار والحيوانات...

- هل الحصان هو الربّ؟

- إن كنت «واحديّاً(*)» فستؤمن أن الكون بالكامل هو الرَّب. إن آذيت شخصاً ما، فأنت تؤذي الرَّبّ.

- لكن الرَّبّ يغفر لكل البشر، ومن ضمنهم من يوقِعون الأذى.

- بالتأكيد لا. إنه لن يغفر للحقير اللعين الذي ذبح أبي.

- علَّمني القُسُس أن رحمة الرب لا نهائية.

- إنها كلمات يقولها القُسس.

قفز أنخيل من مكانه، وقف متوازناً فوق الجذع الساقط وشمل بنظرته كل عناصر المنظر.

(*) من الواحدية أي الإيمان بوحدة الوجود وأن الكل هو الله. (م).

- إن كان عليك أن تنتقمي من شخصٍ ما، شخص ما أوقع بك ضرراً كبيراً...

- مثل الرجل الذي قتل أبي؟

- لا أريد أن تحزني. لكن، هل تنتظرين حتى تشمله رحمة الرَّب؟

- إنني لن أنتظر أي شيء. المشكلة أنني لا أعرف من اغتال أبي.

- الديكتاتورية.

- لكن الديكتاتورية هي الجميع، وفي الوقت ذاته ليست أي شخص. يمكنك أن تركب حافلةً، وقد يكون الرجل الجالس بجانبك هو قاتل أبيك.

فجأة توتّر الفتى وأرعى انتباهه لنباح كلاب في جانب سلسلة الجبال.

- لابد أنهم قد اكتشفوا أن شخصاً ما قد دخل.

- هل سيأتون حتى هنا؟

- ربما.

- ماذا سنفعل؟

- إنك معي. لن يفعلوا بك أي شيء. هل ستمتحنين في الفلسفة في الاختبار.

- في كل شيء. لا أعتقد أنني سأنجح.

- ستنجحين. إن لم تنجحي لا يوجد مسرح البلدية. ما هي الفلسفة؟

- بدلاً من ترك الأمور كما هي، التَّفكير في كنهها. الإنسان فقط يمكنه القيام بهذا. النهر على سبيل المثال. النهر لا يعرف أنه نهر، ويقوم بعمل النهر.

- ينساب. إنّ ما رأيت كان جدولاً. يوجد نهر هائل في تالكا، نهر ماولي.

- وفيمَ تُفكّر عندما تكون بجوار ضفته؟

- لا شيء. أكون بجوار الضفة فقط.

- ألا يخطر لك التَّفكير في مغزى جريان النهر؟

-بصراحة، لا.

- من الواضح أنك لست فيلسوفاً. الفلاسفة يراقبون الجوهر، ويفكّرون في الكينونة. وبعد ذلك يخترعون أفكاراً تشرح لماذا توجد الأشياء على حالها. هيراقليطس على سبيل المثال.

- لا أعرف ما هي الكينونة.

- حسناً، لكن لابد أنك قد فكَّرت ذات مرة في وجود كل شيء.

- ألا يمكن أن يكون الأمر على نحوٍ آخر؟

- إنك تقول هذا لأنك لا تفكِّر.

- لا أفهمك.

- أغلق عينيك وتخيَّلَ أنه لا يوجد الكينونة. أي أنه لا يوجد أي شيء مُطلقاً.

- يمكنني تخيل عدم وجود أي شيء. لكن إن كنت أفكر في عدم وجود أي شيء، فأنا موجود، لأنه يجب أن يكون هناك من يُفكر في عدم وجود أي شيء.

- حسناً، هذا ما يُفكِّر فيه الفلاسفة. تخيَّل الآن أن الإنسان غير موجود. هل يمكن أن يكون العالم موجوداً.

- نعم، بالطبع.

اقترب نباح الكلاب. رفع أنخيل السبابة وأشار إلى عصفورين يلعبان فوق الماء.

- لمن؟

- لكل الأشياء الموجودة. حتى وإن لم يكن هناك بشر، سيكون هناك النهر والبحر والسحب والسماء والجياد والطيور.

- لكن الأشياء ليست ما توجد عليه فقط. إنها موجودة في حد ذاتها. إنها لا تعرف أنها الموجود. الإنسان فقط يعرف أن الكينونة يجب أن تكون موجودة. هذا شيء رائع. هل تفهم ما أقول.

- لا يا فكتوريا. لا أفهمك. لكن إن كان كل ما تعرفين يساعدك على أن ترقصي بشكل أفضل، فهذا يبدو لي رائعاً.

وصلت ثلاثة كلاب وتكسرت أوراق الأشجار الجافة المتساقطة تحت سيقانها، وتوقفت أمام العاشقين، كما توقفت عن النباح بالتزامن وتشمّمت أقدام المُقتحمَين. كان أحدها من صنف لابرادور، بلون القهوة، ونظرَ إلى فكتوريا طويلاً. هزَّ الكلبان الآخران ذيليهما وذهبا دون اكتراث للشرب من ماء البحيرة.

قطع الفتى فرعَ شجرةٍ وأخذ يُحطّمه إلى قطع صغيرة. كانت رياح باردة تهبُّ الآن من الجبال، وأصبحت السحب أكثر كثافة فحجبت ضوء الشمس.

- أريد أن أسألك سؤالاً يا فكتوريا.

نهضت الفتاة مرتعشة وأغلقت أزرار المعطف جيداً. استلقت الكلاب على الأوراق الجافة بجلودها متسخة بأعشاب الجبل والطحالب المجاورة للبحيرة.

- مادة الامتحان؟

- ليس هذه المرة. قلتِ لي إنني لا أعرفك جيداً.

- بالفعل. لكنني لن أتحدث سلبياً عن نفسي الآن، وفي هذا المكان

تحديداً. نحن هنا كأنما في مكان مُقدَّس، ولن أقوم بنثر القاذروات فوق الأعشاب.

- اسمحي لي إذاً بسؤال يخصُّني أكثر ممّا يخصّك.

- تكلَّم!

- ماذا نكون؟

انفجرت فكتوريا في ضحكة مبتهجة، أمسكت خصره بقوة وأسقطته من جذع الشجرة، ثم تمدّدت فوقه بينما تشمُّ صدغيه.

- هل هو سؤال فلسفي بمعني «ماذا نكون في الكينونة؟». على سبيل المثال، تجلّيات الكينونة؟ هيئة الكينونة؟

أحجم الفتى عن الدخول في هذه اللعبة. كانت الأرض الرطبة تحت ظهره توشك على أن تتحوّل إلى وحلٍ، كان يشعر بالنعومة الوحشية للأعشاب، والملمس الخشن للأحجار، وبحركة النمل وهو يحمل قطعاً من الأعشاب حتى جحوره. على ذلك الارتفاع، وعبر الثغرات التي تنفح بين شعر فكتوريا، رأى سماء الشتاء المنخفضة المُقبضة، والتي كانت تدفع قلبه للبحث عن مأوى. لكن ليس خُصّاً ولا كهفاً في تجاويف الجبال، وإنما بالأحرى مُهلةٌ. تخيَّل أمَّه مرتدية تاييراً من صُنع خياط، وعلى رأسها قبعةٌ من الجوخ، وهي تودِّعه في ميناء فالبارايسو. هل كانت راحلةً وقررت عدم الرجوع؟ هل كانت تحتقر أباه لدرجة أنها قررت ترك ابنها الوحيد بين يديه؟ أم أنها ستأتي من أرضٍ شرقية بعيدة في لحظة ما لتبحث عنه وتأويه كما يحدث في قصص الأطفال؟

ملاذٌ فيها.

- أنا لا أمزح يا فكتوريا. ماذا نكون؟ أي، ما هي علاقتنا؟ هل نحن ...؟

- ... خطيبان؟

- أنا أكلِّمك جاداً. موضوع الخطوبة يبدو أغنية لمانثانيرو.

- لا اعتراض لديّ على مانثانيرو.

- من فضلك، لا تتهرّبي!

- هل تعرف أن مانثانيرو كان يحمل لقب «نابليون الأغنية» بسبب قلبه الكبير وحجمه الصغير؟

أزاحها الشاب وذهب جارياً إلى شجرة صفصاف، ثم تعلَّق من فروعها المائلة وحاول التأرجح. بعد ذلك قفز على الأرض وصفَّر باتجاه قمة التل حيث كان الحصان يرعى. رفع الحصان أذنه وأطاع الأمر وأخذ في النزول نحو البحيرة.

- أنا مندهش من موقفك يا فتاة.

- ما الغريب في موقفي؟ لقد طلبت مني أن آتي معك وجئت. ألست سعيداً؟

- إن كان الأمر يتعلَّق بالسعادة، فأنا سعيد.

- إذاً؟

- سعادتي الآن مختلفة عن سعادتي عندما كنت أجيء هنا بمفردي. دائماً ما شعرت أن البقاء بجوار ضفة البحيرة يكفيني، وقد أتنفس جالساً بين الطيور، وكان هذا هو كلّ شيء. كنت أشعر بالكمال. لكن على العكس، فأنا مبتهج الآن لكن الشعور بالبهجة يؤلمني.

حاولت الفتاة أن تفهمه، لكن البرد المتزايد دفعها لفرك أذنيها بيديها ولم تنبس بأيّ تعليق.

انتابها شعور عميق بالذنب عندما نظرت إلى الساعة. حسبتْ أن الوقت

قد يكون كافياً لكي تصل إلى درس الباليه، والأكثر من هذا، إن أمكنها ، فعليها إعداد استراتيجية أثناء الطريق بحيث تدخل المدرسة دون أن تدفع المصروفات للمُدرِّبة.

- ما العلاقة التي توجد بيننا يا فكتوريا؟

حكَّت الفتاة أنفها بقوة، غرست عينيها في حدقتي الفتى، ثم قالت بصوت واثق:

-أنا وأنت موجودان معاً.

20

ذهب بيرغارا غراي إلى السجن لسببين. أولهما زيارة المأمور هويرتا، وبعد تبادل التحيات، سيطلب منه معروفين. كان بحاجة بشكل عاجل -لكن ليس بيأس- إلى شيكٍ بمبلغٍ جيّد، لكي يتدبّر أموره حتى نهاية الشهر.

العودة للحياة المدنية كانت أشقّ مما تخيَّل. كان موناستريو ينزلق نحو الهاوية، ولم يكن ممكناً أن يضع يده على نصيبه من الغنيمة، إلا إذا انتعش الاقتصاد العالمي.

شيء من المال سيخفّف من تردّي أوضاع تيريزا كابرياتي والابن. قال له:

- أنا أحدثك عن أمور أساسية للغاية مثل فواتير الكهرباء والتليفون والماء والغاز.

وأضاف إن احتياجاته شخصياً لا تتجاوز علب التبغ وشيئاً من الصبغة لإخفاء اللون الرمادي في شاربه.

كان الطلب الثاني أكثر غرابة، وقال إنه سيحدّثه عنه بأدقّ التفاصيل، كما يجب أن يكون الأمر بين صديقين قديمين حاربا في جبهتين مختلفتين. قال هويرتا: «إنه موقع يجعل مشاعر الود أكثر رهافة، ويُعمِّقها أيضاً. المرء

يحترم إخلاص خصمه أكثر من إخلاص الذئاب الموجودين في القفص ذاته».

وسأل بيرغارا غراي ما إن كان المأمور هويرتا قادراً على التحرّي، عبر شبكة علاقاته في السجون، عمّا إن كان السجين ريغوبيرتو مارين ما زال في السجن وهو يقضي العقوبة المؤبدة؟ أم أنه استطاع الهرب دون أن تعلم الصحافة بهذه المصيبة لكيلا تسقط رأس المأمور سانتورو؟ هل انتفع بأحد قرارات العفو الشعبوية المجنونة من وزير العدل، كما فعل قبل وقت قصير مأمور سجن شيكاغو مع السجناء الموجودين في عنبر الإعدام، الذين ينتظرون الجلوس على الكرسي الكهربائي؟ أم أن هناك أمراً ما غريباً؟ غريباً للغاية؟

لم يكن لدى هويرتا أيّ مانع من الكتابة بقلمه الباركر القديم على شيك من بنك سانتاندير، وأعطاه لبيرغارا غراي بهدوء ودون تساؤلات. كان المنتفع ذاته هو من قال باقتناع أكبر مما كان يعتقد حقيقةً إنه سيردّ المبلغ بعد شهر، لأنه يعرف رواتب الموظفين العموميين ويُقدِّر التضحية. تظاهر هويرتا الراقي أنه لم يسمع التعليق واهتمّ بشدة بالموضوع الآخر.

كانت الاحتمالات هي السؤال مباشرة، أو دفع مجرمين من المعارف داخل السجن لتقصّي الأخبار. لم تكن لديه علاقات كثيرة في هذه المنطقة، لأن سجنه كان يختص بالمحترفين البارزين. قال: «مثلك يا نيكو، وليس للقتلة الدمويين وعتاة الإجرام». مكالمة من مأمور سجن لمأمور سجن ستكون أكثر الطرق مباشرة، لكن في الوقت ذاته، إن كان هناك أي أمر غريب، وهذا احتمال قوي، في هذه المنطقة الزلقة، الغامضة، المتشعّبة التي تُمثل الوجه الآخر لسانتياغو، يمكن أن يؤدي هذا إلى تنبيه سانتورو لوجود من يشكّ في وجود مخالفات إدارية في سجنه، وهذا يُمكن أن يُمثل خطراً على محيطك العائلي، على بيرغارا غراي نفسه، أو يجدون

أنفسهم مُضطرّين لفعل شيء لن يفعلوه إرادياً في الظروف العادية، مثل إيذاء تيريزا كابرياتي أو بدرو بابلو بيرغارا غراي.

صحَّح الأب بابتسام ألم:

- بدرو بابلو كابرياتي. تكريماً لي، قام ابن العاهرة بتغيير لقبه.

قال هويرتا بينما يربّت على كتف سجينه السابق المُفضَّل:

- سنتّبع الطريق غير المباشر، الذي لا يلفت الأنظار.

عندما أصبح بيرغارا غراي في الشارع، أمسك بالشيك وظلّ ينظر إليه خلال برهةٍ بتركيزٍ شديد. كان سموّ هويرتا ورقيّه بلا حدود. كان قد حرَّر الشيك «لحامله» لكي يعفيه من الحرج أمام صرَّاف البنك عندما يطلب منه بطاقة الهوية، بينما ينطق باسمه صائحاً أمام بقية الزبائن في الصَّف. وبعد ذلك يعطي الشيك لمفتشي البنك لكي يفحصوه بالعدسة المُكبّرة قبل أن يدفعوه له بعد ساعة.

بينما كان يقترب من شارع كانتيناس، توقَّف للحديث مع صحفي عجوز يعرف سيرته، وقد حاول، دون إلحاح كثير، أن يحصل على تصريح صحفي حول نجاحات الماضي والمشروعات المستقبلية. تحدَّث معه بيرغارا غراي بصراحة. وخلال وقت غير قليل ظل يحكي له على معاناته، التي كان من ضمنها محاولاته الفاشلة لإعادة غزو قلب تيريزا كابرياتي، وكان مُتيقّناً من أن أسد الصحافة العجوز لن يخرج في اليوم التالي بمانشيت «المجرم بيرغارا غراي يتعذَّب حُبّاً». وبعد تجاوز هذا الخطر، نبَّهته غريزته إلى أن شخصاً آخر ينتظره على ناصية الفندق. كان الشاب أنخيل سانتياغو ينتظر قدومه بيده فوق عينيه كأنما ليتقي الشمس.

- لا يوجد موضوع للحديث بيننا - قال للفتى قبل أن يبدأ في محاصرته بحكاياته.

- آه، نعم، يجب أن نتكلّم يا بروفيسور.

- في أيّ مجتمع مُتحضِّر، بل والمجتمع التشيلي أيضاً، يقرّر الشخص الأكبر عمراً ما إن كان هناك حوارٌ أم لا. ويطيع الأجراءُ كلام الإقطاعيين. وتوجد بيننا أربعون عاماً ميزَة لصالحي.

انصاع أنخيل وهو يهرول بجواره:

- حسناً. لن أُثقل عليك وأحكي لك لماذا انهرت عاطفياً. الشيء الوحيد الذي أريده أن تُعيد لي سترات شيندلر.

- على الرحب والسعة! بكلّ سرور، سأفعل أيَّ شيء يزيح عني جسد الجريمة، وعلى الأخصّ يُبعدك عنّي لوقتٍ لا نهائيّ، إلى الأبد.

- شكراً يا مُعلِّم!

- لندخل في صمت لكيلا يراك موناستريو. رغم أنني أعترف لك بأنني لن أشعر بالضيق من رؤيتك ميتاً، إلا أنني لن أبتهج مُطلقاً بمنح متعةٍ كبيرة لذلك اللص النصّاب.

- لماذا لا تقتله، ببساطة؟!

- بسبب عملية حسابية بسيطة يا فتى. كم عدد السنوات التي سأدفعها في السجن مُقابل دقيقة من البهجة وأنا أخنقه؟ ولماذا؟ في الماضي، عندما كنت أقضي العقوبة، كان لديّ أملُ انتظار مالي وعائلتي لي. بعد قتل موناستريو، فإن التسلية الوحيدة في السجن ستكون وضع العلامات على الأيام في التقويم حتى مماتي.

- لِمَ كلّ هذا التشاؤم يا مُعَلِّم؟ إنك لا تتحمَّس لأيّ شيء مما أعرض عليك.

فتح الرجل باب غرفته وأشار للفتى ألا يجلس. صدر صريرٌ عن الدولاب عندما أخرج السترتين الجينز اللتين وضعهما فوق الفراش.

- هاك!

أمسك بهما أنخيل ووضعهما تحت ذراعه، وبدأ ينبش في سلّة القمامة بيده.

- ماذا تفعل يا خنزير؟

- أبحثُ عن بطاقتَي الهوية.

-لن تجدها إنهم يُفرغون القمامة هنا كل يوم.

واصل الفتى النبش، ثم أطلق قهقهةً مدوّية.

- أشكّ في هذا. إن سوق العاديات موجود هنا. وها هما بطاقتا الهوية.

نظّفهما في كتف قميصه، ثم وضعهما في بنطلونه.

- ماذا ستفعل بها؟

- انظُر يا سيّد نيكو! إن وجَّهت لي سؤالاً فهذا يعني أن هناك حواراً بيننا. وقلت لي من قبل إنك لا تريد الكلام معي.

- توقّف عن هذه الرطانة الوقحة وأخبِرني ماذا ستفعل بها.

رفع الفتى عينيه بتعبير جادّ وقال بحسم:

- الضربة!

- مع من؟

- بمفردي.

- لماذا تحتاج إلى السترتَين إذاً؟

- ستكون إحداهما احتياطية.

دفع الرجل باب الدولاب بإحدى قدميه، فعاد للصرير بشكل مُتقطّع قبل أن ينغلق.

- أنت تعرف جيداً أن هذا العمل ليس لكي يقوم به شخص بمفرده.

- وماذا تريدني أن أفعل إن كنت ترفض التعاون؟ أرسل لك ليرا الخطة على طبق من ذهب، وأنت ترفضها بمنتهى العجرفة.

- لقد قلت لك إنها خطة رائعة. أرفضها لأنه لا توجد خطة لا تؤدي بك للسجن مهما كانت رائعة.

- انظُر يا سيّدي! أنا أعرف أنك مشهور بـ «الأصابع الحريرية». لم تحمل مسدساً قطّ ولم تقتل أيَّ شخص من قبل؛ لكنني سأغامر بكل شيء. سأحتفظ برصاصة لي ورصاصة لك إن تعرّضنا لأيّ مشاكل. وهكذا نوفر على نفسينا السجن والسجناء والهمجيين. ما رأيك؟

- هل تجد في نفسك القدرة على إطلاق الرصاص عليَ إن وقعنا في مشاكل؟

- في موقف هادئ، لا. لأنني أحبك وأحترمك. لكن إن طلبت مني، يمكنني القيام بهذا. قرأت كتاباً في السجن حيث كان صديقٌ يقول للآخر: «من الجيد أن يكون بجوارك شخص ما ليقتلك إن حانت اللحظة».

- كنت أعتقد أن الشيء الوحيد الذي يهمّك في الكتب هو التَّجليد بورق رسم بياني.

- لا يا مُعَلِّم. لقد تعلَّمت الكثير مؤخراً. بسبب امتحان فكتوريا. هل تعرف أي شيء عن الكينونة؟

- لا توجد لديّ أدنى فكرة عن الكينونة.

- هذا واضح.

- لتسألني السؤال المحوري.

- ما هو؟

- العدم هو؟

- لا. لا يمكن أن يكون للعدم كينونة. إنه نفي للكينونة.

- إن كان هناك عدم، فإن العدم يمتلك كينونة.

ذهب بيرغارا غراي إلى الحوض وبلَّل جبهته. كان يشعر أن الفتى يمكن أن يصيبه بالحمّى خلال دقائق.

- خذ سترتك واذهب!

- حسناً. سآخذ السترتَين وأذهب.

- من سيستخدم الأخرى؟

- لا يمكنني إخبارك.

- ألا تثق بي؟!

- ثقة عمياء. لكنني لا أعرف كيف سيشعر شريكي في هذه الحالة.

- يا أنخيل سانتياغو، أنا أعرف كل المخضرمين في الوسط. أعطني اسمه فقط لكي أُقيِّم الوضع وأرى ما إن كانت ضربتك بمشاركته تمتلك أدنى احتمالية للنجاح.

- حسناً. اسمه طونيو لوثينا.

- طونيو لوثينا؟

- نعم، يا سيدي.

- كأنه اسم مطرب أسباني. في شبابي كان هناك مطرب اسمه بيبي لوثينا، وكان يُشارك في أوبرا «غويسكاس»، واشتهر في تشيلي بأغنية «قلعة من الرمال، حملتها الرياح».

- هذا صحيح يا مُعَلِّم. لوثينا هذا إسباني، لكنه لا يغني. إنه لص محترف. رغم أن أذنه موسيقية لدى سماع نغمات الأرقام السرية للخزائن.

- طالما لم تكن أذن بتهوفن.

- هل تشعر بالغيرة يا بروفيسور بيرغارا غراي؟

- لست غيوراً يا أبله!

- لكن وجهك أصبح بلون الفوشيا تماماً.

- فوشيا؟ من أين أتيت بهذه الصفة؟

- من مُعلِّمة رسم.

فرك الرجل أجفانه كأنه يرغب في التخلص من كابوس. كان الشاب العنيد مُحقاً. لم يكن وجهه مصطبغاً بالفوشيا فقط، وإنما كان قلبه يدُقّ دون توقُّف. كان بحاجة إلى الهواء.

- تعال معي!

- أين سنذهب يا مُعلِّم؟

- لقبض شيك.

- مبلغ كبير؟

- لا يا بُني. إنه مجرّد نواة لكي أدبّر أموري.

21

بعد الخروج من البنك، دعا الرجلُ الفتى إلى كافيتريا، وطلبا سندوتشات لحم بالبطاطس، وشاياً باللبن، وعلبتي سجائر. عندما جاءت الطلبات وضع علبةً في جيب الفتى، وقبلها بابتسامة. بعد تذوّق القضمة الأولى، استلقى المُعلِّم للخلف ونظَّف يديه بالفوطة كأنه قاضٍ سيقوم بارتداء العباءة، وقال للفتى:

- لقد قلتَ قبل قليل إنك مُحطّمٌ شعورياً، وفي الوقت ذاته رأيت أنك على استعداد لاقتحام إمبراطورية كانتيروس. إنه سلوك متناقض، إن لم يكن مُعبّراً عن فُصامٍ في الشخصية.

بتهذيبٍ، انتهى الفتى من قطعة السندوتش التي كان يمضغها، ومسح فمه بيده مُزيلاً الفُتات.

- ليس إلى هذا الحد. أعرف كيف أُدبّر أموري. إن كنت مثبط العزيمة، أذهب في جولة في الريف، وهناك، بين الطيور، تطير مشاكلي. هل أخبرتكَ أنني وحداني؟

- لم تخبرني، ولا أعرف ماذا تعني.

- ولا أنا.. لكن فكتوريا شرحته لي. أنا أؤمن أن الرب موجود في العالم.

- ليس على سطح البيت.

- بالضبط.

- وماذا؟

- لا شيء. أحبُّ أن أؤمن بهذا.

- وما سبب «انهيارك الشعوري»؟

- هل تتذكّر الفتاة التي جئت بها إلى حجرتك؟

- كيف لا أتذكّرها؟! «الآنسة بَشرة».

- هي ذاتها. حسناً، فكتوريا راقصة باليه. تتدرّب ليلاً في أكاديمية مانويل مونت، وبالأمس لم تسمح لها المدربة بالدخول لأنها لم تدفع الثلاثة شهور الماضية.

- يا لها من قاسية!

- إنها ليست امرأة شريرة. لكن الكثيرين في سانتياغو يمرّون بضائقة. لم يكن لديها نور بالأمس لأنهم قطعوا عنها الكهرباء. وللسبب ذاته لم تكن هناك تدفئة. الطالبات كن يرقصن على موسيقا بيانو أو راديو صغير يعمل بالبطاريات. وعندما تنفد تقوم العجوز بالتصفير بفمها.

- ماذا فعلتما إذاً؟

- رافقتها حتى بيت أمها لكي تنام في هدوء. لديها اليوم امتحان شامل في كل المواد لتقرير ما إن كانت ستستمر في المدرسة أم لا. عندما افترقنا قالت لي: «أنا مُنهارةٌ معنوياً».

- مثلما قلت لي.

- نعم.

- مفهوم.

- ستقف أمام اللجنة خلال ساعتين.

- كان يجب أن تكون بجوارها بدلاً من الثرثرة مع عجوز مُملّ.

- أنا أقضي معك وقتاً مُمتعاً للغاية يا بروفيسور. سيكون من الجيّد لنا جميعاً أن تتحمّس للضربة. لك ولي ولفتكوريا، وبشكل غير مباشر لزوجتك وابنك.

- لا تزجّ بهما في هذا الأمر!

- ما نُخطِّط له يُعتبر إنفاذاً للعدالة. لقد سلبونا كل ما نملك ولا نطمح إلا للحصول على قدرٍ ضئيل مما يخصّنا.

- اسمع يا صغير! لقد قرأت روبن هود عندما كنتُ في الثانية عشرة. حكايات الأطفال تثير مللي في الستّين.

- لماذا قصص أطفال؟ - انفعل أنخيل سانتياغو وهو يُشعل سيجارة للرجل-. أنت تعرف أن خطة القزم ليرا حقيقية مثل هذه المائدة. تقييمك لها أنها رائعة.

- لأيّ شخصٍ آخر، لكن ليس لي. لمُطربك على سبيل المثال.

- لا يوجد مُطرب ولا أيّ شخصٍ آخر يا بروفيسور. لقد قلت لك هذا لأستفزّك فقط.

- لم تنجح في هذا. الشيء الوحيد الذي تحتاجه يا فتى هو عملٌ عادي يتيح لك مساعدة التلميذة وإشباع روحانيتك الوحدانية.

أمسك الفتى رأسه بين يديه متظاهراً باليأس، ثم قلَّب السُّكّر في الشاي بحدَّة.

- مُعدّلات البطالة رهيبة. أين سأحصل على عمل؟

- في مكتب عملٍ حكوميّ للعاطلين.

- هذه الأعمال التي يقوم بها الحمقى من كنس أوراق الربيع المتساقطة ويحصلون على خمسمئة بيسو في اليوم.

- أنا لا أحدّثك على الحد الأدنى من الوظائف. يُمكنك الحصول على عمل يناسب مستواك. إنك لم تدرس الثانوية العامة هباءً.

- نعم. لكنّها لم تُفِدني بأيّ شيء.

- لماذا؟

- لأنني سرقت حصاناً أسود وكان مالكه من الفاشيين. طالب بعقوبة خمس سنوات في السجن. والقاضي الذي كان أخاه استجاب لطلبه.

- هل هذا هو كلّ شيء؟

- يبدو لك قليلاً!

لم يمكن لبيرغارا غراي أن يكبح نفسه. رفع يده وداعب شعر الفتى بحنان.

- لكن يا بُنيّ، إن كانت هذه هي كل لائحة سوابقك فأنت نظيفٌ ونقيٌّ كعذراء أمام المجتمع. ستحصل على عمل رائع.

- أشكّ في هذا.

نهض الرجل من مقعده، وأشار للفتى لكي يرتدي سترته، وخرجا من بناية فرناندث كونشا باتجاه ميدان السلاح. وهناك رأيا مصوِّراً يرتدي معطفاً أبيض ربما كان نظيفاً ومُنشًّى قبل عشر سنوات، وجعلاه يصوِّرهما. وفي الخلفية كان هناك تمثال الغازي بدرو فالديفيا، وفي مواجهتهما، بقرارٍ من بلدية سانتياغو، كان هناك الهندي الشجاع «كاوبوليكان» الذي يُمثِّل الجزء الآخر من الدم التشيلي.

كانت الصور جيّدة، ودفع بيرغارا غراي ألفَي بيسو مقابل كلّ صورة. وأخذا يهزّانها بينما يتجهان إلى محطة مابوتشو مخترقين صفوف العاطلين

البيروفيين الذين يحاولون بيع القلادات أو الصدريات من الألبكالا، عندما وصلا إلى الجنرال ماكينا، أوقف الرجل الفتى أمام مكتب عملٍ.

- ادخُلِ هنا وأؤكد لك أنك ستخرج بعدما تحصل على عمل مثل أيّ مواطن شريف؟

- ألا ترغب في الدخول أيضاً؟

- بصراحة شديدة، لا أعتقد أنني قادر على البدء كمتدرب في مكتب في الستين من عمري. لكن أنت...

- أنا؟ متدرب؟ أُفضِّل السجن يا بيرغارا غراي.

أعطاه الرجل الولّاعة، واقترح عليه أن يصفِّف شعره بأصابعه.

- اعرض سيجارة على الموظف الذي سيأخذ بياناتك. إن قَبِلها، أشعِلْها بثقةٍ على الفور. اجلس على الكرسي بظهرٍ منتصب. أظهِر الرغبة والبهجة. كلّ الناس يودّون مساعدة فتى مُجتهد وطيّب.

- لا أحبُّ أن ينظروا إليّ كفتىً طيّب.

- أنا آسف. لكن في هذه الحالة قد تفيدك هذه النقيصة. ما رأيك في عملٍ كمضيف طائرة؟

وضع بيرغارا غراي يده فوق حاجبيه ليقي عينيه، وتصنَّع النظر من الأعالي إلى الأرض.

- مُضيف؟

- إنها وظيفة كبيرة تليق بشخص وحداني! تخيَّل أنك في السماء وتحتك البحار والجبال والأنهار والغابات والصحاري والكاتدرائيات والرجال والنساء مثل النمل، يجوبون العالم، وأنت تبتسم من الأعالي، كأنك تمتلك العالم!

- لم أطِر من قبل. أعني أنني لم أركب طائرة قطّ.

قاده الرجل حتى باب المكتب وتمنّى له حظاً سعيداً وهو يربّت على كتفه.

- سأنتظرك في المقهى الموجود عند الناصية.

مدَّ له الموظف يده من الجانب الآخر للمكتب الذي ذكَّره بدِكَك المدرسة الابتدائية. كان الموظف أكبر منه بعامين تقريباً. كان يبدو أكثر إيجابية من الفتيان الجالسين في قاعة الانتظار. فكَّر أنخيل: «هذا منطقي، إنه يمتلك عملاً والآخرون لا».

اتَّبع نصيحة البروفيسور وقدَّم له سيجارة ثم أشعلها بسرعة. على الأقل يبرهن بهذه الطريقة على أنه لا يعيش في البالوعات. كان يمتلك تبغاً، والولّاعة ممتلئة بالبنزين. فكَّر أن هذا يضفي عليه لمسة تميُّز في هذا الوسط من البؤساء.

حكى له سيرته بإيجاز، وقام الموظف بتسجيلها في دفترٍ حكوميّ ذي غلافٍ رمادي، ثم تراجع في مقعده للخلف، مُتصنِّعاً ابتسامة لطيفة.

- إن سمحت لي بتشخيصٍ ورأيٍ، يا سيد سانتياغو، فإن سوابقك، واعذرني على الصراحة، لا تبدو واعدة.

- لماذا يا سيدي؟ بينما كنت أحكي لك حياتي، كنت أشعر أن الأمر ليس بهذا السوء.

بدأ الموظف في سَنِّ طرف قلم رصاص ماركة «فابر بموس جيليت». خمَّن الشاب أنه كرَّر هذه الحركة مع مُتقدِّمين آخرين. كان جزء كبير من المائدة والأرض التي لا توجد عليها سجادة مغطّى بنشارة الخشب.

- توجد في حياتك سلبيات أكثر من الإيجابيات. إضافةً إلى هذا، من بين سنواتك العشرين قضيت ثلاثاً في السجن.

- كان حظي سيئاً. ارتكبت حماقةً صبيانية، وكان من حظّي قاضٍ صارم. لكن من جانب آخر، فأنا حاصل على شهادة الثانوية العامة بدرجات جيدة. لو لم تكن هذه المأساة قد وقعت كنت سألتحق بالجامعة؟

- ومن أين كنت ستأتي بالمال؟

- هذه هي المشكلة. سرقت حصاناً لأنني لم أكن أمتلك مالاً.

- لتبيعه؟

- لا. لكي أمتطيه فقط.

- أيُّ صاحب عمل مُحتمَل سيرى في سيرتك الذاتية أنك لم تعمل مقابل بيسو واحد منذ خرجت من المدرسة الثانوية؟

- لم أكن بحاجة إلى العمل. أما الآن فيجب أن أعمل.

- لماذا؟

- أريد الزواج.

-لدينا في هذا البلد مئات الآلاف من العاطلين، بعضهم حاصل على تعليم فني أو جامعي. بشهادات جامعية وخبرة في العمل. وبالخبرة التي تعرضها، لا يمكن أن تحصل إلا على عمل كبائع على عربة فول سوداني.

- رقائق بسكويت، فول سوداني مُحمَّص، فول سوداني بالسُّكَّر.

- بالقليل من رأس المال يمكن شراء عربة وفرن للحفاظ على الفول السوداني ساخناً، ويمكنك انتهاز الشتاء في بيابيستا. الأحدُ يومٌ جيد بشكلٍ خاص، لأن الآباء يحملون الأطفال إلى حديقة الحيوان مروراً بشارع بيو نونو.

- في الحقيقة أُفضِّل بيع الفول السوداني في الشارع على الحصول على راتب مثل راتبك، حيث تسحق أفراداً مُنهارين بالفعل.

- أؤدي هذا العمل بروحٍ كبيرة للخدمة العامة.

- ساعِدني إذاً! لديّ مهارات عديدة، وبصراحة فإن طموحاتي أكبر من عربة الفول السوداني.

- لكن، يجب الحفاظ على هذه الطموحات في إطار القانون. فترة في السجن، كما في حالتك، تساوي «هارا كيري» أو انتحاراً يابانياً في سوق العمل.

- ألا يمكنك ألا تعرض عليّ أي شيء؟ بستاني، عامل نظافة في مكتب أو كهربائي؟

- لا يوجد لديّ أيّ شيء. يمكنني تقليب جيوبي ولن أعثر على أيّ شيء.

- ولماذا توجد وظيفتك إذا؟!

- إننا في انتظار تعافي الاقتصاد العالمي. حينئذٍ ستكون هناك فرص عمل. لكن الأزمة موجودة في ألمانيا وآسيا والولايات المتحدة. تشيلي تؤدي الواجب جيداً، لكن إن كانت البلاد الأخرى لا تنمو، ماذا يمكننا أن نفعل؟

- لا يمكنك إذاً أن تفعل أيَّ شيء من أجلي؟

- الشيء الوحيد الذي يمكنني فعله هو إعطاؤك شهادة أنك جئت هنا ولم يمكننا عرض أيّ شيء عليك؟

- وفيمَ تفيدني شهادةٌ كهذه؟

- في الحقيقة، لا فائدة لها. لكن يمكنك البرهنة أمام أيّ شخص أنك اجتهدت في الحصول على عمل. هناك من يُقدِّرون أن يكون الفتى مُجتهداً ومثابراً.

- أعطني إيّاها إذاً!

- على الرحب والسعة! أعرفُ فتياناً في عُمرك، يغنّون في المترو ويطلبون إحساناً ويعرضون الشهادة. هذا يُليِّن قلوب الركاب.

- هل تقول إحساناً؟

- إنه ليس أفضل شيء، لكن الحاجة تُجبر المرء.

ملأ الموظف نموذجاً مطبوعاً، وبعد ذلك وضع عليه خاتمين بحماس متفائل.

- أتمنى لك حظاً سعيداً يا سيد سانتياغو.

- أشكرك.

- ماذا ستفعل بالشهادة؟

- كما قلتَ يا سيدي، لا شيء.

نهض الشاب وكنس بيده شيئاً من نشارة الخشب المتراكمة فوق المكتب، ثم وضعه في كفّه الأيسر.

- لم يُخترعُ بعد شيء أكبر من القلم فابر مقاس 2، أليس كذلك يا سيدي؟

- إنه ما يوصون به في المدارس.

- إن قام المرء بِبَرْيِ طرفه جيداً يمكنه الحصول على خطٍّ أنيق للغاية. أرى أنك لا تستخدم مبراة.

- موسى جيليت فقط.

- لماذا؟

- إنه يؤدّي وظيفتين: يبري القلم، ويهدِّئ الأعصاب.

22

تاريخ الحرب البونية الأولى، متى غزا هانيبال شبه الجزيرة الأيبيرية بعد عبور جبال الألب، في أي عام مات يوليوس قيصر، فيم تختلف الحكومة الأرستقراطية عن الحكومة الأوليغاركية، ما اسم الهيدروكربونات المُشبَّعة، ما اسم السيتون الذي تحمل صيغته رمز CH-CO-CH-، من ترجم الإنجيل للألمانية، عناوين ثلاث روايات لبلاسكو إيبانيث، ما اسم أمّ الامبراطور كارلوس الخامس، من صاغ مقولة «يعجز الخيال عن اختراع كل هذا القدر من التناقضات المتنوعة الموجودة في قلب المرء»، ما هو «تعليق الحُكم» حسب هوسرل، من قال «لم يتم فتح ثامورا في ساعة واحدة»، ما هي المادة الكيمائية التي أُستخدمت عام 1948 لصنع أول ترانزسيتور، في أيّ عامٍ تم توقيع وقف إطلاق النار الذي قسَّم الكوريتين بشكل نهائي، ما اسم كاهنة أبولو التي كانت تُقدم النبوءات في معبد ديلفوس، ما الاسم الذي يُطلَق على فئتين من ذوات البذور اللتين تحتويان على فلقة واحدة في البذرة، ما هي العلاقة بين غاندي ومذبحة أمريستار، «أنا مُتيقنٌ من أنه مُذنب» هل هي عبارة توجيهة أم توكيدية أم توضيحية أم تعهّدية أم تعبيرية؟ حَلِّل الموقف التواصلي التالي واختر الإجابة الصحيحة: «صحفي بارز يحاور لاعبَ العام في كرة القدم،

ويقارنه بكبار اللاعبين على مرِّ العصور، مثل بيليه أو مارادونا.» من الذي يقوم بدور المُرْسِل والمُتَلَقِّي:

أ. الصحفي هو المُرْسِل ولاعب الكرة هو المُتَلَقِّي

ب. لاعب الكرة هو المُرْسِل والصحفي هو المُتَلَقِّي

ج. لاعب كرة القدم والصحفي يتبادلان دورَي المُرْسِل والمُتَلَقِّي

د. الصحفي وبيليه ومارادونا هم المُرْسِلون، ولاعب كرة القدم هو المُتَلَقِّي.

هـ - إجابة مختلفة عن الإجابات السابقة

ما هو القاسم المُشترك بين المصري أنور السادات، والإسرائيلي مناحم بيغين؟ أيّ إقليم يُطلق عليه القرن الإفريقي؟ ما الصفة التي تُطلق على الوحدات الأساسية عندما تقوم الجُسيمات دون الذرية بامتصاص الطاقة أو تحريرها؟ من أيّ حيوان يتم استخراج الأنسولين؟ ما تعريف التأثير الذي تُحدثه زيادة ديوكسيد الكربون في الهواء؟ ما هي الرواية التي تبدأ بعبارة «هل سيعثر على الساحرة؟»، ما هو الميغاثيرم؟ ماذا يُسمى التهاب الغشاء المخاطي الذي يُغطي مجرى البول؟

كانت الأسئلة وإجاباتها أحجاراً تحت وسادة مقعد فكتوريا بونثيه. كانت ذكريات المهانة في استوديو مُدرِّبة الباليه تتحرّك في أجفانها كشظيّات معدنية حقيقية. كانت قد ظلت تنظر عبر النوافذ واستمرَّ التدريب بشكل طبيعي دونها. أصابها الاستغناء عنها بالاختناق. حاول سانتياغو أن يخفّف عنها: «سأحصل على مال في الغد، وبما أن هناك حكمةً وراء الشَّر الذي يقع، يمكنها أن تستغلّ هذه الساعات في مراجعة المواد المدرسية. ما إن يتم تمهيد طريق المدرسة، سنتدبر معاً -كما قال في تلك اللحظة- أفضل طريقة لكي تصبحي فنانة في مسرح البلدية». استقلّت حافلة أنبوب

عوادمها مكسور. كانت انبعاثاته تختلط برياح الليل الجليدية، وأشعل المزيج السام وجنتيها.

لم تندهش أمها عندما رأتها تصل مُبكّراً. بعد بضع دقائق وضعت لها فوق المائدة حساء بازلاء وبداخله قطع لحم مُقدَّد، وجلست لترافقها وهي تداعب شالها الأسود المنقوش. كانت ترتشف من كوبٍ نبيذاً أحمر من حين إلى آخر، وبعد ذلك تمسح شفتيها بطرف لسانها. وفي لحظة ما حادت بنظرتها إلى التلفزيون المُطفأ وظلّت تنظر إليه بثباتٍ لبرهة، كأنه يعرض برنامجاً ما. قالت الفتاة إن تياراً من الهواء البارد كان يدخل الحافلة، وإنها ربما تكون قد أُصيب بالأنفلونزا. قدَّمت لها الأمُ كوب ماءٍ من الصنبور وقرص أسبرين.

كان البرد يغمر كل بيوت سانتياغو. شيءٌ ما كان يحدث في المدينة، كأنما الجدران تمصّ الحرارة من أجساد الناس وتطردها للخارج. كانت المقاعد المُغطاة بالبلاستيك مثلجة، كان السجاد بدرجة حرارة الأسمنت ذاتها.

وضعت فكتوريا كتب المواد المختلفة فوق الأريكة، وظلّت تتصفّحها في محاولة لاستعادة شيء من التركيز لانتهاز تلك الساعات. أرادت تَخَيُّل أعضاء اللجنة التي ستخضعها لاختبار حاسم في الغد. أغلقت عينيها وفكّرت في صورة تُذكِّرها بباليه «رقصة المعبد»، كانت صورتها تتضاعف مئة مرّة في فرارٍ أبديّ باتجاه غابة.

وهكذا كانت ترى نفسها تفرّ عبر شوارع سانتياغو مئة مرّة أو ألف مرة، بعد أن تعرَّضت لإهانة المُدرّبة. لماذا اعتادت على الفظاظة؟ هل تكفي ليلتا حبٍّ مع فتىً خبيرٍ في الوقوع في المشاكل، إضافةً إلى نزهةٍ على ظهر الحصان حتى بحيرة في يوم مليء بالطيور والكلاب، لكي تفتح طريقاً يعود بها إلى الحماس والتفاؤل؟

بالطبع كان أنخيل سانتياغو شاهداً على غرقها أمام باب أكاديمية الباليه، ولم يمكنه فعل أيّ شيء سوى النظر إلى المُدرِّبة مُتضرِّعاً. بعد ذلك قادها حتى المحطة وهو يعانقها، ولم يسمح لها بالانطلاق في الجري دون هدىً بعدما أعماها الألم. بصوتٍ مبحوحٍ، عاتبته وهي تبكي على أنه لم يفِ بوعده. قال لها مرّتين إنه سيجد حلّاً لموضوع الدَّين والإنذار الأخير للمُدرِّبة. لكن مع مرور الوقت كان يبدو أن وعوده تتبخّر بسبب العجز. ضمَّت يديها فوق صدرها في وضعٍ للصلاة تعرفه منذ طفولتها. لكنها لم تُصلِّ لأيّ إله، ولم تطلب العونَ الإلهي ولا استدعت ملاكاً حارساً، ولم تقل أيّ شيء لتمثال العذراء الصغير. كان أنخيل سانتياغو قد صاح من الشارع، عندما انطلقت الحافلة، إنه سيذهب إلى المدرسة في ساعة مُبكرة بالمال من أجل المُدرِّبة. هل سيفعل هذا أم أنه كان يثرثر؟ إن نجح فربّما ترفعُ هذه البهجة رأسها وتصبغ شيئاً من البهاء على وجنتيها قبل مواجهة اللجنة. لكن، إن لم يصل في الوقت المناسب، كيف ستمتلك القوة على تحَمُّل سخرية بيريوس، مُعَلِّم الرياضيات الذي لم يكن ينظر إليها وهو يُحدِّثها، لأنه كان يشعر بإهانة في ذاته كمُعلِّم لأن لديه طالبة تريد اجتياز امتحان القُبُول في الجامعة وهي تجهل جدول الضرب تماماً.

لم تكن الليلة تَمُرُّ. كانت أذناها تلتقطان شجارات القطط فوق الأسطح، صرير الأبواب في البيوت المُجاورة، زئير موتوسيكل بعيد وهو يصعد شارعاً منحدراً مرصوفاً بالأحجار، سارينات الإسعاف ودوريات الشرطة.

لمست شرايين عنقها. بدا أن المعارف التي التهمتها خلال الأيام السابقة قد انحشرت كالطعام سيّئ الهضم في فُمِّ المعدة.

كانت الأمّ تئنّ من حينٍ إلى آخر في الغرفة المجاورة، وفي أحيان أخرى يسود صمتٌ أكثر إثارةً للقلق من الضجيج.

أمكنها النوم لساعة، ربما ساعتين على الأكثر، قبل رنين المنبه. كانت جفونها ثقيلة، والخروج من تحت البطانية الصوفية البيروفية إلى البرد القارس جعلها تشعر أنها في العراء تقريباً. ولأنها كانت تخشى من غواية الفراش الدافئ، ذهبت إلى الحمّام وملأت الحوض، وغمرت وجهها في الماء البارد خلال دقيقة وهي تحبس أنفاسها.

سخَّنت ماءً على الموقد في المطبخ، شربت شاياً دون سُكَّر، وعندما فتحت الدولاب شعرت بالحنان تجاه أمها التي كوت بلوزة المدرسة وقامت بتنشية العُنق قليلاً. رغم أنها كانت تحب ملمس هذا النسيج على صدرها، إلا أنها فضَّلت أن تلتزم بالجدّية وترتدي حمَّالة صدر. كانت تريد أن تبدو أمام اللجنة كفتاة ملتزمة، الطالبة المثالية في مدرسة راهبات، كأنما لم يكن لديها أيُّ طموح سوى اجتياز هذا الامتحان، لتبحث بعد الثانوية عن عملٍ بسيط كسكرتيرة في إحدى الهيئات الحكومية.

ستُرَوِّض تمرّدها كفنّانة. وبضربةٍ واحدة ستطفئ النيران المتّقدة في شرايينها نحو التخيّل الدائم لأفضل الخطوات، إن أصبحت بطلة باليه «رقصة المعبد». المُعلِّمات المُسنَّات سيرَين فيها طيفاً شاحباً وخانعاً، مصاباً بالبرد ومرتعداً، قطّاً مدللاً يطلب شيئاً من اللبن الدافئ والحنان.

توقَّفت أمام باب المدرسة لبعض الوقت وهي تحاول تهدئة الرعشة التي انتابتها فجأة. لم يكن الشتاء المعهود الذي يصبغ مدينة سانتياغو باللون الرمادي، في تلك اللحظة كان الصقيع يتغلغل حتى عظامها. كانت مفاصلها تؤلمها، كان ما بين حاجبيها يؤلمها، وثلاثة أخاديد تشق جبهتها. إن كانت الأسئلة قد مرَّت كلعبة طفولية بينما كانت عارية بجوار أنخيل سانتياغو، فإنها تبدو لها الآن كتالوغاً بالهيروغليفية التي لا تعرفها.

كانت اللجنة ستجتمع في الحادية عشرة في المكتبة، ولهذا السبب كان المُعلِّمون سيمنحون راحة للطالبات حتى منتصف اليوم. زميلاتها

سيستمتعن بهذه الهدنة وهنّ يصرخن في الفناء، وكان هذا يرعبها. ولابد أن مجموعتها المقربة ستتلصّص على صالة الامتحان وسيكُنّ شاهداتٍ على صمتها.

لم ترغب فكتوريا في حضور الدروس الأولى من اليوم، ولن يعتبر أي شخص أن عزلتها الروحية قبل الامتحان الحاسم لتفادي ترّهات الحصص خروجٌ على النظام. على الرغم من أن غرضها الحقيقي كان انتظار أنخيل سانتياغو. تخيَّلته وهو يقفز من سلّم الحافلة وبيده رزمة من الأوراق المالية المربوطة بشريطٍ مطّاطي، ثم يجري لعناقها، وهو يدور حول نفسه كراقصي الباليه، وذلك ما سيثير ضحك المُشاة.

هكذا سيخبرها ببهجة وثقة أنه حصل على المال من أجل مُدرِّبة الباليه. حينئذٍ ستدخل المكتبة على حالة من الهدوء والثقة، وستجتاز اختبار الثقة دون أن تحترق قدماها، ستنتصر في هذه الامتحان المليء بالعقبات، لأنه خطوة هائلة لكي تصل ذات يوم إلى خشبة مسرح البلدية. ستنفتح ستائره الثقيلة من القطيفة الحمراء وهي ستكون هناك، ثابتة تحت ضوء مصباح خفيف، في وضع الانتباه، في انتظار أن يُخفض قائد الأوركسترا عصاه.

حينئذٍ سيتحقق الحلم المجنون. ما إن تنطلق الموسيقا حتى تبدأ في الرقص «لنفسها»، ولكي ترقص لنفسها ستصبح أكثر من ذاتها. سيصبح كل تاريخ حياتها مُتجسداً في جسد في خدمة الموسيقا. دون غرور، وبتواضع، بينما تلوذ بروحانية سانتا تيريزا دي خيسوس، ستجد سكينة روحها في الحركة، وفي السكون ستُصبح حركة.

على الرغم من أنها أسرعت الخُطا لمرّاتٍ لا حصر لها بين باب المدرسة والطريق، لم تتحقق رغبتها في ظهور الشاب. جلست على دكّة محطة الحافلات التي تحميها مظلة بلاستيكية، وتحقّقت من أن الدقائق

تلتهم تفاؤلها، وأنها حفظت عناوين الصحف المعروضة في الكشك على الناصية.

في الحادية عشرة صباحاً، برغبةٍ في الوجود في إفريقيا أكثر من الوجود في مكتبة مدرستها في سانتياغو عاصمة تشيلي، جلست أمام اللجنة. رفعت مُعَلِّمة الرسم إبهامها وهي ترغب لها التوفيق، ووجَّه مُعلِّم الفيزياء السؤالَ الأول حول «الكَم»، وأجابت فكتوريا، وسُئِلَت حول الأميبا وردَّت بسلاسة، استفسروا عن إفرازات البنكرياس ولم تكن هناك أيّ مشكلة، وعرضت نظرية فيثاغورث دون نسيان الأضلاع أو المُربع أو الوتر، وفي رمشة عين ذكرت اسمي ابني أوديب، إيتيكوليس وبولينيس، وعرَّفت التوالد العذري بمنتهى السهولة، وأوجزت فِكر ستيفن هاوكينج في عبارة واحدة، وذكرت الاسم العلمي لأشجار السنط، وأن أمنحوتب هو المهندس المعماري لأهرامات مصر، وقالت إن أنور السادات ومناحم بيغين اقتسما جائزة نوبل للسلام، «لم يتم فتح ثامورا في ساعة واحدة»، قالها ثيربانتس، وامتنع مُدرِّس الرياضيات عن توجيه أسئلة، مؤقتاً، إزاء ما يحدث، لأن الفتاة كانت تردُّ بثقة وتدافع عن نفسها مثل قطٍّ ظهره للحائط، ولأنها كانت تربح نقطة بعد الأخرى، وكانت تعرف أن الأنسولين يُستخرَج من الخنزير، وأن مارتين لوثر هو مُترجم الإنجيل للألمانية. وتركَ دوره لمُعلِّمة اللغة الإسبانية، التي لم تسألها حول مُتلقِّين ومُرسلين، وإنما حول «أشعار لموت أبيه» لخورخي مانريكي. وفي تلك اللحظة انتبهت فكتوريا بونثيه بشدّة، لأن هذه القصيدة كانت قصيدتها المُفضلة في تاريخ الأدب العالمي، وبضمن ذلك أعمال نيرودا.

وبسرعة وثقة أخذت تردِّد القصيدة، وتتحدث عن الأنهار والبحار والألقاب الأرستقراطية والفلسفة الرواقية. كانت تفعل هذا وهي تشعر بدفءٍ من البطن حتى القلب، لأن المعرفة الحقيقية تدفئ، حتى طلبت منها

مُعلِّمة الإسبانية أن تتوقف عن ترديد أشعار مانريكي والتأمل في معاني الحياة والموت، وقاطعتها بصوتٍ بارد خشن أن هذه كانت مجرد تفاصيل، لكن «لنذهب إلى القيمة الشعرية للقصيدة»، قالت هذا بنبرة استجوابية غيَّرت جوّ الامتحان، وحسب رواية مُعَلِّمة الرسم، إيلينا سانهويثا، كان هذا ما حدث بالضبط:

- آنسة بونثيه، كم مجازاً وجناساً وكناية ومبالغة توجد في نص مانريكي؟ عرِّفي أيضاً نوع القافية المُستخدمة وحدِّدي موقف الصوت الشعري: هل هو تقريري أم تخاطُبي أم تأمُّلي؟

- لا أعرف يا أستاذة بيتزولد.

- ألا تعرفين أيَّ شيء ممّا سألتك؟

- للأسف لا، يا أستاذة.

- لكن يمكن أن تخبريني ما إن كانت الأشعار تحتوي على تكرار أو وصل أو تعميم...

- لا أعرف يا أستاذة.

- لكن يمكنك، على الأقل، أن تحدّدي الصوت الشعري.

- الشاعر.

- يا له من أمر لطيف. هكذا تخلطين بين مؤلِّف العمل والصوت الشعري، هذا النظام المكوّن من رموزٍ للنطق بالخطاب.

- أنا لا أخلط أيّ شيء يا أستاذة بيتزولد. إنه إنسان من لحم ودم، إنه خورخي مانريكي من يعاني وينزف سطراً بعد سطرٍ بالكلمات التي تُقدِّم الصور في عمله.

- يا للسذاجة والجهل والغرور!

- يا أستاذة، إن خورخي مانريكي ذاته من يتحدث عن موت «أبيه»

السيد رودريغو». هل تتذكرين عندما يقول: «لكن، بما أنه شخصٌ فانٍ، يُدخله الموت في كفنه»؟

- إنك وقحة. هل أنا من يمتحنك أم أنك أنت من يمتحنني؟

- معذرةً يا مُعلِّمة!

- ألا تعرفين أن جودة قصيدة ما تعتمد على استخدام الإيقاع؟ على سبيل المثال، إن كان يعتمد على استخدام مقاطع صوتية طويلة ثم مقاطع صوتية قصيرة أو العكس. كم من النصوص العظيمة في لغتنا حظيت بالخلود لمجرّد أنها مكتوبة بأحد عشر مقطعاً.

- معذرة يا أستاذة بيتزولد، لكنني أبكي موت أبي منذ سنوات، ولا يخفِّف همّي أيُّ مجازٍ أو مقطعٍ طويل أو قصير ولا الوصل. عندما يَعلم خورخي مانريكي بموت أبيه يهجر المدينة ويعتزل في قلعة حيث يكتب القصيدة من وحي ألمه العميق.

- يا بنتي، كل هذه أمور جيدة، لكنها مجرّد ترهات تأريخية. أنا أريد منك تحليلاً أدبياً.

- معذرة يا مُعلِّمة، لكنني لن أقوم بأي خراء من التحليل للصوت الشعري. القصيدة أجمل بكثير من هذه القاذورات.

بما أن كلمة «خراء» لم تُنطق من قبل في مكتبة المدرسة، بدا أن الكلمة قد تضخَّمت في القاعة وظلَّت مُعلَّقة في الهواء.

لم يساهم في تبديدها الصمتُ الذي ساد بين أعضاء اللجنة، ولا الخجل الذي أشعل وجنة مُعلِّمة اللغة الإسبانية، ولا البهجة الصامتة لمُعلِّم الرياضيات الذي حكَّ أنفه، ولا صخب التلميذات في الفناء الذي كان يبدو كصفير خلف الستائر الثقيلة. ساد الصمت لبرهة طويلة، إذ حبس الجميع أنفاسهم، وجفّفت فكتوريا بونثيه عرق راحتيها المفاجئ في ركبتيها.

قالت المديرة وهي تغلق دفتر الملاحظات:

- لا يوجد أيُّ شيء آخر يُمكن أن يُقال.

نهض أعضاء اللجنة شاعرين بالراحة، والمدخّنون الشرهون وضعوا السجائر بين شفاههم لكي يشعلوها فور خروجهم من القاعة. وفي تلك اللحظة رفعت مُعلِّمة الرسم إيلينا سانهويثا يدها.

- أطلبُ الكلمة يا سيدتي المديرة.

- لا يا أستاذة سانهويثا.

- وفقاً للائحة التعليم...

- لا تُصرِّي يا إيلينا.

- أريد أن أقول فقط...

- مهما قلت، لن يُسجَّل في المحضر. لقد تم رفع الجلسة.

على الرغم من حجمها الهائل، هرولت السيدة حتى الباب وصَلَبت جسدها عليه لتسُدَّ مصراعيه وتمنع اللجنة من الخروج. صاحت بحدّة كبيرة:

- «منتهى الغباء أن يتعلَّم المرء ما سيُنسى بعد ذلك»، لست أنا من يقول هذه الكلمات، وإنما إيراسموس دي روتردام.

لمست المديرة ذراعي المرأة المفرودين باحتقار، وقالت بصوت سلطوي:

- معذرة!

- في هذه القاعة تم التضحية بفتاة على مذبح آلهة الظلامية والعناد.

- هذا يكفي يا أستاذة سانهويثا. أنزلي ذراعيك!

أذعنت المرأة باستسلام، وبعينيها الذاهلتين رأت كيف يخرج أعضاء

اللجنة عبر الباب. بعد ذلك اتجهت إلى فكتوريا بونثيه وأمسكت بوجنتيها لترفع رأسها.

- كنتِ جيّدة للغاية يا فتاة!

أخذت الفتاة في حفظ أوراقها داخل الحقيبة، وعندما انتهت ظلّت جالسةً في سكونٍ تامّ. على الرغم من أنها لم تكن راغبة في النظر إلى أيّ نقطة، انجذبت عيناها نحو صورة غابريلا ميسترال: الشعر القصير، أنف مرفوع، عينان تدعوان للغوص فيهما. وحولها مئات الكتب في أغلفة فاخرة من حِقبٍ أخرى. وبعيداً، ساعة قديمة من بدايات القرن يوشك عقرب الدقائق فيها على الوصول إلى منتصف النهار.

23

- يا فتى، لقد دقَّت أجراس الكاتدرائية الثانية عشرة.

- أعتذرُ يا مُعَلِّم. كان هناك الكثير من الكلاب في مكتب العمل، لكن لم تكن هناك قطعة لحم واحدة.

- حكايات الكلاب لا تهمّني. كيف سارت أمورك أنت؟

- ممتاز يا دون نيكو.

وقدَّم له الشهادة ذات الأختام الكبيرة. قرأها بيرغارا غراي في غمضة عين ووضعها على ظهرها فوق المائدة دون كثير من البهجة، واستقرَّت بجوار فنجان قهوة فارغ.

- إن هذا يُعتبر فشلاً. لم تحصل على أيّ شيء.

صاح الفتى وهو يسند ظهره على المقعد بوقاحة، ويحكّ قفاه بسعادة:

- لا شيء على الإطلاق.

- وماذا يبهجك إذاً؟

- ألا تدرك يا بروفيسور؟ لا يوجد أمامنا طريق آخر سوى الضربة.

أتى الرجل بإشارة للنادل لكي يأتي ليقبض.

- أعذرني إن لم أدعُك على قهوة. شربت خمسة منذ ذهابك. ضغطي وصل إلى السماء.

- ألم تنتهز الفرصة لقراءة الطالع في ثمالة القهوة؟ كان هناك عجوزٌ عربيّ يقرأ الطالع في فنجان القهوة في السجن. دعني أرى فنجانك!

دون انتظار الإذن، قرَّب الفنجان من أنفه وحرَّكه قليلاً، ثم حاول التعرُّف على هيئةٍ ما تتيح له إصدار حكمٍ.

- أرى الكثير من المال في مستقبلك.

- للمرّة الخامسة اليوم، لا تعتمد عليَ يا أنخيل سانتياغو!

- أراك في بلد آخر وأنت تدخن سيجاراً كوبياً وتتنزه في سفينة برفقة فتاة جميلة.

أعطاه النادل الإيصال، وقال له بيرغارا غراي أن يحتفظ بالباقي.

- وماذا يقول فنجان القهوة أيضاً يا علاء الدين؟

غمغم الفتى بنظرة متواضعة وابتسامة خبيثة:

- أنك ستقرضني ثلاثين ألف بيسو.

كان الرجل قد نهض. ارتدى القبعة من الجوخ الرمادي التي تحمل ريشة تحت الشريط الأخضر، ثم لفَّ عنقه بكوفية من الكشمير الأسود. نهض الفتى أيضاً بمحيّا كئيب.

- الجو بارد لدرجة أنه يصل إلى الكبد. ألا تمتلك معطفاً؟ كوفية؟

- أمتلك.

- استخدمها إذاً يا أحمق! أم أنك تريد أن أزورك في المستشفى العمومي في صالة المشرّدين؟!

- هل ستفعل هذا من أجلي إن سقطت مريضاً؟

- إنك بالغ ويجب أن تكون مسؤولاً عن تصرفاتك. الشتاء التشيلي يحتاج إلى معطفٍ وكوفية.

- أنا أرتدي سترة جلدية دائماً. في الشتاء أو الصيف. ماذا تقول بشأن القرض؟

كانا قد أصبحا في الشارع، وشعر أنخيل أن بيرغارا غراي لا يعرف أيَّ طريق يسلُك. توكَّد لديه هذا الشعور عندما أخرج سيجارة وحمى شعلة الولاعة بالكوفية، ثم أخذ النفس الأول عميقاً بهدوء.

- لماذا تريد المال يا صغير؟

- يجب أن تدفع فكتوريا مصروفات دروس الباليه اليوم. بخلاف هذا لن تسمح لها المدرِّبة بالدخول مرة أخرى. وستنتحر أو تموت.

- يجب أن أعترف لك بأمرين.

- تحدَّث يا بروفيسور.

- أولاً، من أجل الحصول على هذا المال المُقترض كان يجب أن أدوس على كبريائي الذي لم أستعِده كاملاً بعد. وأخشى أن أراه يتبخّر بين أصابعي.

- سأردّه لك مُضاعفاً.

- ثانياً، لا أصدِّق حكايتك بشأن دروس الباليه.

- أي أنك لا تثق بي يا مُعلِّم.

- أثق بك، لكنني لن أربط كلبي بالسجق. أودّ مساعدة التلميذة، لكن دون وسطاء.

- ماذا يعني هذا؟

- اذهبْ بي إليها وأنا سأعطيها المال مباشرة.

تعلَّق أنخيل سانتياغو حرفياً بعنق بيرغارا غراي، وطبع قبلتين حارّتين على كلّ وجنة.

أبعده الرجل وهو ينظر يمنة ويساراً في الوقت ذاته.

- توقّف عن تقبيلي يا فتى! ماذا سيقول الناس؟

- إننا أبٌ وابنه يا دون نيكو - صرخ الفتى مُبتهجاً، وطبع قبلة سريعة كالسهم على جبينه.

وارى بيرغارا غراي خجله خلف الكوفيّة وهو يأخذ في السير باتجاه ألاميدا:

- هيا بنا نبتعد عن هذا المكان بسرعة!

اتبعه مرافقه خلال أربعة أو خمسة مربّعات سكنية بإيقاع جيد، لكنه سار بجانبه في النهاية وقال له:

- يا بروفيسور، يمكنك إضافة خمسة آلاف لقرض الثلاثين ألفاً، سأدعوك لركوب تاكسي.

- كم تبقّى على الوصول إلى المدرسة؟

- سيراً على الأقدام ساعتين، وفي التاكسي خمس عشرة دقيقة تقريباً.

- لدينا مالٌ قليل. يجب أن نحافظ عليه.

- مِثلُ أمثولة النملة والزيز والصرصور.

- بالضبط. الفارق أن الشتاء قد حلَّ علينا ولا نمتلك أيّ شيء من المؤن.

- لا تتقيد بها حرفياً! تخيَّل أن الأمثولة مجرّد مجاز.

- لا أعرف عمّا تحدثني.

- سأحاول إيضاح ما أقول: العمل الذي قامت به النملة هو خبرتنا في

الحياة. وعلى نحو ما قمنا بمراكمة الخبرات حتى أصبحنا على هذا الحال الآن. نحن أنفسنا نُعتبر المؤن. لا ينقص سوى أن نفتح الباب وستظهر كلّ عجائب العالم.

توقَّف اللص العجوز أمام عربة فول سودانيّ، واشترى من البائع الذي كان يرتدي مئزراً أبيض كيسين من الفول السوداني المُحمَّص. قضم حبَّةً، بصق القشرة ومضغ الحبيبات الثلاث التي كانت بداخلها دون أن يزيل القشرة الحمراء.

- إنه ساخن.

طحن الفتى القشرة الخارجية بين أصابعه ووضع الحبيبات فوق لسانه.

- ما رأيك في الاستعارة يا بروفيسور؟ هل فهمت الحكمة من الأمثولة؟

- كل الحكايات تنتهي بالحكمة ذاتها: يجب أن نُنفِّذ ضربة القزم ليرا. وكل إجاباتي مجرّد تكرار مُهذّب: لا. وإن كنت تُفضِّل أن أقولها باللهجة التشيلية: «بعيد عن شاربك!».

- حسناً يا بروفيسور. لا أريد أن تغضب مني، فكتوريا تحتاج إليك الآن بقدرٍ لا تتخيّله.

- نحن نعمل على هذا يا فتى، نحن ذاهبون لنجدتها، وفي الوقت ذاته نُقلِّل من حجم هذا البطن مع التمشية.

- أخشى أن نصل متأخرين. لم أصل إلى المدرسة قبل الامتحان بسببك...

- بسببي أنا؟

- بسبب هوسك في أن أذهب للحصول على عمل. هل تعرف ماذا اقترح عليَ الموظف!؟

- ماذا؟

- أن أحصل على عربة لبيع الفول السوداني.

- فكرة عظيمة. لقد رأيت أنني دفعت ستمئة بيسو مقابل كيسين. تخيّل أنك تبيع عشرين كيساً في الساعة، خلال ثماني ساعات على الأقل. ستكون ستة آلاف بيسو يومياً، مئةً وثمانين ألف بيسو شهرياً، مبلغ يحصل عليه الوزير، ولا تتعرّض لخطر دخول السجن بتهمة سرقة المال العام.

توقَّف الشاب وألقى كيس الفول السوداني غاضباً تحت قدمي الرجل. وبنظرة سريعة أدرك الرجل مشاعر الفتى، وبإذعان وتواضع التقط القرطاس ووضعه في جيبه.

- إن عثرت على من يدعوني إلى كأس ويسكي الليلة، سيكون لديّ شيء آكله.

أوقف تاكسي، وإزاء خيار باب السيارة المفتوح أو الانسحاب المهين من المشهد، اختار الفتى ركوب العربة -باسم الحب- وأحنى رأسه كأنما ليخفيه بين كتفيه، بشفتين متوتّرتين وتعبّران عن اللهفة.

- ماذا تعتقد بشأن أداء تلميذتك في الامتحان؟

زفر الفتى وقال.

- جيد. يجب أن يكون أداؤها جيداً أو جيداً، لأنها لا تمتلك مخرجاً آخر في الحياة.

- في عمرك تُقال عبارات مبالغة. لكن عندما لا يجد المرء مخرجاً عبر الباب الرئيسي، يمكن أن يعثر دائماً على ثغرة ينفذ منها.

- إنك تكتفي بالقليل يا بروفيسور. لكن أنا وفكتوريا لسنا من أصحاب النفوس الوَجِلة.

- ماذا؟

- النفوس الوَجِلة.

- لحسن حظك أنني لا أعرف ماذا يعني هذا، لكن حدسي يخبرني أنني يجب أن أكسر أنفك بلكمة. من أين تأتي بهذه الكلمات الغريبة؟

غطى الفتى أنفه بيده، ثم كشفه كأنما التهديد قد تحقّق ويريد التأكد من النزيف. بعد ذلك توَّقف أمام صورة العذراء التي كان السائق قد علَّقها في المرآة العاكسة.

- كان أحد مدرسيَّ يقول إننا -نحن التشيليين- لدينا حصيلة لغوية لا تتجاوز المئة مفردة. كان يجعلنا نقرأ كتباً، وكلما تعثرنا بكلمة لا نفهمها نقوم بكتابتها مئة مرة ونبحث عن معناها في المعجم.

- لقد نسي هذا العجوز بابلو نيرودا!

- هذا واحد.

- وغابريلا ميسترال.

- سيكونان اثنين. ولا يمكن أن نَعِدَّ أكثر من هذا.

- يوجد معلّقو كرة قدم فصحاء للغاية. قبل أيام وصف أحدهم هدفاً لـ «كولو كولو» بالألمعيّ.

- لابد أنه كان يريد أن ينطق بكلمة «ألمعيّ».

- وعندما كان هيريرا على مبعدة متر واحد من المرمى ولم يحرز هدفاً تحدَّث باللاتينية.

- ماذا قال؟

- هيريرا، هومانم إيست.

بينما كانا يبعدان عن وسط المدينة، كان الطقس يطرد الناس من

أحياء سانتياغو. أعداد كبيرة من البيوت الكئيبة ذات أسقف صدئة، أحياناً يحاول مُلَّاكها إضفاء شيء من البهجة عليها بطلاءٍ أصفر وأطر نوافذ بنفسجية. كانت المدينة تصبح أكثر حميمية بالنسبة لهما كلما كانت أكثر قُبحاً. كانت ضواحي المدينة، لكنها لم تكن وجهتهما. فكَّر كيف يمكن أن يطلب من بيرغارا غراي ألف بيسو أخرى دون أن يبدو وقحاً. كان يريد شراء علف وجزر لحصانه. تنهَّد بينما يُفكّر: «حتى هذه اللحظة نُشكِّل عائلة مفكّكة».

عندما أصبحا بجوار المدرسة جابا معا المقاهي ومحطات الحافلات والمتاجر، وأيضاً الميني ماركت. لم يعثرا على أثر لها، ولهذا قرّرا أن أفضل شيء هو دخول المدرسة مُتعلّلين بأيّ سبب. اقترح بيرغارا غراي أن يدَّعيا أنهما من موظفي البريد، وأنهما يأتيان بحوالة قدرها ثلاثين ألف بيسو للفتاة من أحد أقاربها في الجنوب. رأى أنخيل أن الفكرة جيدة، ووصلا حتى قاعة المُعلِّمين بالأوراق الزرقاء كجواز سفر.

كانت معلِّمة الرسم هي الشخص الوحيد في ذلك المكان وسط العتمة الشتوية. كانت جالسة تحت المصباح تماماً، وكانت تكتب شيئاً ما في مفكّرتها وهي تبكي. ذهبا إليها وابتسم لها أنخيل:

- هل تتذكّرينني يا مُعلِّمة؟

أنزلت المرأة نظّارتها على أنفها وتفحّصت الرجلين كأنها تخرج من غيبوبة.

- أتذكّرك؛ لكنّني لا أتذكّر الفتى الوسيم الآخر. لكنّه يقع مني موقعاً حسناً من أول نظرة. إنه يشبه الممثل الأرجنتيني فيديريكو لوبي، بهذه الشعيرات الشيباء الجذابة على فوديه وشاربه الرمادي. ما اسمك؟

- «نيكولاس». اختصر الرجل اسمه ليحمي نفسه.

أراد أنخيل رؤية ما كانت المُعلِّمة تكتب، وعندما لاحظت هذا أعطته الدفتر.

- اقرأ. إنها استقالتي!

- ماذا حدث يا مُعلِّمة؟

- لم يحدث لي أيّ شيء. لكنّهم حطَّموا خطيبتك المسكينة.

- في الامتحان؟

- نعم يا صغير.

- لكن هذا غير ممكن. لقد استعدَّت جيداً!

نظر الفتى متوسِّلاً إلى بيرغارا غراي، كأنه يمتلك قدرة ما على تكذيب أقوال المُعلِّمة. لكنه اكتفى بفتح راحتيه تعبيراً عن العجز.

- وأين هي الآن؟

- في أيّ مكان في سانتياغو، مبتلّة كطائر غريون. أم أن المطر قد توقَّف؟

- المطر يسقط بشكل مُتقطع. ألا يمكنك أن تعطيني إشارة عن المكان الذي اتجهت إليه؟

- أخشى أن يكون أيّ مكان حيث يمكنها أن تُلقي بنفسها. جسور نهر مابوشتو، مبنى شركة تيليفونيكا...

- ولم تفعلي أيّ شيء؟

- لم أفعل أيّ شيء! أنت لا تعرفني أيها الوقح. أنا أكتب استقالتي قبل أن يفصلوني بتحقيقٍ إداريّ.

نهضت وألقت الدفتر فوق السجادة. كانت السنوات قد أفسدت نسيج صورة النمر الفارسي الذي يتوسّطها، وكانت بعض البُقع الملونة تمنع رؤية أعين بضع فتيات ينظرن إليها بإعجاب.

سأل بيرغارا غراي:

- كيف ستعيشين يا مُعلِّمة إن قدّمتِ استقالتك؟

- سأحصل على عمل ما. في مكتب العمل، أو ربما في الأقاليم.

- هل ترينني شبيهاً بلوبي بالفعل؟

- كبير الشبه، لكنّك أكثر بدانةً إلى حدٍّ ما.

- هذا بسبب حياة الخمول.

- آه! ماذا تعمل؟

بحث الرجل عن إلهامٍ في صور المشاهير المُعلَّقة على الجدران، وبعد ذلك أخفض نظرته ببراءة.

- أنا مُقرِض.

- هل تربح الكثير من هذا العمل؟

- حسناً، حتى هذه اللحظة أقوم بالإقراض فقط، لكنني لم أقبض بعد.

- لابدّ أن لديك رأس مالٍ جيداً!

- لا تظنّي هذا. أفتقد للمال، لكنْ لديّ فائضٌ من الصبر.

نظر إليه أنخيل سانتياغو بحدّة، ثم أشار نحوه بسبابته بوقاحة.

- إنه يتعفّن في صبره، يا سيّدة سانهويثا، صبر الدودة التي تأكل جثّة مدفونة.

- وماذا تريد أن أفعل يا فتى؟

- لا أعرف ماذا ستفعل، لكنني سأجوب سانتياغو حتى أعثر على فكتوريا. هل تعتقدين، يا أستاذة، أن مكروهاً قد أصابها؟!

- الشيء الوحيد الذي يطمئنني هو وجود الرقص في حياة هذه الفتاة، وهو سبب جيد للعيش.

- كان لديها الرقص يا أستاذة. لنُسرِع يا سيّد نيكو!

قبَّل الفتى وجنة السيدة إيلينا، ورفع بيرغارا غراي ذارعها الأيمن وقبَّل يدها اليُمنى بأناقة. غاصت في الأريكة تحت منفذ الضوء تماماً، ربما بأمل أن تنفتح السماء ويتسرَّب شعاع شمس. عندما وصل إلى الباب شعر الفتى أن القاعة كانت أكبر وأكثر برداً في تلك اللحظة. شعر أنه قريبٌ للغاية من المُعلِّمة، وأراد أن يحملها إلى أي مكان لحزنها. ثم فكَّر «أُخرجها من هذا المكان! ماذا سأعرض عليها؟ أن تجوب شوارع سانتياغو دون أمانٍ أو موارد؟».

ناداها برقّةٍ قبل الخروج من القاعة. وضعت نظارتها جيداً لكي تراه عن بُعد، ووضعت يداً كالحلزونة على أذنها لكي تسمعه بشكل أفضل. قال لها أنخيل:

- تبدين لوحةً لهوبر في جلستك هذه، يا مُعلِّمة!

24

المسارات وسط سانتياغو مثل متاهة. أقبية صغير كمتاجر، تبدو واجهاتٍ لشيءٍ سرّيّ. المدينة هناك لا تخصّ أي شخص. لا توجد سوى حركة مُستمرة من البؤس والحقارة. كل شيء وضيع وجنسيّ. الصيدليات التي تبيع العقاقير التماثلية ومُصلحو الأحذية. وكالات اليانصيب وسباقات الخيول. واجهات محالّ فيها ملابس داخلية نسائية. واجهات فيها توابل شرقية يبيعها لاجئون من بيرو. ألعاب من هونغ كونغ. طائرات بلاستيكية لها خراطيم أفيال. قعّادة للأطفال عليها ابتسامة ميكي ماوس. مبيدات للحشرات بجوار المراوح. شرائط فيديو عليها صور ساموراي. محالّ لبيع أدوات الخياطة بها شرائط للعرس. شحاذون يعرضون مناديل ورقية للأنوف المزكومة. جونيلات قصيرة للغاية توشك على الانفجار فوق أرداف ممتلئة. رجال وسيمون يدخّنون سيجارة أبدية في انتظار وقوع ورقة مالية من شخص ما وهو يشتري مجلة. محلات زهور تبيع أكاليل رخيصة للموتى المشردين. نصّابون يلقون ثلاث عملات فوق بلاط الرصيف، ثم يدوسون على إحداها بأحذيتهم ويطلبون الرهان على مكانها. ورش لإصلاح عجلات الدرّاجات المثقوبة. عدد لا نهائي من الصيدليات التي تبيع أعشاباً للكبد والسيلان، وعلاجات لحصى الحالب ولزيادة حجم

البروستاتا. وفي وسط كل هذا، توجد سلالم مُغطّاة بسجاجيد كانت سميكة وأنيقة في زمن ماض، وهي تقود إلى سينمات العرض المُستمر، التي تبدأ في العمل قبل ساعة الغداء. عروض لمن يشعرون بالوحدة وللعاطلين، لمُتساقطي الأسنان والهاربين، لمحبّي أفلام الفنون القتالية وأفلام السويديات اللائي يمتطين قضباناً إفريقية في مكانٍ سياحيّ ما على ساحل البحر المتوسط.

سألا عن فكتوريا في الكوافير المواجه للسينما وأعطوا أوصافها. لم يروها، وإن كانوا قد رأوها فلن يقولوا، لأن الناس هناك كتومون إلى حدٍّ كبير، كلّ شخص يهتم بشؤونه فقط. صبغة ثابتة للغاية للشعر الأسود مقابل ألفي بيسو للرجل، ولحضرتك قَصَّة شعر حيث تكون الأطراف منتصبة فوق الرأس، والكثير من الفازلين مُثبّت الشعر مُقابل ألف وخمسمئة، وفي الجزء الخلفي من المحلّ يوجد تدليك من نوعين، المُحترم والكامل، تقوم به فتيات من الخامسة والعشرين حتى الأربعين، والسعر حسب العُمر؛ كما يوجد تدليك للرجال يقوم به رجال.

ترك بيرغارا غراي الحديث ينساب، لأنه قد يحصل في المنتصف على إشارة حول مكان الفتاة. كان يدرك أن الأسلوب البوليسي والسؤال مباشرة يُفزعان المُرشدين المُحتملين، وكان يتفهَّم تماماً نفور الناس من الفتيان الأذكياء الذين يُكثرون السؤال. في أثناء ذلك كان أنخيل ينظر إلى لافتة فيلم اليوم: «جنس في الغابة»، وكان يعِد بألعاب بثمار الجوز والموز، غوريلا هائلة يصبح كينغ كونغ قزماً بجوارها، وعصابات من الهولنديين الذين يخطفون فتيات لاستغلالهن في بلدان عربية. قال لبيرغارا غراي إنه سيدخل فقط ليرى ما إن كان سيجد الفتاة. وطلب منه أن يمنحه خمس دقائق حتى تعتاد عيناه على العتمة، وألا يرحل لأيّ سبب من الأسباب، لأنه كان يعتمد تماماً على المال من أجل دروس الباليه. «الوعدُ دَينٌ!»،

قال المُعلِّم، ودخل متجراً للمجلات لتصفُّح نسخةً من مجلة «ستاديو» تعود لزمنٍ سابق حين كان كارلوس كامبوس يطيح الضربات الركنية على شكل«U» برأسه.

لم يسأل موظف بيع التذاكر عنها، وقبل الدخول قام الموظف بوضع علامة على التذكرة بنفسه، بينما يقول إن زميله الذي يُرشد المشاهدين إلى مقاعدهم لم يأتِ للعمل بسبب الإنفلونزا الشهيرة. أخبره أن يجلس في الصف الأخير ثم يبحث بعد ذلك عن مكان أفضل.

كانت درجة حرارة السينما في ذلك اليوم أكثر برودة من الشارع. كانت مروحةٌ تدور في السقف لكي تبدِّد الروائح الكريهة وليس لكي تُلَطِّف الجو. كان الفيلم معروضاً على شاشة قديمة، من تلك المُربعَّة، وخطوط الصورة تتسق مع صرير شريط الصوت. كانت هناك امرأة شقراء ضئيلة النهدين داخل كوخٍ مُضاء بشعلة، كان شعرها غزيراً وتُمسك بثعبان وهي تُحاول إدخاله في جسدها بدلال يائس. كان هناك شابان يرتديان بنطلونات قصيرة، شعرهما مُجعّد ويدُ كلٍّ منهما فوق عضوه، بينما يلعبان فتح السوستة وغلقها، ويوحيان بالشعور بالإثارة إزاء أداء الممثلة التي كانت تُمسك الوحش بيدٍ وبالأخرى تتضرّع لهما لكي يُقرِّبا قضيبيهما.

لم تكن الشاشة تعكس ضوءاً. كانت نسخة داكنة، وبينما كان الفتى يتفحّص شاغلي القاعة أدرك سبب العتمة الكاملة. أمكنه أن يميّز في الصفوف الأمامية عُشاقاً متعانقين ويتبادلون القُبل الطويلة، ونساء بمفردهن أيضاً. النساء كُن يتحرَّكن ليجلسن بجوار رجلٍ أو سيدة وحيدة. كانوا يتبادلون بعض الكلمات والحلوى والسجائر، وفجأة يبدؤون في الملامسة الجسدية التي كانت تحملهم إلى الإثارة والتأوّه. إحدى تلك النساء اللائي كنّ ينتقلن من صف إلى آخر جلست بجواره، ودون أن تتوقف عن النظر للشاشة وضعت أمام صدره علبة صغيرة.

- هل تريد «تشيكلس»؟

- «حسناً». قال أنخيل.

أخذ واحدة وانتشر مذاق النعناع لماركة «آدامز» على لسانه. وضعت المرأة يداً على ركبته.

- هل هي مرَّتك الأولى هنا؟

- نعم.

- هل تعرف الثمن؟

- لا.

- أدعك تمسك صدري وتدخل أصبعاً في فرجي مقابل ثلاثة آلاف بيسو. اتفقنا؟

- هنا؟

- لا أرتدي أي شيء تحت المعطف. السروال وحمالة الصدر في الحقيبة. دائماً ما أحمل مضغة بمذاق النعناع لأن الزبائن هنا كريهو الرائحة، يُحبُّون الخمر كثيراً.

- اسمعي، في الحقيقة لم آتِ إلى هنا من أجل هذا.

- هل ستقول لي إنك من مُحبّي الفن السابع؟

- إنني أبحث عن شخصٍ ما هنا.

- من؟

- أختي. قالت إنها ذاهبة للسينما ولا أعرف ما إن كانت موجودة هنا.

جلس رجل ضخم الجثة في طرف الصف، وأصدرت زنبركات المقعد صريراً تحت ثقله.

- من يأتين إلى هنا عاهرات فقط. ابحث عن أختك في الكنيسة. إنها على الناصية.

- الأمر يتعلق بمشكلة خطيرة. يجب أن أعثر عليها وأخبرها أن أمنا مريضة.

أشعلت المرأة عود ثقاب، وبالشعلة الضعيفة نظرت إلى ملامح وجهه جيداً حتى حرقت النار أطراف أصابعها، فرمت العود المتكلس على الأرض.

- إنك وسيم يا فتى.

- لا تقولي هذا من فضلك!

- هل تحبّ الصنف الآخر؟

- أنا؟ أنا مهووس بالنساء.

- انتهز الفرصة إذاً يا صغير! سأدعك تُقبِّلني وتعضَّ حلمتَيّ.

- في الحقيقة أنا مفلس.

ابتعدت المرأة وهي تشعر بالإهانة، وهزَّت بضعة سوارات مذهبة اللون تزين معصميها.

- في الحقيقة أنت تعتبرني عجوزاً.

- إنني لم أرك بعد.

- المس نهديَّ الكبيرين. ليسا مثل نهدي الفتاة في الفيلم، اللذين يبدوان كحبّتَي عنب.

بحركة مفاجئة أمسكت بيد الفتى ومرّرتها على صدرها.

- إنهما ثريّان.

- وصُلبان. هل انتبهت لهذا؟

- نعم.

- سأتركك تأكلهما مقابل ألفي بيسو. كلّ الوقت الذي تريد.

- لقد قلت لك إنني لا أمتلك مالاً. إنني مُفلس وعاطل.

نهضت ومرَّت بلسانها على شفتيها، ثم ضغطت بأصبعها على أنفه كأنما تنهره.

- سينمات الشواذّ توجد في شارع كاتيدرال. لا تأتِ إلى هنا مرّة أخرى.

ذهبت لتجلس بجوار الرجل ضخم الجثة، وسمع أنخيل سانتياغو جزءاً من الحوار المعتاد الذي تعرض به مضغةً بمذاق النعناع. ابتعد عنهما واحتلَّ المقعد الأخير في الجانب المواجه، وأراد تمييز ملامح العشرين أو الثلاثين شخصاً الموجودين في القاعة. بدا أن الأشخاص المنفردين القليلين كانوا يتلصّصون عليهم بفضول الطلبة أكثر من متابعتهم للفيلم. إضافةً إلى العشاق، كان هناك أيضاً موظف ما ينام قيلولة قصيرة. العناق والقُبَل ذاتها في كل مكان وسط العتمة الرطبة. في البداية ظن أنه عثر على فكتوريا عندما استند جسد فتاةٍ بإرهاق على ظهر مقعدٍ بعد خمسة صفوف، وغاصت رأس الرجل ذو القبعة الذي كان يتفاوض معها في حِجرها. ثم جاءت بإشارة باليد وأطاحت بشعرها فوق الجزء الخلفي من المقعد، وانقشعت شكوك أنخيل. ثم عاد رأس الرجل للظهور، وعلى الرغم من المسافة والعتمة لم يكن صعباً إدراك أنه كان يلعق حلمتيها أو يغوص بأنفه في بطنها.

«فيمَ يعنيني هذا؟»، قال لنفسه بينما يُطيح بالدموع والمخاط اللذين انفجرا في وجهه. «فيمَ يعنيني كلّ هذا الخراء؟»، قال لنفسه مرة أخرى، بينما يتلوَّى في المقعد كأنما تلقَّى ضربة مرزبة في كبده.

لكن، عندما نهض من المقعد وتقدَّم عبر الممرّ، أنبأته أحشائه أنه سيطلق الرصاص إن كان يحمل مسدساً، وإن وضعت السماء مدية في يده فسيقوم بالذبح، وإن كان يحمل مثقاباً في يده فسيثقب رأس الخنزير الذي يتلاعب بها.

كان يرفع ظهره مستنداً على المقعد الأمامي وهي تُخفض فمها نحو بنطلونه. بعد بضع ثوانٍ، بفضل الحركة التكرارية لرأسها، أدرك أنها أدخلت عضو الرجل ذي القبعة في فمها وأنها تداعبه بلسانها لدرجة أن الرجل قد كبح تأوهاته لكيلا يصرخ من المتعة. شعر بالأسف لأن يديه كانتا مصابتين بالشلل الذي ينزع عنه قوّته في تلك اللحظة. لا يمكنه خنقه. لم تكن هناك قوة في أصابعه المتقلِّصة بسبب المهانة، ولهذا لم يكن قادراً على الضغط على عنقه حتى خنقه. اتَّجه إلى مكانهما، وحينئذ رأى كلّ ما خمَّن من قبل بأبعادٍ أكثر حضوراً من الصورة على الشاشة، بهذا الصخب الحقير للتأوّهات المحسوبة بشكل احترافيّ لإخفاء غمغمة الإفرازات التي كان المشاهدون يتبادلونها مع عاهراتهم.

وفي ظرف لحظة أصبح فوق رأسها وشعر بالألم جليّاً. لم يكن باستطاعتهما رؤيته، سواء الرجل بعينيه المغمضين بينما يُركِّز في نشوته، أو الفتاة التي تجتهد في الإسراع في حركاتها لتنتهي من مُهمّتها.

حينئذ جذب شعر فكتوريا بقوة من ينزع جلده شخصياً، وانفجر مشهد البؤس بالكامل أمام عينيه: قذف الرجل المجهول على جبهة الفتاة ومعطفها وظهر المقعد وعلى شفتيها المحمرّتين بفعل الاحتكاك مع قضيبه.

أخرجها جرّاً من شعرها حتى الممرّ، وبينما كان يفعل هذا صدرت عنه الصرخة التي عجز عنها قبل دقائق كعواء حيوان.

كان شيئاً أكبر من الحنق والتقزّز، أكثر بكثير من الحب والحنان المهانين، بشكل لا نهائي، أكبر من الغضب الكامل من العالم ووحوشه، ولأبعد مدى أكثر من الغضب على الذكورة الغيورة الملوثة في الوحل، أكثر إصابةً بالعمى من الدم المحتقن في عينيه.

كان يُفضِّل أن يُصاب بالعمى على رؤية هذا، أن يكون أصمَّ قبل سماعه، أن يكون غير مكترث وبارداً كالجليد لكي يتركهما يواصلان تجارة اللعاب والسائل المنوي، كان يُفضِّل ألا يكون قد خرج من السجن، والآن، وسط اضطرابه، أدرك أن الحرية ليست إلا استكمالاً للعقوبة، أن لقاءه بفكتوريا بونثيه مصادفة لم يكن إلا حُكماً بالموت مختوماً ومؤكداً، ويعادل مواجهة فرقة الإعدام، حقنة الموت في الوريد، آلاف الفولتات التي كانت ستجعله ينتفض فوق المقعد الكهربائي، وهذا التنفس الذي لم يكن يحمل هواءً إلى رئتيه وإنما أطناناً من الغاز في غرفة الموت.

«إن الموت لا يؤلم المُحتضر كما يؤلمني. بمَ يفيدني أن أكون في العشرين من عمري وأن يكون العالم أمامي؟».

إزاء الصرخة المفزعة كان ردُّ فعل رواد السينما هو الاختباء في مقاعدهم، لأنهم كانوا يخشون أن يدهمهم رجال الشرطة السرية، أو فرق مكافحة المخدرات، أو دوريات الجنس مع الأطفال، والسلطات الصحية، أو مقرضون لديهم شيكات دون رصيد، أو زوجات غيورات برفقة مخبرين خصوصيين.

كانوا يخشون أن تكون الصرخة هي العواء الذي يُعلن عن وصول ملاك مُدمر، فارس مدرّع من القرون الوسطى مثل الذين يرونهم في أفلام تلك الشاشة، والذين كانوا يفتحون قلوب خصومهم بعد تدمير الدروع، أو ركلة من محارب شرقي شرس، تتجه إلى العنق تحطّم الشريان السباتي.

صعد أنخيل السلالم بقوة فوق طبيعية مفاجئة، وما إن وصل إلى لشارع حتى أصدر عواءً آخر فرَّق مصففي الشعر الفضوليين الذين تجمَّعوا لرؤية الضحية الممددة على الأرض، وبما تبقى له من قوة جرجر فكتوريا حتى تركها تحت قدمي بيرغارا غراي.

25

- ها هي ذي أمامك بشحمها ولحمها يا مُعلِّم، الآنسة فكتوريا بونثيه. أعطِها المال مباشرة!

اعتمدت الفتاة على ركبتيها وغطَّت وجهها بشعرها. كان رأسها منخفضاً ووجهها غير مرئيّ أمام أعين الفضوليين. انحنى الرجل ليعتني بها وحاول رفع ذقنها.

- يا إلهي، ماذا حدث لك يا صغيرة!؟

- «أريد الاغتسال يا سيّدي!». قالت بصوت يكاد يكون غير مسموع.

- انهضي وسندخل الكوافير. هناك سيعطونك ماءً.

- أريد الذهاب بعيداً عن هنا يا سيد نيكو.

- انهضي واستندي عليَ!

- لا أريد أن يرى أيّ شخص وجهي.

- حسناً. ليظلّ وجهك مُغطّى بالشعر ولنبتعد!

أطاعته الفتاة ولاذت بذراعه. أتى بحركة للحضور لكي يفتحوا الطريق، ورسم على وجهه تعبيراً كمن يطلب التَّفهّم للفتاة الجريحة. وهكذا سارا

ببطء كالمعاقين حتى مخرج شارع سانتو دومينجو، وكان أنخيل سانتياغو يتبعهما عن بُعدٍ بيديه داخل السترة الجلدية.

وخارج الممرّ كان ضغط الشمس قد فرَّق السحب المتجمعة، وكانت تلمع الآن بلونٍ أصفر مثير للتوتر ولا يوحي بالدفء. عندما أدركت فكتوريا بونثيه وجود الضوء بدا أنها تستعيد وعيها الكامل بجسدها، لأنها بدأت تنتفض وتنشب أظافرها في جلدها كضحيّةٍ مفاجئة لوباء.

- أنا بحاجة إلى الاغتسال.

- إننا نسير. سنجد مكاناً.

- إنك لا تفهمني يا سيدي. هذا أمرٌ عاجل.

حكَّت وجنتها، وعندما أبعدَتْ يدها انبثق خيط من الدم.

- اهدئي الآن! لا تتوتّري!

- أريد الاغتسال. أرجوك ساعِدني!

- اِستمرّي في السير يا فتاة. أعيني مفتوحة لربما ظهر صنبور مياه.

- يا سيد نيكو، إن لم أغتسل سأموت.

- لقد قلت هذا من قبل.

- أين هم؟

- من؟

- ناس الممر.

- ظلوا في الخلف.

- ألا يتبعوننا؟

- اطمئني. لقد ابتعدنا.

- أين يوجد القليل من الماء يا بروفيسور؟

أدخلت بضعة أصابع في فمها وحاولت التقيؤ دون نجاح.

- ماذا تفعلين يا صغيرة؟

- أريد التقيؤ.

- افعلي هذا إن استطعت.

انتفضت في محاولة للقيء دون أن تنجح في طرد السائل الذي كانت تشعر أنه يسد صدرها. أمكنها فقط أن تبصق مادة مائلة للصُّفرة.

تركها بيرغارا غراي بمفردها لكي تكون على راحتها، وعندما تغيَّر ضوء إشارة المرور في ناصية ميرافلورس مع سانتو دومينجو إلى اللون الأخضر، تسلَّلت الفتاة بين العربات والحافلات وأخذت تجري باتجاه سلسلة الجبال.

صاح الرجل:

- انتظري يا فتاة، لقد أتيت لك بالمال من أجل دروسك!

حركة المرور والمسافة منعا فكتوريا من سماعه. كانت تجري الآن كأنما توجد شحنات كهربائية في كلّ عصبٍ من أعصابها، كانت تتفادى المشاة، تتجاهل الضوء الأحمر للمشاة كأنها عمياء، لم تنتبه لأبواق الحافلات، ولا لصافرة شرطي مرور حاول لَفْتَ انتباهها، عندما أوشكت على الوقوع تحت إحدى العربات.

صعدت السلالم في ناصية قصر الفنون الجميلة، ونظرت خلفها لترى ما إن كان أحد الرجلين يتبعها. كان البروفيسور العجوز يلوح من بعيد، بيده على قلبه، بينما يحاول منع سكتة قلبية. لكن أنخيل سانتياغو كان يشير لها على مبعدة أمتار قليلة، داعياً إياها للتوقّف. عبرت فكتوريا ساحة سانتا لوثيا، وعندما أصبحت في الحديقة جمعت بين الركض والدموع. على الرغم من البرد كان جسدها ملتهباً بالحمّى، والدم يحرق وجنتيها، وحذاء المدرسة يثير الغبار خلفها.

لكنها استمرّت في السير بيقين أنها ستصل عبر طريق ما إلى النافورة الألمانية. هناك ستجد النبع والشلالات: ستسقط نقاط الماء الغزير من أعلى ذلك التمثال الجميل، بالسفينة البرونزية. وستلاحق النقاط السريعةُ الأمواجَ التي تخلّفها السفينة المعدنية.

جريٌ وقفزٌ وإغماءٌ، أصبحت ترى سفن المحيط في قلب سانتياغو، الفقمات الذاهلة المصنوعة من الحديد المصقول، طائر الحظ الحسن خلف آلهة البحار، الذي يدفع برفرفته جحافلَ المهاجرين والمستوطنين، قراصنة وقدّيسون، عصاة وملوك، كلّهم هادئون في النافورة القريبة، في متناول يدها، قريبة للغاية، النافورة الجميلة من المطر والبرونز، المُحمَّلة بالماء وسط الضباب الدافئ للشتاء، في المساء الرمادي، بينما تلاميذ مهملون يتبادلون القُبَل والوعود فوق مقاعد الحديقة، يا للجنون! يا لها من نافورة مُشبعة! مجاز غير مفهوم للبحارة ذوي الكبرياء الذي ألقوا بجذورهم وأقدامهم في تشيلي. أيُّ هذيانٍ أدّى إلى وضعهم وسط ذلك الماء الذي يحاكي بحراً دون أمواج، عاصفة دون برق ولا رعد ولا كريات جليد تشبه الأجواء الاسكندنافية، خاتم نيبلغين، أيّ نعمةٍ مباركة في هذا الماء القريب، هذه النافورة التي كانت بالنسبة لها مجرد نبعٍ لا أهمية له، لكنها الآن في متناول يدها، في متناول نهديها وشعرها وحلقها الملوّث، في متناول لسانها المسموم المُحمَّل بالغضب والسعار والسائل المنوي المجهول المتناثر، أيّ وهمٍ وسراب في نعمة هذا الماء الذي لا يتوقف عن الخروج هنا وهناك، وأيّ زخمٍ لنافورات أخرى حلمت برؤيتها، نافورة تريفي، نافورة بيازا نوفانا، ثيبيلس، مارجوت فونتين في رويال بالاس، نافورة ميدان أوبرا باريس، إسكالا في ميلان. اللغات الرائعة التي ستتعلّمها فور أن تطأ أرضاً مجهولة، لأنها اعتقدت دائماً أنّ الحماس هو سيد العالم، ويكفي يا سيدة بيتزولد أن يموت المرء مع شاعر لكي

يصبح خالداً إلى حدٍّ ما، وهي كانت هناك، على مبعدة عشرين متراً لكي تصل، وعندما تُصبح هناك وتغطس لن تكون سفينة الحياة تلك، مركب المجانين، السفينة العابرة للمحيطات الأسطورية التي ستحملها غريقةً بينما تقف على قدميها، مُتخشِّبةً تماماً، وأوفيليا على الجانب الآخر من البحر المُنقلب حيث كانت السماء. أيّ إجابة أفضل وأكثر حزماً من الموت على كلّ شيء في تلك اللحظة ذاتها، على الفور، في المكان ذاته، حيث كانت تجري وأوشكت أن تصل، موت مانريكي نفسُه، يا أستاذة بيتزولد! الموت اللعين نفسُه لأبيها، الموت ذاته الذي كانت تحدس أنه يحوم بخطوم الكلاب حول حبيبها أنخيل سانتياغو. بهذه الرغبة الرهيبة في الحياة، مجتهداً وأبويّاً، حبيباً وأباً لي، النقيض الكامل للموت الذي أنتظره وأستحقّه، أكثر سرعةً منه بطيئاً، أكثر اتساعاً وعُمقاً من وريد، عاصفاً للغاية مثل شريانٍ مشقوق بموس حلاقة. لكن الماء أصبح هنا، أصبح هنا واقتربت النهاية، طائر المطر أصبح ملموساً، هذه الموسيقا التي تغرس فيها أصابعها وتبلّل وجهها، الإعلان عن حياة أخرى، عن التعميد، الآن يتم كل شيء، الآن بينما تفرُك يداها وجهَها، تبلِّل الكتل اللزجة الملتصقة بشعرها، الآن بينما تبلِّل فتحة صدرها، تفتح المعطف بغضب فينقطع الزِّرّ، ويداها تغسلان نهديها، تدعكهما باضطراب، تغمر حلمتيها بذلك الماء الجميل وتفركهما، تبلِّلهما وتغسلهما وتمرِّر الماء وتنثره وتضغط وتفرك، وتحوِّل ماء الرحمة إلى مطر غزير، وتصنع شلالاتٍ بيديها لتُلقي السائل فوق جسدها. والآن تتوقف لحظةً لأنها تسمع صوت أنخيل سانتياغو الذي يقول لها: «توقّفي يا فكتوريا، بحقّ الربّ! توقّفي يا فكتوريا بونثيه، توقّفي!». لكنها لم تعد تسمع، وتدخل النافورة.

26

- المأمور؟

- نعم، يا سيدي.

- إنه أنا.

ذهب سانتورو حتى الباب وأطلَّ على الممرّ، وعندما لم يرَ أيَّ حارسٍ عاد إلى مكتبه وفصل المُسجِّل المُتّصل بالهاتف.

- هل انتهيت؟

- ليس بعد يا ريّس.

- لقد مرَّ أسبوعان هباءً.

- حسناً لقد أمهلتَني شهراً.

- لم يكن يجب أن أفعل هذا. إنني لا أنام في الليل، وعندما يمكنني النوم أحلم بكوابيس وأستيقظ.

- اعذُرني يا حضرة المأمور، لكن من الصعب للغاية أن يعمل المرء بينما لا يكون له وجود. لا أعرف ما إن كنت تفهمني.

- ماذا تعني؟

- سانتياغو مدينة كبيرة، وإن كنت لا أستطيع الاتصال بمعارفي، كيف يمكنني العثور على الدُّمية؟

- لقد أعطيتك عنوان البيت.

- إنه لا يعيش هناك يا ريّس. بل إنهم لا يرغبون في رؤية صورته. لكن الزوجة تستحقُّ الأكل، بعظامها وكلّ شيء.

- تحكَّم في نفسك يا حيوان! إن اغتصبتها، فسأقتلك بنفسي!

- اطمئنّ! لا أفتقد مكاناً لتبليل «الخرطوم».

- وإن تعرَّف أيُّ شخصٍ عليك؟

- عندما أشعر بالرغبة لا أزور أيّاً من النساء اللائي عرفتهن من قبل.

- هكذا يجب أن يكون الأمر. إن تعرَّف عليك أيُّ شخص، فسوف أُحال إلى تحقيقٍ إداريّ، أفقد راتبي وأدخل السجن. ربما في هذا السجن ذاته. تخيَّلْ كمية الحقراء الذين يرغبون في جزِّ عنقي!

- أعرف اثنين على الأقل في سجنك.

- من هما؟

- الشخص الذي لا يمكن ذكر اسمه وشخص آخر.

- من هو الشخص الآخر؟

- ما دام داخل السجن لا يوجد ما تخشاه يا سيدي المأمور.

- أخبِرني به!

- العمل البسيط الذي كلَّفتني به لا يتضمَّن الوشاية.

- حسناً. لماذا تتصل بي؟

- المعلومات التي أعطيتني إياها في المكالمة الأخيرة معلومات صحيحة. الفتى يُدبّر أمراً ما مع بيرغارا غراي.

- استمرّ!

- لقد شوهدا في شارع تابيرناس، حيث لا يمكنني الذهاب لأسباب بديهية.

- هذا مفهوم. حتى أعمدة الإنارة ستتعرَّف عليك. لهذا قلت لك أن تبحث داخل العائلة.

- الابن خنزيرٌ بلا دهن. إنه أكثر مللاً من رقص المرء مع شقيقته. الأم لا تثق بي ولا تفتح فمها.

- إن اغتصبتها، فسأقتلك يا حيوان!

- لقد فهمت هذا. لا تقلق يا سيدي المأمور!

- أخبِرني إذاً لماذا تتصل بي؟

- لأن مصباحاً قد أضاء في رأسي يا سيدي المأمور. إن كان الدمية يُدبِّر شيئاً مع بيرغارا غراي، فلا بدّ أنه شيء بحمولة سفينة عابرة للمحيطات.

- نيكو لا يضع يده في صغائر الأمور.

- وإن كانت مصادفات الحياة قد وضعت هذا في طريقنا، ألن يكون من الأفضل أن نركب عربة النصر بدلاً من قتل الحِصان؟

- ماذا تعني؟

- العجوز من المدرسة القديمة. لكن لا بدّ أن الشخص الذي لا يمكن ذكر اسمه هو الذي يُضفي العزم والرغبة.

- أعرف هذا، لأنه لا يفتقد للرغبة في قتلي.

- لكنه يفتقد للمال. وهو يعرف أن بيرغارا غراي قادر على إعطائه إياه بمبالغ كبيرة.

- تفكير ممتاز. لكنك سهوت عن نقطة صغيرة أيها المجهول الذكي: لقد اعتزل العجوز.

- لا يوجد بطل للعالم في الملاكمة حتى إن كان رأسه مطحوناً ضرباً، ويدَّعي هذا، وعلى الرَّغم من كل شيء لا يعود للحلبة مقابل مليوني دولار. مثل محمد علي كلاي. يطحنونه، لكنّه سيأخذ المال ليتعالج من الباركنسون.

- ماذا تقترح؟

- أن تتحرّى من مأمور السجن عن المشروعات التي خرج بها «سوبّرمان» من سجنه.

- أنا أتحدّث مع هويرتا؟ إن هذا اللعين اشتراكي!

- حتى وإن كان مُسلماً! يُمكنك القيام بهذا أفضل مني يا سيدي المأمور، لأنك على الجانب الآخر من القانون. لكن معذرة على صراحتي، إن اشتركنا في ضربة العجوز سنأخذ حصتنا، وبالمال يمكنك إصلاح أسنانك، وإلحاق ابنتيك بمدرسة خاصة، المدرسة الفرنسية على سبيل المثال.

- بالطبع أودّ إخراجهن من الوسط الحقير الذي يتحرَّكن فيه.

- تكلَّم مع هويرتا إذاً، يا سيّدي المأمور، واحصل منه على أيّ معلومة!

قرَّر مأمور السجن قطع هذا الحوار. من المُرجَّح للغاية أن يرغب ريغوبيرتو مارين في توريطه في وهم الضربة، لكي يحصل على بضعة أيام أكثر من الحرية وفي الوقت ذاته لا يغامر بقتل الملاك. كان اللعين لصَّ جيادٍ متباهياً، ولابد أنه على النقيض تماماً لتكنيك وذكاء بيرغارا غراي. يمكنه أن يكون «صبيّه»، لكن ليس شريكه.

- سيدي المأمور؟

- أنا أفكّر يا رجل. تدبَّر أمر الذي لا يمكن ذكر اسمه، وعُد إلى البيت في أسرع وقت ممكن!

- إنك تطلب مني أن أقتل الدجاجة التي تبيض ذهباً.

- في هذه اللحظة يشغلني إنقاذ حياتي أكثر من أيّ مالٍ افتراضيّ.

- إن بيرغارا غراي يشارك في الأمر.

- كلّ الناس يعرفون هذا، ولابد أن الشرطة أيضاً تتبع خطاه. من الأفضل ألا نزجّ بأنفسنا في مشاكل يا فتى!

- اتصل بهويرتا يا سيد سانتورو. أصغِ لي!

- ربما أتّصل به. لكن تَدَبَّر أمر الدمية أولاً!

- إن الملاك كقطعة الخبز المقدّس يا سيدي المأمور.

- أنت تعرف أن هذا غير حقيقي. إنه نضر من الخارج وعفن من الداخل. اقتله وينتهي الأمر.

- ما هي المهلة التي تمنحني إيّاها؟

- تبقّى لك أسبوعان، أليس كذلك؟ أسبوعان إذاً.

- ستندم يا سيدي المأمور.

- لن يحدث هذا. عندما يرغب كلّ الكلاب في التهام قطعة اللحم ذاتها يتصارعون فيما بينهم.

- من الغريب أن تقول لي هذا يا سيدي. أنا أعيش مُحاطاً بالكلاب.

- يجب أن لا تترك أثراً في طريقك.

- ماذا تظن؟ إنني أرتدي حلّة جديدة أيضاً.

- ومن أين أتيت بالمال؟

- النساء يساعدنني.

- هكذا فأنت رجل موفور..

- هذه هي الطبيعة. أحياناً تعطيك، أحياناً تسلبك. وهكذا، وداعاً لإلحاق طفلتيك بمدرسة فرنسية؟

- وداعاً لخصيتيك إن ظلّ من لا يمكن ذكر اسمه حيّاً بعد خمسة عشر يوماً.

وضع سماعة الهاتف، ثم اتجه إلى مدفأة الغاز السائل وفرك يديه فوق الشبكة المُتَّقدة. أصابت أصابعُه شيئاً من الدفء، وهو ما سمح له بتصفُّح أجندة أرقام التليفونات دون الاضطرار لقطع الأوراق الرطبة. ردَّ هويرتا ذاته على المُكالمة.

- أنا سانتورو، من السجن العمومي.

- نسيانك مُستحيل، أيّها المأمور!

- شكراً جزيلاً!

- لم أقل هذا بشكل إيجابي. ظللت حبيساً في سجنك طوال ستة شهور بعد الانقلاب العسكري.

- هذا موضوع قديم ومنتهٍ! في ذلك الوقت كنتُ في الخامسة والعشرين من عمري.

- لكنك كنت متعاوناً كبيراً مع السلطات الجديدة كرقيب.

- مثل معظم الناس في كلّ البلاد. تشيلي كانت تعيش في حالة من الفوضى، وكانت بحاجة إلى يدٍ حديديّة.

- بالضبط. لقد استخدمت معي يداً حديدية. كيف وصلت إلى مأمور سجن بعد استعادة الديمقراطية؟

- عبر السلك الوظيفي. نحن الموظفون العموميون مُحصَّنون ضد التقلُّبات السياسية.

- مَن مارسوا التعذيب أيضاً؟

- لا تكن دراmياً هكذا يا هويرتا! كانت مجرد خبطات. خبطات بسيطة.

- ما زالت أذني اليُسرى لا تسمع جيداً، وكثيراً ما أفقد التوازن. في حالتي كانت ضربة وحشية مباشرة على الأذن.

- لكن لم أكن أنا يا رجل.

- لم تكن أنت شخصياً.

- هل ترى؟ القوات المُسلَّحة في جميع أنحاء العالم تقول هذا. المسؤولية شخصية وليست مؤسّسية.

- نعم، أسمع النغمة ذاتها منذ عشرين عاماً. لماذا طلبتني؟

- لكي نُنسِّق، يا زميلي.

- أنا وأنت؟

- بالضبط. كلانا يريد أن يعمّ السلام والنظام في تشيلي.

- البعض بالقانون وآخرون بالبلطجة.

- لكن، أنا أو أنت لم نعد الشخصين نفسيهما. اليوم لن ألمس سجيناً ولا حتى بورقة زهرة.

- لقد أصبحت شاعرياً يا سانتورو. بمَ يتعلَّق الأمر؟

- لقد أطلقت سراح بيرغارا غراي قبل بضعة أيام، أليس كذلك؟

- كان أحد المنتفعين بالعفو.

- بالضبط. أخبِرني يا زميلي، ماذا يُدبِّر بطلك؟!

- لقد تقاعد.

- إنه في الستّين تقريباً.

- ربما. لكنه لا يريد المزيد من المعارك.

- ممّ يعيش؟ الكلّ يعرف أن شريكه سرق حصّته في الغنيمة.

- على ما يفرضه الأصدقاء.

- حتى الآن. لكن في المُستقبل؟

- ادخُل في الموضوع مباشرةً، يا سانتورو!

- يدور الهمس أن العجوز يُدبِّر لعملية كبيرة.

- وماذا؟

- من الجيد أن نتحدث معه لإثنائه عن عزمه. كموظفين عموميين ندين بهذا الموقف نحو البلاد. لن يبتهج الشعب برؤية مجرمين تم الإفراج عنهم، في ظل حكومة ديمقراطية، وهم يعودون للعمل بمباركة السلطات.

- بيرغارا غراي لن يعود للجريمة.

- هكذا؟ وماذا عن كلّ ما يُقال.

- ابحث عنه واعثر عليه بنفسك. وابتزّه كما تشاء بنفسك!

- أيّ ابتزاز يا هويرتا!؟

- أتخيّل أنك تبحث عن قضمة، أليس كذلك؟

- لا تُهِنّي!

- إن كان هذا يضايقك كثيراً، لا يترتّب عليك سوى أن تضع السماعة.

- لتكن أنت من يُنهي المكالمة.

- لا يا سيدي. أنا رجل مُهذب، وأنت من اتصل بي.

- تذكَّر أنني طلبت تعاونك وأنك لم ترغب في المشاركة. إن قام بيرغارا غراي بفعل أي شيء وبحثت الصحافة في الأمر فإنهم سيصلون إليك وإلى هذه المحادثة.

- لا أرى إمكانية لهذا.

- تخيَّل مثلاً أن يكون شخص ماكر قد سجَّل الحوار.

مرَّ هويرتا بأصابعه الباردة على أجفانه الناعسة.

- افعل ما تشاء يا سانتورو!

- لن أفعل أيّ شيء يؤذيك. لكنني أودّ أن أراك أكثر تعاوناً عندما أتصل بك المرَّة القادمة.

- ألا يوجد لديك أيّ شيء لتخبرني به؟

- مثل ماذا؟

- سرٌّ مثلاً؟

- أيّ سرّ؟

- لا شيء. كنتُ أسأل فقط.

27

التشخيص الطبّي للمريضة فكتوريا بونثيه لم يمكن مُطمئناً على الإطلاق: مزيجٌ عجيب من البكتريا في الحنجرة، فيروسات منتشرة من الأمعاء حتى الأنف، درجة حرارة أربعون وشرطتان، وإضافةً إلى كلّ هذا: الاكتئاب.

الطبيب المناوب الشاب، غابرييل أورتيغا، قرَّر أنها بحاجة إلى عناية مركَّزة. بمصطلحات شبابية للغاية وغير رسمية شرح لخال الفتاة، دون نيكو، دون ألقاب، ولأخيها الكبير، أنخيل سانتياغو، أنه حَقَنَ فاتنة النافورة الألمانية بمئة مليغرام من البنسلين، وترسانة من الباراسيتامول، ولم يعد هناك مجال في جسدها المائي - قال مازحاً- حيث لم يتم وضع كمادات. المريضة نحيفة لكنّها مفتولة العضلات وذات ردود فعل سريعة. بقليلٍ من التهريج يمكنهما انتزاع ابتسامتها، وبعد ثلاث ساعات سيرونها تعوم في مسبح الاستاد الوطني.

أوصى أقارب الفتاة بحماسٍ أن يجتهدوا في علاج روحها. «أيّ شخصٍ مُتديّن يمكنه تحييد البكتريا في جسده بالاستعانة بالأقراص والحقن، لكن لكي أكون صريحاً معكما فإن أغاني البلوز التي تلقيها هذه الفتاة كئيبة للغاية. بل إنها جنائزية، لكن الآنسة بونثيه تنطق في هذيانها

بالمفهوم الفلسفي الوجودي، الذي يتقاسمه المغنّون الأرجنتينيون أيضاً، وهو أن الحياة لا تساوي أي شيء. النتيجة التي يخلص إليها هؤلاء الأفراد المنتحبون أن الحياة بالتبعية لا تستحق أي تضحية. لا أعرف حكاية قريبتكما أيها السادة، لكن فيما يبدو فهي لا ترغب في المزيد من الحرب. إنها ببساطة ترغب في الموت، يبدو هذا شديد القتامة، لكن هذا هو الوضع. وأضاف أن الأمر الآخر بالطبع هو التكلفة. لقد أُصيبت بعدوى لأنها نزلت بالمعطف وكل ملابسها في النافورة الألمانية، حتى ذهبت عربة الإسعاف لإنقاذها، لكن هنا، في التأمين الصحي، فإن هذه المريضة المسكينة تشغَل فراشاً، ويوجد خلفها صفٌّ من المحتضرين، والأطفال الذين صدمتهم سيارات يقودها ثملون، أعينٌ أخرجتها المدى من حدقاتها في شجارات شوارع، إجهاضات تقوم بها الخادمات اللائي يحبلن من أبناء السادة. زوائد دودية ملتهبة يجب إجراء جراحة لعلاجها، نوبات جنون تتطلب قميص القوة ومهدّئات، ولمَ سأرهقكما بالمزيد من التفاصيل؟

- إن أمراض فكتوريا تُعتبر من صغائر الأمور بجوار ما ينتظرني. هذا يضايقني كثيراً، لأنني كنت سأشاهد التلفزيون بالكابل لأرى مباراة ريال مدريد ضد يوفنتوس على الهواء، لكنني في المناوبة حتى الصباح، إن أجفاني تسقط رغماً عني، وتناولت سبعة أكواب قهوة، مرة كل نصف ساعة. ماذا يمكننا أن نفعل مع الصغيرة؟ ألا تمتلك تأميناً صحياً خاصاً؟ حتى وإن كان مع مستشفى صغير؟

- ألا يمكنكما إدخالها ليومين في مستشفى خاص حتى تمر العاصفة؟ عندما تدخل ابنة أختك المستشفى، يا دون نيكو، يجب أن تترك لهم شيكاً على بياض من أجل النفقات التي ستتسبب بها، وعندما تأتي الفاتورة تضع المبلغ في الشيك. لكن، إن لم تكن تمتلك دفتر شيكات، ماذا يمكن أن تفعل؟ لابد أنك تسأل هذا السؤال. اذهبا بها للبيت إذاً! سأعلّمك كيف

تعطي الحُقنة. سأهديك قُطناً وكحولاً وحُقَناً، أيَّ شيء، لكن، أخرِجوها من هنا من فضلكم! لأن المرضى يموتون في الممر. يجب أن أجري عمليات جراحية وأخيط جروحاً في الجباه، وإجراء غسيل معدة لشخص متسمّم بلحمٍ متعفّن أخذه من صفيحة القمامة. كلّهم بحاجة إلى الدكتور غابريل أورتيغا.

- اذهبا بها بعيداً عن هنا! إنها فتاة لطيفة للغاية، رقيقة وجميلة كفنانة، لكنها بحاجة إلى الكثير من الرعاية. يجب أن تكون بجوار أناس إيجابيين، مثلكما على سبيل المثال. يجب اقتلاع الاكتئاب الذي يأكل عقلها. إن استمرّت بهذا الحزن ستسمح للحُمّى بالتهامها.

يجب أن تتناول الكثير من السوائل: لكن داخل الجسد، وليس من الخارج. لا لحمّامات السباحة والأنهار والمحيطات.

-اذهبا بها إلى بيتها! ألا أمَّ لهذه الطفلة؟ هل لها أمّ؟ اذهبا بها إلى أمها إذاً! لتعتني بها، لترفع من روحها المعنوية. أو إلى بيتك أيها الشاب. ماذا؟ لا تمتلك بيتاً؟ هذا أمرٌ فريد في الحقيقة. كل الناس يمتلكون بيوتاً. الأشخاص مثلك نادرون. آه، أنت من تالكا. حسناً، اركبوا تاكسي، ولتركب القطار إلى تالكا! هذا جيد. طبيعة، طيور، جبال، أشجار زيزفون، بط، بقر، دجاج، أيّ شيء خلاف هذه المقبرة. هل تفهم؟ هل تفهمان؟!

أخرج الرجلان الفراش وفوقه فكتوريا إلى الممرّ، ووقفا في طابور الأشخاص الذين مرّوا بجراحة والمشردين الذين ينتظرون أدوارهم. كان هناك عجوز، ومن معصمه ينهمر دمٌ غزير، وكان يشغل راديو على قناة كاريرا التي تبث أغاني تانغو قديمة. «لا يوجد أي شيء كسابق عهده في قريتك». كان هناك لافتتان. إحداهما تحظر التدخين، والأخرى ترجو عدم التدخين. أراد بيرغار غراي البحث عن تليفون لمهاتفة تيريزا كابرياتي. كان

اليوم قد تبخَّر على نحو غير مُنتظر. لم يكن يعرف كيف ولا لماذا تورَّط في دوامة هذه الحكاية التي لا تخصّه، بينما توجد لديه مشاكله الخاصة.

- ماذا سنفعل يا مُعلِّم؟

- يجب أن نعثر للفتاة على مكانٍ لتنام. ماذا عن بيت الأم؟

- الأم تتناول علاجاً نفسياً ومضادّات للاكتئاب العميق.

- الدواء سيكون أسوأ من الداء.

- وفي بيت زوجتك؟

- إن كنت أنا نفسي لا أستطيع الدخول هناك، لن تتحمّل غريبة توشك على الموت.

ذهبا حتى ناصية شارع ألاميدا مع شارع البرتغال، واشتريا عملتين للتليفون. كان التلفزيون يعمل والكاميرا تحصد عيني وزيرٍ بتقريب شرس: هجمة ذئب في انتظار سقوط دمعة عندما يتحدث عن موت ابنه، وهكذا تزداد حرارة الحوار. أبدى أنخيل سانتياغو عدم اكتراثه أكثر من أي وقت مضى. كان كل زبائن البار عابرين، هناك من يأكل السندوتش ومن يتناول مشروبه المُرطِّب، ومن يتحدث مع صديق، ثم يخرجون للشارع، يهبطون سلالم محطة مترو أونيبرسيداد كاتوليكا، ويُغيّرون من قطار إلى آخر حتى بيوتهم. على الأرجح يعيشون في أكواخ خشبية مُغطاة بالوحل، مليئة بالتشقّقات ورائحة شمع البرافين، محاطين بالقمامة والبارات السرية، لكن في نهاية الأمر كانت أماكن يمكن أن تُدعى بيوتاً. «بيتي»، لابد أن كل منهم سيقول هذا. «أدعوك إلى بيتي»، سيقول كلّ منهم لصديقه، حتى وإن كانت الجدران مسوّسة وعليها بقع الصراصير.

زفر بيرغارا غراي الدخان، وبظفرين أبعد شيئاً من التبغ العالق بشاربه الرمادي.

- لقد أخذت مالاً من عشيقة موناستريو ومن مأمور السجن هويرتا. وتيريزا مُهدَّدة بقطع الغاز ولم يكد الشتاء يبدأ. لا يخطر على بالي إلى من يمكنني اللجوء. كيف سارت أحوالك؟

- خدعت عجوزاً وهي تسحب مالاً من الصراف الآلي وأخذت ألفين من حارس السيارات في شارع تابيرناس.

- ماذا فعلت بمال الصراف الآلي ؟

- كان فرع بنك بالقرب من حلبة «تشيلي» لسباق الجياد. تحمَّست لحصان واشتريته.

- لِنبع الحصان!

- هذا يعني سقوطي في الحضيض تماماً.

- فَسِّر كلماتك!

- أريد أن أصبح مالكاً لحقل. أطوف بالأراضي ممتطياً الحصان. ما إن خرجت من السجن حتى قررت البدء في بناء حلمي. وبدأت بأكثر الأمور عمليةً.

- الحصان؟

- كان سعره «لُقطة». إنه يقطع الألف ومئتي متر في دقيقة وخمس عشرة ثانية. إنه لا يصلح لمنافسات السباق، لكنه سيكون رائعاً في حقلي الصغير.

- وأين البطل؟

- في مكانٍ ما.

- في مكانٍ ما. مثلك أيها العصفور. في مكانٍ ما.

- حسناً. الذنب ذنبك يا مُعلِّم. لو كنت قد تحمَّست للضربة، لكنّا سعداء الآن ونضحك من كل من أفسدوا حياتنا.

- هذا البؤس أفضل من السجن يا صغير.

- إنه ليس أفضل يا مُعلِّم. المشكلة أن ما تمتلك حقيقيٌّ. حقيقيٌّ بكلّ معاني الكلمة. هل تفهمني؟ على العكس، فإن السجن ليس سوى مجرد احتمال.

- حقيقيٌّ أيضاً!

- لكنه بعيد الاحتمال. أنت نفسك قلت إن خطة القزم ليرا رائعة.

- رائعة في السياق التشيلي.

- في أيّ مكان في العالم يا مُعلِّم. لماذا تجتهد في الحطّ من قامة القزم ليرا أكثر مما هي؟ تخيّلْ أن هناك مصعداً يقود إلى خزانة. وفيما بينهما يوجد فراغ مُغطّى بألواحٍ يمكن فكّ مساميرها بمدية طفل. بعد ذلك أنت تتعامل مع الأسلاك، تفصل الإنذار الإلكتروني، ثم نملأ المصعد بالدولارات.

شرب الرجل نصف كوب من البيرة، واحتجز مرارتها المنعشة فوق لسانه لبرهة:

- ستتجه كلُّ الشكوك نحوي.

- إن الخطة رائعة لدرجة أنه باستثناء كانتيروس والمافيا التابعة له، لن يعرف أي شخص بوقوع مثل هذه السرقة.

- لنَرَ، كيف يتمّ هذا؟

- إن هذا واضحٌ كالماء.

- لا تذكر هذه الكلمة الكريهة أمامي. طوال اليوم أسمع كلاماً عن الماء وهذا يصيبني بالزغطة.

- المال الذي يحتفظ به كانتيروس في الخزانة هو المال الذي يحصل عليه من خدمات الأمن السرية التي يُقدّمها. إنها الإتاوة الذي يدفعها له

رجال الأعمال مقابل دفاعه عن مصالحهم أثناء الديكتاتورية. إنها مافيا من القتلة. هذا المال لا يمرُّ على أيّ نظامٍ محاسبيّ ولا يدفع عنه أي ضريبة، ولا يُقدِّم أي إيصال على استلامه. إنه مال مُحلّق مثل طيور الرب. ولهذا، عندما يختفي من خزانته، لن يمكنه الذهاب إلى أيّ مكان للبكاء على مصيبته. إن كانتيروس ثعلب، تريد كل الكلاب أن تقضي عليه.

- في الحقيقة خطة ليرا ذكية حتى في هذه النقطة.

- أنا سعيد لأنك بدأت تدرك هذا.

- لقد أدركت هذا منذ زمن. لكنك لا تُفكّر سوى في نفسك، لم تنتبه إلى أنك يمكن أن تعيش في أقصى درجات السعادة السرية بعد إتمام العملية، لأنه لا يمكن لأي شخص أن يعتقد أن لصَّ حميرٍ تافهاً هو العقل المُدبّر لعملية كبيرة مثل هذه. لكن ماذا عنّي أنا يا بُني؟

- اللعنة إنك عنيد. لقد شرحت لك بالتفصيل إن الشرطة لن تتدخّل.

- الشرطة لا، لكن كانتيروس والقتلة التابعون له سيتدخلون.

- أنت مُحقّ في هذا.

- بمن سيشُكّون عندما يجدون الخزانة فارغة؟

قضت دفقة كآبة على الحماس الذي شرح به أسبابه. شرب أنخيل سانتياغو البيرة من الزجاجة مباشرة ونظّف الرغوة بحنق.

- بك يا بروفيسور. يجب أن أُقِرّ بهذا الأمر البديهي.

- وبافتراض نجاحنا بشكل كامل في العملية، يمكنك أن تشتري حقلاً في الأمازون ومع السلامة، لكن أنا، قبل أن أقطعَ عنقي بنفسي، سيكون أتباع كانتيروس قد شقّوا خصيتيّ.

- وإن أتيت معنا؟

- مع من؟

- معي أنا وفكتوريا؟

- لا تخبرني أنك ستحمل الأميرة الميتة طوال الحياة!

- نحن معاً يا بروفيسور.

وضع بيرغارا غراي يده في جيبه، وبعد أن وضع النقود فوق المائدة اكتشف أنه لا يمتلك ما يكفي لدفع ما تناولا. وبتعبيرٍ بدأ يبدو مألوفاً لسانتياغو، ضغط الرجل على أنفه في المنطقة بين حاجبيه، وتنهّد بصوت مسموع ثم قال:

- لا يكفي ما أملك لدفع الطلبات. الشيء الوحيد الذي تبقّى لي هو الثلاثين ألف بيسو التي وعدت بها فكتوريا من أجل دروس الباليه. لكن إنفاق هذا المال يعني إطلاق رصاصة الرحمة عليها.

أراد الفتى من كل روحه أن يخرج صوته واثقاً وغير مكترث، لكن الكلمات احتبست في حلقه قبل أن ينطق بها.

- لا تَقلق يا مُعلِّم. عندما كنّا في عربة الإسعاف، أعطتني فكتوريا المال الذي حصلت عليه من أجل هذا.

ووضع فوق المائدة الثلاث أوراق الزرقاء التي كان مجموعها ثلاثين ألف بيسو.

28

أربعون واثنان من عشرة، أربعون وثلاثة من عشرة، أربعون وأربعة من عشرة، غَيِّري الكمَّادة، أَحضِر كيس الثلج، شيء أقوى من الباراسيتامول، أربعون وخمسة من عشرة، أربعون وستة من عشرة، لا يمكنني فهم ما تقول، ليأتِ الطبيب، ليفحصها الطبيب مرة أخرى، لكن المسها، ألا ترى أنها مُتَّقدة؟ إنها مُتَّقدة، هل ترى هذا؟ أُنظر كيف ترتفع درجة الحرارة، أربعون وسبعة من عشرة، لا، من الأفضل لا، ليأتِ الطبيب، لا يهمّني إن كان يُجري جراحة، ائتي به حالاً، لا أستطيع يا دون نيكو، يجب أن تستطيعي، ماذا تريد أن أفعل؟ أنا مُجرد ممرضة، لا أمتلك السلطة الكافية، لا أعرف ماذا يمكنني أن أفعل أكثر من هذا، يطلبونني في كل مكان، أنا قادمة، أنا قادمة، إنني أُبدل لها الكمَّادات منذ نصف ساعة، أُنظر، إنني أنزعها ساخنة كالمكواة، كيس الثلج سيكون أفضل، ائتي بكيس الثلج مرّة أخرى يا فتاة، إن الثلج لم يتجمَّد بعد، إذاً ضعي المزيد من الماء المُثلّج في القِربة، وهكذا ستتحسن، هل ترى؟ ضَع الترمومتر في فمها، مسكينة، أُنظر إلى شفتيها، هل ترى الرغوة البيضاء؟ مسكينة، بلا حول ولا قوة، أربعون وخمسة من عشرة مرّة أخرى، هل ترى؟ أربعون واثنان من عشرة، ضَع المصاصة في فمها، أجبِرْها على أن تتناول سوائل، عصير برتقال، يا

حبيبتي، ستتحسّنين، إن أخفضنا درجة الحرارة عن أربعين سننقذها، وإلا فسوف تُصاب بالتهابٍ في الدماغ، هل تعرف ماذا يعني هذا؟ التهاب في المخ، ليرأف بك الرب، أُنظر إليها يا دون نيكو، ماذا تقول؟ ما هي الكلمات التي تقولها ولا أفهمها؟ بمَ تتكلَّم؟ كأنها لغة أخرى، مسكينة، أربعون وواحد من عشرة، انتهزي قربة الماء البارد يا صغيرة، امسك بيدها أيها الشاب، لتشعر بالرِّفقة، ما هي علاقتك بها أيها الشاب؟ هل أنت خطيبها؟ صديقها؟ أخوها؟ أُنظر كيف تُحرّك المسكينة يديها، اهدئي يا طفلتي، اهدئي! هيا واحد، اثنان، ثلاثة أربعة وانتهى الأمر: دورة هائلة للساق في الهواء، ممتاز، هكذا، نعم، ممتاز، برأسٍ مرفوع يا صغيرتي، واثنان وثلاثة، ممتاز، والآن، الوضع العربي، الوجه إلى أعلى، الجسد يواجه الجمهور بزاوية مائلة، ممتاز، هكذا، هكذا، ممتاز، والآن لفّة للخارج، ودورة في الهواء وبالتزامن افردي ذراعيك معاً، وادفعي بقوة بساقك اليُسرى لكي تُضفي الزخم على الدورة، نعم، هذا جيد، لكن افردي ساقيك بأقصى ما تستطيعين من الرِّدفين حتى أصابع القدمين، والآن أريد أن تجرُئي على القفزة الكبيرة، إلى أعلى، ممتاز، والآن ركِّزي في الهبوط، لتسقطي على قدمك اليُمنى وضُمّي ردفيك لكي تهبطي بنعومة، هكذا، هكذا، اهبطي على القدم اليسرى، نصف انثناءة، هكذا، لتلمس الأصابعُ الأرضَ قبل العقب، هيا، واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، دورات متتالية، أنصاف دورات متابعة بالقفز من قدم إلى أخرى، تغيير وضع الساقين في الهواء، وتحرَّكي إلى اليمين، جيد جداً، ممتاز، لنرَ الآن القفزة المفاجئة، قفزة بالقدمين معاً، احني رأسك، عظام الكتف إلى الأمام وأدّي نصف الانثناءة، جيد، كفى تمرينات، لقد استعددت جيداً، الآن يمكنك الرقص بحرية، إذا كان شعورك بجسدك أكثر خفّة، فستكونين أكثر استعداداً للشخصية، أيا ما كانت، الشخصية التي تريدينها، كوبيليا، أو جيزيل إن أردت، تنزع أوراق

الزهرة وسيأتي ألبرشت لويز ليعرض عليك حبه وعزاءه، وإن أردت، «شبح الوردة»، البخار الناعم يمكنه أن يوحي لك برقصة حول ميسترال، ارقصي يا فكتوريا، ارقصي حتى تتهاوي مثل الوردة، مثل شبحها، ارقصي عطرها، ارقصي، هيا، خطوة متداخلة، ممتاز، ممتاز، قريبة جداً من الموت.

أمر الدكتور أورتيغا أن يُدخلوها وأن يضعوا قناع الأكسجين على وجهها على الفور. كان هناك طبيب آخر برفقته. كان أشيب، قصير القامة ومتين البدن، وكان هو من قام بقياس نبضها، ثم استمع لقلبها بالسمَّاعة. تشاورا على جانبي الفراش، وذهب الطبيب الشاب إلى بيرغارا غراي وأنخيل سانتياغو، اللذين كانا متمترسين في الزاوية الأكثر عتمة من الغرفة.

- العجوز المسكينة التي كانت تنام هنا ماتت. أمرت بحملها إلى المشرحة لتوفير مكان للآنسة بونثيه.

عندما أمكن لبيرغارا غراي أن يتكلَّم قال بصوت متواضع كالفلاحين:

- هل حالتها سيئة للغاية أيها الطبيب الشاب؟

- بين الحياة والموت يا سيدي.

- لكن هل هناك أمل؟

- في هذه الظروف يكون لكل من لم يبلغ العشرين آمال أكبر ممن تجاوزوا الثمانين.

- هل ستشفى؟

- تَعَقَّد الوضع لأن البكتريا العقدية شرسة للغاية، لكن إن أتى المضاد الحيوي بأثر فسنكون قد وصلنا إلى الجانب الآخر.

- «الجانب الآخر!». قال أنخيل شاحباً.

- بالمعنى الإيجابي يا فتى. الجانب الآخر يعني في هذه الحالة جانبنا، أي الحياة. نظر الفتى إلى يديه، ضمّ قبضتيه ثم فتح وأغلق أصابعه كأنما يريد تفريغها من التوتر.

- معذرةً لإخراجك من صالة الطوارئ يا دكتور. لكنني كنت أمسك بيد فكتوريا عندما طلبت مني أن أُطلقها، ألا أواصل الكلام معها لأن لديها عملاً لتقوم به بعد الموت، وهذا أفزعني.

- أحسنت صُنعاً بالبحث عني. توجد حالات هذيان يُمكن أن تؤدي إلى الغيبوبة.

- ماذا يعني هذا بالضبط؟

- إنه نوم لا يستيقظ منه المرء، وفي أحيان كثيرة يكون الفصل الأخير من المرض.

- رجتني ألا أمنعها. قالت لي شيئاً عن رقصة في الظلال.

- لا أجد معنى فيما تحكي لي. كم الساعة؟

رفع بيرغارا غراي طرف كُم سترته الصوفية ونظر في ساعة ضخمة مطلية بالفضة.

- إنها الثامنة تقريباً.

- معذرة للسؤال، لكن قاعة الطوارئ ليست سوى جحيم لا نهائي. هل هي الثامنة مساءً أم صباحاً؟

ابتسم العجوز وهو يُخرج علبة السجائر ويعرض عليه سيجارة.

- الثامنة مساء.

- هل تعرف كيف انتهت مباراة ريال مدريد ويوفنتوس؟

نفى نيكو والشاب برأسيهما، وخرج الطبيب للممر ليوَجِّه السؤال

ذاته، بالسيجارة بين شفتيه. نظر أنخيل سانتياغو بثبات إلى وجه بيرغارا غراي حتى انتبه الأخير للنظرة التي تحصده، وردَّ بنظرة متسائلة.

- ماذا هناك؟

- ساعة رائعة يا بروفيسور. لو كنّا قد بعناها قبل منتصف اليوم لكُنّا قد وفَّرنا على أنفسنا كلّ هذا.

29

ألبرتو باررا تشاكون، أي ريغوبيرتو مارين، طلب من «الأرملة» الحصول على حقيبة قديمة، ومن المُفضَّل أن تكون بلون القهوة وحائلة، بشرائط في الطرفين، وإضافةً إلى هذا أن تأتي بسلَّةٍ من الخيزران، على أن تضع داخلها حلوى تشيلية من «لا ليغوا»، وبضع بيضات مسلوقة، وخبزان، وإن أمكنها بضع ثمرات كمّثرى.

وفي اللحظة التي ينسحب فيها الليل ويبدأ ضوء النهار في الطلوع، نزلا من تاكسي في شارع تابيرناس، وضغطا على جرس فندق موناستريو. كان قد اختار التوقيت بدقّة: في تلك الساعة من الفجر تنتهي نوبة رجال الشرطة الذين يحافظون على النظام ليلاً، ويعودون إلى معسكراتهم بقناعة أن الجميع ثملون بما يكفي، بحيث لن يجيدوا التصويب في حالة نشوب شجار، وكان رجال الشرطة الذين سيحلُّون محلّهم ما زالوا يحلقون ذقونهم في أقسام الشرطة قبل تولّي النوبة الصباحية، وما زالت أمامهم بضع دقائق حتى يتناولوا القهوة ويركبوا عربات الدوريات الراكبة المُجهّزة باللاسلكي.

كانت إيلزا تجلس في الاستقبال مُلتحفةً بشالٍ ورديّ اللون وهي تحلّ الكلمات المتقاطعة، وعندما رأت الرجل والمرأة خلف الزجاج ضغطت

على الزرّ لكي تفتح لهما الباب. كانا يرتعدان من البرد، ووضع السلة المصنوعة يدوياً فوق طاولة الاستقبال بتباهٍ، ووفقاً لحساباته كانت علامةً على أنهما وصلا على التوّ من الأقاليم.

قالت الأرملة:

- نريد غرفة بها تدفئة.

- بالساعة أم ليلة كاملة؟

ابتسم ريغوبيرتو مارين وقال:

- ليومٍ كامل. السيدة لديها قضيّة مؤجّلة.

قالت موظفة الاستقبال:

- مفهوم. هل جئتما بالقطار؟

- بخمس ساعات من التأخير.

- زيارة لسانتياغو؟

- زيارة لفندقك يا سيّدتي. عيون الناس منتبهة لكل شيء في المحافظة، وحبيبتي هذه متزوجة.

- لم أسألك عن هذا. إن كان الأمر يتعلّق بطلب وثائق الزواج، فلن يدخل أيّ شخص في هذا المكان، وكان صاحب الفندق سيقف على مخرج المترو طالباً للصدقة.

- أنا وحبيبتي نشكرك على عدم تطفُّلِك. لقد اشترينا حلوى تشيلية في «لا ليغوا»، هل تريدين قطعة؟

- بامتنانٍ شديد. أنا أحبّ الكعك المُغطّى بالسكّر المطحون.

قالت الأرملة:

- أما أنا فأحبّ المحشوّة. لدنة وتحتوي على الكثير من الحلوى.

استدارت إيلزا وهي تمضغ قطعة الحلوى، وسحبت من لوحة المفاتيح مفتاح الغرفة رقم أحد عشر. بغمزة من عينيه أشار مارين لمرافقته إلى وجود وريقة مُلصَقة بشريطٍ لاصق على المربّع المجاور، وكانت الورقة تحمل كلمة «نيكو». أبدت الأرملة إدراكها للإشارة وتحقّق المجرم مرّة أخرى من أنه يحمل المسدس ماركة برونينغ بكاتم الصوت في جيبه.

- هل تريدان أن نصعد لكما بالإفطار في ساعة مُحدّدة؟

- لا نريد أن نضيّع وقتنا في هذا.

- الشيء الوحيد الذي أطلبه منكما ألا يصدر عنكما ضجيج كثير. قبل أيام كانت هناك سيدة تصرخ من النشوة كمغنّية أوبرا، وعلى الرغم من أنك لن تصدق هذا، فإن هناك بضعة أشخاص محترمين يعيشون هنا.

أشار ريغوبرتو مارين إلى حامل المفاتيح، وعلّق على الشيء الذي لفت انتباهه.

- مثل السيد نيكو؟

استدارت الموظفة، اندهشت من السؤال، لكنها تذكّرت أنها قامت بنفسها بوضع الوريقة كعلامة على المودّة، وابتسمت وهي تقول:

- بالضبط. على الرغم من أن جاركما غير موجود الليلة؟

- وأين يوجد؟

- ماذا أدراني؟ إنه رجل قليل الكلام. معذرة إن حصّلت منكما الفاتورة الآن، لكن الدفع هنا مُقدّماً.

- وكم يبلغ الحساب؟

- أربعون ألفاً في الليلة.

- لكننا سنشغل الغرفة أثناء النهار. هل ترين الشمس الوادعة التي تظهر من فوق سلسلة الجبال؟

- «يبدو يوماً صيفياً»، أكمَلت الأرملة. «لابد أن مطر الأمس قد حمل الضبخان».

- على أية حال، الحساب أربعون ألفاً.

- هاك. شكراً.

- الشكر لكما على الحلوى.

- لا شكر على واجب. هل ترغبين في بيضة مسلوقة؟

- إنني أعشق البيض المسلوق. لا تقولي إنك تحملين منه.

أخرجت الأرملة بيضةً من السلّة، إضافةً إلى قرطاسٍ صغير من الملح، وقدّمتهما لها.

- يجب أن تقشريها.

- هكذا أتسلّى بشيء ما. مع كل هذه السنوات في العمل ليلاً أعرف كل الحيل لملء الكلمات المتقاطعة. إنها الحروف ذاتها دائماً. يضعون «ثلاثون يوماً»، وأنت تكتبين «شهر». «إله مصري من حرفين»، حينئذ تكتبين «رع». أو يكتبون «H2O» والإجابة «ماء».

- حسناً، تشرّفنا بمعرفتك يا سيدتي!

- اسمي إيلينا.

- أنا ألبرتو باررا تشاكون.

- مثل فيوليتا باررا وأرتورو برات تشاكون؟

- نعم، لكنني لا أصل إلى نعل حذاء هذين العبقريين.

- وفيمَ تعمل حضرتك؟

غطى ريغوبرتو مارين الندبة التي تشقّ جلده من الصدغ الأيسر حتى الشفة العليا، وأطلق من عينيه شرارة طفل شقيّ، ثم نظر مليّاً إلى الأرملة، وفي النهاية أجاب:

- أعمل في الحبّ.

فتح العاشقان زجاجة نبيذ أحمر واستخدما الكوبين البلاستيكيين الموجودين في الحمام. قشَّر مارين بيضةً ووضع عليها الكثير من الملح، وقضمت الأرملة ثمرة كمثرى وتساقط شيء من عصيرها على بلوزتها السوداء. كان الزر الأول مفتوحاً وحمالة الصدر المتفخة تفصح عن الحجم المُعتبر للنهدين اللذين يملآنها.

خلع الرجل سترته، وقبل أن يُعلِّقها وضع المسدس والمدية فوق الفراش.

- أشكرك على الرفقة يا أرملة. لم أكن سأجرؤ على دخول عشّ الدبابير بمفردي.

- لا بأس يا رجل. أنت تعرف أنني لن أراك ثانية بعدما تعود للسجن. أم أن لديك رأياً آخر؟

- أنت مُحقَّة. لا توجد امرأة بعد هذه الأرملة.

فكَّ أربطة الحقيبة الكرتونية التي تحاكي الجلد، وأخرج منها قميصاً مُتّسخاً ملفوفاً كالكرة، ومن داخله أخرج حفنة من الرصاصات، وجلس على طرف الفراش لتعمير المسدس.

- هل ستقتله هنا؟

- كلما كانت حركتي أقلّ كان هذا أفضل.

- وإن لم يأتِ؟

- سأنتظر. يمكنك أن تذهبي إن أردت.

- سأبقى معك يا مارين، لكنني لا أريد أن أكون في الفندق عندما تقتله.

- أنت مُحقَّة في هذا.

انتهى الرجل من مهمته، وضع أمان السلاح وصوَّب على ذرّة غبار مُتطايرة حول اللمبة. سألت المرأة:

- هل ستقضي على العجوز وعلى الفتى؟

- الفتى فقط. لكن بما أن الصغير يأتي إلى الفندق الذي يُقيم به برغارار غراي، لابد أن الصحافة ستنشر الكثير حول واقعة القتل.

- وماذا يعني هذا؟

- هذا مواتٍ لي. هكذا سيعرف سانتورو بأفضل طريقة أنني اتَّبعت نصائحه وتخلَّصت من الأمر الذي يثير هوسه.

تمدّدت المرأة على الفراش وفتحت ساقيها. كان كلٌّ من فرجها ويدها دافئين.

- ألا يُثقل عليك يا مارين أن تقتل شخصاً لم يفعل لك أيّ شيء على الإطلاق؟

- هكذا تسير الأمور عندما يُكلَّف المرء بعملٍ يا أرملة. إن أصبح عاطفياً فسيفسد كل شيء.

شعرت المرأة أن الحرارة تصعد من فخذيها حتى جبهتها. استخدمت إصبعاً لإبعاد الجزء الذي يغطي بطنها من السروال، وخلعته دون تأخير، ثم أزاحت الشعر الذي يُغطّي بظرها وكشفت عنه منتصباً، ثم أمرت المُجرم:

- عُضَّه كما تعرف، يا كلبي الصغير!

30

كانت الليلة متأرجحة في المستشفى العمومي.

كانت نبضة قلبٍ تُعيد الحياة لفكتوريا، والتالية تسحبها منها. التنفُّس كان عاصفاً. جسدها يتقلَّب بفعل الهذيان الذي لم يكن يخفت، على الرغم من همسات تشجيع بيرغارا غراي وأنخيل سانتياغو في أذنيها. دقّات قلبها العنيفة كانت تدفع الرجلين لليأس، وتجعل الطبيب الشاب أورتيغا يعود بينما الساعة على الحائط تتقدَّم نحو الفجر. كان التشخيص الطبّي، بتعبيرات أورتيغا المرحة، لكن المأساوية في الوقت ذاته: «المباراة كانت حامية!»، و«الخصمان يغامران بكل شيء»، و«النهاية غير معروفة».

كان هذا الشك هو الذي دفع سانتياغو لليأس: أدرك أن بقاءه لدقيقة أخرى في تلك الغرفة يعني أنه سينهار. رفع الستارة ونظر إلى الشارع، فرأى الشمس تُشرق من فوق سلسلة الجبال: نارٌ مُسلَّطة على المدينة ولا تقف السُّحب في طريقها، يومٌ دون ضبخان، أملٌ ربيعي!

- ما رأيك يا بروفيسور؟

- لقد سمعت الحُكم. التعادل يسود المباراة.

- يجب أن تذهب للبيت وتنام قليلاً!

- لا تشغل بالك! أمورٌ طارئة مثل هذه ترفع الأدرينالين.

- هل ترى اليوم الرائع الذي يُشرق؟

- نعم، لماذا؟

- لا يمكن لأيّ شخص أن يموت في يوم كهذا، أليس كذلك يا سيد نيكو؟

- سيكون هذا تناقضاً.

- إن ماتت فكتوريا....

- لا تُفكّر في هذا! لا تقُله! انزع هذه الفكرة من رأسك!

أخرج الفتى من حقيبته علبة عصير فواكه، قطع طرفها بأظافره وقدَّمها للعجوز. شرب بيرغارا غراي رشفة طويلة، أبدى امتعاضاً وعرضها على أنخيل.

- هذه العصائر يجب أن تكون باردة لكي يمكن تناولها. إن كانت دافئة هكذا فإنها تُصيب بالتقزّز.

أحنى الفتى رأسه موافِقاً، ونحّى المشروب جانباً، ثم أخرج الكوفية التي أهداه سانتورو إياها من الحقيبة. بدا أنها قد تدهورت خلال هذه الأيام. مصابيح الفلورسنت القوية في الغرفة البيضاء كشفت عن جزء من تاريخ الكوفية الذي لم يلحظه الفتى من قبل: ثقب صغير، ربما بسبب سيجارة لم تُطفأ جيداً، بقعة نبيذ أحمر، بضعة خيوط في الطرف بلونٍ مُصفرّ، وبطاقة حريرية مكتوب عليها «خياط أركيبا».

- أريد أن أطلب منك معروفاً آخر يا مُعلِّم!

- الضربة، لا!

- ربما كان المعروف الأخير الذي أطلبه في حياتي.

- ماذا حدث للجميع اليوم؟ الكلّ يتحدث بكلمات كأغاني التانغو.

فَرَدَ أنخيل سانتياغو يده رأسياً وجعل الرجل يقرأ ما كتب على جلدها.

- هذا هو رقم تليفون هذه الغرفة. سأخرج لساعتين وسأتصل في الثامنة تماماً.

بينما كان يقول هذا نظر إلى الصليب المُعلَّق فوق رأس الفراش وفرك يديه في الكوفية.

- ماذا ستفعل في هذه الساعة يا فتى؟ المدينة فارغة.

أشار أنخيل سانتياغو إلى تمثال المسيح المُتألّم، الذي كانت أوصاله مفكّكة، ورأسه المنهزم ساقط على صدره.

- في المقام الأول منحُ وقتٍ للسيد المُعلَّق هنا لكي يفعل شيئاً من أجل فكتوريا. وثانياً سأفعل شيئاً لا أريد التحدّث عنه.

- سرقة؟

- أُفضِّلُ الالتزام بالصمت يا بروفيسور. بعد ساعتين تماماً سيرنّ التليفون، مفهوم؟ سأسألك ما إن كانت فكتوريا على قيد الحياة أم ماتت.

- ماذا ستفعل في هذه الحالة؟

- أنت بنفسك حظرت عليّ التفكير في هذا.

- لكنني أريد أن أعرف قبل أن أتركك ترحل.

- في هذه الحالة سأترك الترّهات يا مُعلِّم.

- ماذا ستفعل؟

- يجب أن يدفع شخصٌ ما مقابل كلّ هذا.

- لكن من؟

- لديَ أفكاري في هذا الشأن.

أمسك بيرغارا غراي بسترته الجلدية وجذبه بعنفٍ وهزَّه كدمية.

- اسمع يا أبله! لا ذنب لأي شخص في حياة أو موت شخصٍ آخر. هكذا هو القدر. لا يمكنك تغييره مهما فعلت.

بشكل مفاجئ، ارتسمت ضحكة لامعة خفيفة على شفتي الفتى لأول مرة ذلك اليوم.

- من الذي يُغنّي تانغو الآن؟

استمتع بالدهشة على محيا بيرغارا غراي، وخرج من الغرفة مجرجراً طرف الكوفية دون أن ينتبه لهذا.

أطلّ الرجل على الممرّ، وسمح لنفسه بتنهيدةٍ طويلة لكي يستعيد ثباته.

- أنخيل سانتياغو!

- بروفيسور!

- إن كانت على قيد الحياة في الثامنة، هل يمكنك إسداء معروف بالذهاب إلى الفندق لتأتي بقميصٍ نظيف وفرشاة الأسنان؟ أشعر أنني خنزير يسبح في القاذورات.

- بكلّ سرور يا مُعلِّم.

بدا أن الفتى يُعيد التفكير في تلك اللحظة، وخبط على جيبيه ثم أتى بتعبير ضيق.

- أنا آسف يا مُعلِّم، لكن هل يمكنك إقراضي مئة بيسو من أجل المُكالمة؟

ألقى بيرغارا غراي بقطعة النقود نحوه، ونظر إلى عينيه بحزم وهو يكزّ على أسنانه.

- هل تدرك أنك تراهن بكلّ شيء في لعبة ملك وكتابة؟

- إنها الفلسفة التي تعلَّمتها فكتوريا في المدرسة. الموت أو الحياة. لا يوجد وسط.

- لا تكن أبله. المنطقة الوسط رائعة ومترعة باحتمالات الحياة.

كإجابةٍ وحيدة، اكتفى الشاب بالإشارة بسبابته إلى الفراش حيث تستلقي فكتوريا بونثيه التي تعاني من الحمى.

31

هيّا يا حصان، صهيل ونار، حِدوَةٌ ورمال، ركض ووحل، تقدَّم يا حصان واركض، يا ذي القوائم الأربعة من هواء وقُبَلٍ، أيها الجواد المقدود من السماء، فحلٌ وحارسٌ، اركض، أسرِع واحملني، أُنثر الرمال، ابتلع الغبار، غُص في الوحل، يا حصاني ذي الحوافر الحزينة، يسقط الذيل وينخفض كالطائرة الورقية، يرتفع شعر العُنق وينبض اللجام، أسرع واركض، اركض، ستلحق بك العجوز الشريرة، ستعُضّ قوائمك بلثّتها الخاوية من الأسنان، هيّا، إن اللجام يقضي عليك، إنها تجذب سرجك، العجوز الشريرة تريد أن تمتطيك دون سرج، هيّا استجب للسوط، يا حصان روحي، إنها تنتظر بالعنكبوت والمكنسة، لترى أن الوحش الأسود قضى عليك وهو يضحك بعينه الحولاء، إجرِ يا حصاني، إنها تريد موتك، إن العجوز تريد أن تشقّك، ابذل المزيد من الجهد يا حصاني ذي الخطم القوي، يا حصاني ذي الخطم الغارق في الزبد، وتحرَّر من اللجام حتى يمكننا أن نصرخ لكي تعيش، اصنع لها تاجاً من الهواء بركلاتك، ساعدها على خفض درجة الحرارة بركلةٍ للسحب، امسح الحمّى بجليد الجبال، هيّا يا حصاني، لا تخذلني، يا حصاني الحزين، يا حصاني العجوز، لا تستسلم ولا تضعف، اقفز وانطلق، لأن ألفَ كلبٍ تنبش كفلَيك، إنها الكلاب، عواء الهياكل التي

تصدر صريراً عندما تسحقها، يا حصاني اللاهث ذي الخطم المفتوح، يا حصاني ذي الخطم الكبير، يا أميري، يا صلاتي، مُجنَّحٌ ومُحاطٌ بالملائكة، ألا ينكسر ظهرك، ولا ينفجر دمك، إن المنجل الذي يحصد الأرواح ينتظرك، اَفزع الدبابير التي تغرس إبرها في عرق ظهرك، احملني من هنا، يا حصاني، احملني إلى القرية حيث وُلدتُ، الموت القادم على عربة تجرّها الثيران السوداء ينتظرك لدى تلك السحب العاصفة المنسابة على التَّل، اقفز كأنك تجتاز الحواجز، اسخر منها، حَقِّر من شأنها، إن جريت ستتنفّس فكتوريا، إن فردتَ جناحيك يا قنطوري فستتّقد فكتوريا بالنجوم، امنحني دورةً، إن هذا هو الشيء الوحيد الذي أمتلك، لا تدخر جهداً ولا تزفر غاضباً، لتصهل بحثاً عن حريتك، اِجعل حدواتك الفضية تلمع بين الأحجار، اخترق الحصى كأنك تبحث عن الذهب، اِجرِ، إنها ستلحق بك، إن الموت سيصل إليك مُحتفلاً بانتظاره، مثانته متخثّرة، ثدياه المترهلان ممتلئان باللبن الأسود، اِجر، اِجر منه، اِجر من أجلها، على التل، على الرمال، على السهل، في المنحنيات، هيا، يا قطعة من الحماس والعصب، هيا يا قلبي وقريني، هيا بعزمٍ قويّ، بأذنين منتصبتين وصدر منتصر كبطل رياضي، لا تفقد أنفاسك، مُت وابعَث مع كلّ خطوة، مع كل قفزة، اِجر من أجلها، احملها إلى عالم بلا لجام، إلى عالم الخلاص والحرية، لا تتوقف، يا حصاني اللعين، آي، لا تسقط في العدم، يا حصان أحلامي، لا تلهث مُحتضراً، أيها الوحش، لا تتراجع، آمُرك وأتوسّل إليك، أنا، مالكك دون صفة ولا حق، تماسك، إننا سنلمس هذه الأشباح القذرة، وسوف تمتصّ الخفافيش دماءك، إن الموت يصل مزهواً، إنه يحمل لك مبارزة الفرسان الرماديين، وستقرض الجنيّاتُ سيقانك وحوافرك، والبطانية تُصبحُ كفناً، وأبواق الصيادين تُصدر نغمات جنائزية، لقد أصبحت على أعتاب السهل، فكتوريا بونثيه، واهنة، منهارة، فقدت روحها، ها هم يخرجون من السينما،

أولئك الحقراء ذوو اللعاب المتساقط، اللاعقون المُكَفَّنون، أطياف اللعاب، لا تتوقف يا حصاني! تنفَّسي عميقاً، يا ملكتي! يا ذات العظام اللطيفة، يا سانتا ماريا، أرجوك من أجلها! يا حصاني، اِربح السباق، أيّاً ما كان الوقت الذي تستغرقه، اِربح السباق!

32

رأى أحد الفرسان الذين يتمرّنون في حلبة «تشيلي» لسباقات الخيول كيف يمرُّ حصان أنخيل سانتياغو بجواره كالطيف، وركض إلى يساره مُحاولاً الإمساك بلجامه. بدا له الشاب الذي يمتطيه شديد الإنهاك كما الحصان، واندهش الجوكي لرؤية فتى لا يلتزم بأدنى قواعد السلامة وهو يتمرَّن في هذه الحلبة الخاصة بالمحترفين: دون خوذةٍ ولا سرجٍ مطابق للمواصفات، دون سوطٍ ولا شفقةٍ بالحيوان الذي ركض بأقصى سرعة أكثر من الخمس دورات التي تُعتبر مسافة المسابقة الكبرى. عندما أوقف الحصان فكَّر في نعت فارسه بالمجرم أو القاتل، لكنه تراجع عن أيّ سباب عندما رأى أن نظرة الفتى تائهة، كأنما تناول خلطة مخدّرات.

- يا رجل، لا يمكن فعل هذا في الحصان. هل كنت تريد إهلاكه؟

كانا يسيران بتمهّل، وتمنّى أنخيل امتلاك قبّعةٍ بحاجز لكي تحميه من ضوء الشمس الناصع.

- إنه أمرٌ يطول شرحه يا صديقي.

- حسناً، لكن هذه الحلبة خاصة بالمحترفين. إننا نقيس زمن التمرينات، وقد تتسبّب في حادث.

- أنا راحل. فقط كنت أريد إعادة الحصان لمدرّبه.

- من هو؟

- لا توجد لديّ أدنى فكرة. هل تعرف اسم هذا الحصان؟

مرَّ الرجل بيده على البقعة البيضاء الممتدة على أنف الحصان، وانحنى قليلاً ليفحص اختلافاً في لون الجلد في الساق الخلفية اليُمنى.

- إنه ميلتون. لقد سُرق. أين عثرت عليه؟

- كان يرعى بالقرب من المطار.

- سيبتهج تشارلي دي لا ميراندولا لرؤيته.

- من هذا؟

- مدرّبه.

- أين يمكنني العثور عليه؟

- سِرْ في هذا المضمار واستمرّ إلى اليمين حتى ترى فيفاثيتا.

عندما رأى تشارلي الشابَ يدخل إسطبله على ظهر ميلتون، فرك عينيه كأنما يريد التخلص من خداع حيلة سحرية. أسقط الدلو والخرقة اللذين كان يستخدمها لتنظيف الشعر الكثيف لأحد الجياد، واتجه نحو الحصان بريبةٍ وشبه ابتسامة متردّدة.

- أخبَروني أن هذا الحصان يخصّك يا دون تشارلي.

- بالفعل. لقد سُرق قبل أسبوعين.

- لقد عثرت عليه بينما كان يرعى بالقرب من المطار، وعندما رأيته وحيداً فكَّرت في إعادته إلى مالكه.

- أنا مُدرّبه أيّها الشاب. وهذه الإسطبل هو مكان نومه.

نزل أنخيل سانتياغو، واتَّبع الحصان عادته ودخل الإسطبل، وبدأ في مضغ القش المتناثر على الأرض.

- يبدو ما تحكي حقيقياً. الحصان هنا يشعر كالخنزير في الوحل.

- إنه ليس حصاناً رائعاً، لكنه لا يمرض أبداً، ويعرف كيف يربح طعامه من الشوفان بمراكمة جوائز المراكز المتقدمة. قبل ثلاث سنوات ربح السباق، وكان الرهان على مئة ضعف. وصدرت تعليقات الصحافة هكذا: «رفعوا الأعلام: مفاجأة كبرى في مضمار «تشيلي» لسباقات الخيول. ميلتون يبرهن على أن الأعور سلطان في بلد العُميان».

- ها هو ذا بطلك قد عاد إليك يا دون تشارلي.

- يبدو شبحاً مُقارنة بحاله قبل ذلك.

- اضطررت لإجهاده كثيراً هذا الصباح. لا أعرف النتيجة بعد.

- ماذا يعني هذا؟

- كم الساعة الآن يا سيد دي لا ميراندولا؟

- الثامنة إلا خمس دقائق.

- هل تسمح لي باستخدام التليفون؟

- لديّ تليفون محمول فقط.

- هذا يكفيني.

فتح المُدرّب الجهاز وتركه جاهزاً للاستخدام. قرأ الفتى الرقم المكتوب على راحة يده وضغط الأزرار. وقبل أن يضغط على زر «إرسال»، شعر بدوار أفقده توازنه. أسند ظهره على أحد أعمدة الحظيرة وقام بالمكالمة.

كان صوت الرنين في انتظار الرَّد يبدو له كالعدّ التنازلي المميت لحكَم مباراة ملاكمة أمام مُلاكم ساقط على الأرض. خمس، سبع، تسع مرّات. تكرّرت النغمة المنفّرة حتى تم الاتصال.

- بروفيسور؟
- إنه أنا يا رجل.
- لم يردّ أيّ شخص.
- وماذا؟
- يتخيّل المرء أموراً....
- قلتَ إنك ستتصل في الثامنة. ما زالت هناك دقيقتان حتى الثامنة.

انتهز أنخيل سانتياغو هذه العبارة ليبتلع اللعاب المُحتجز في فمه ويمنعه من الكلام.

- «هل هي على قيد الحياة؟». سأل متوسّلاً.

ساد الصمت على الطرف الآخر من الخط، وأمسك الفتى بعمود الحظيرة وهو يحيطه بذراعيه. «لا تلعب معي يا مُعلِّم! ليس الآن، من فضلك!»، أراد أن يقول هذا، لكن قبل أن تخرج الكلمات صدر صوت امرأة عبر سماعته:

- أنخيل؟ إنه أنا، «لا فكتوريا».

جرى الفتى حتى باب الإسطبل ونظر إلى كرة الشمس.

- «كيف حالك؟». قال هامساً.
- بخير.
- إلى أيّ قدرٍ بخير؟
- بخير. إنني أتناول الإفطار.
- ماذا قلت؟
- إنني أتناول الإفطار.

اتَّجه الفتى نحو دون شارلي حاملاً التليفون في يديه كأنه جوهرة لا تُقدَّر بمال.

- تقول إنها بخير يا دون تشارلي. تقول إنها تتناول الإفطار.

- من؟

- أنت لا تعرفها. لا يمكنني أن أخبرك الآن.

- اِسألها ماذا تأكل في الإفطار.

- ماذا أقول لها؟

- اِسألها ما إن كانوا قد قدَّموا لها قهوة بالحليب، شاي، أيّ شيء.

أتى الفتى بقفزات كبيرة فوق قشّ الحظيرة بسرعة تتناسب عكسياً مع لسانه.

- ماذا تفطرين يا فكتوريا؟

- شاي، زبادي، خبز مُحمَّص بالمربَّى، بيض مخفوق.

- بيض مخفوق؟

- بيض مخفوق.

- انتظري لحظة من فضلك. لا تُنهي المُكالمة!

ذهب إلى جوار شارلي دي لا ميراندولا مثل تلميذ مجتهد وكرَّر المعلومات:

- شاي وزبادي وخبز مُحمَّص بالمربّى وبيض مخفوق.

عبَّر الرجل عن الرضا بفكّه، ثم نظر إلى الفتى قلقاً.

- هل هو خبر سيّئ؟

- أيّ خبر؟

- الإفطار.

- كيف يكون سيّئاً يا دون تشارلي!؟ إنه خبرٌ ممتاز!

- لماذا تبكي إذاً؟

- من؟

- أنت يا سيدي.

مرَّ أنخيل بيده على وجنته وتحقّق مذهولاً مما قال المُدرب. أدرك فجأة أن المُكالمة ما زالت مستمرة، وأنه لا يفلح في النطق بأي كلمة.

- ماذا أقول لها؟

- أيّ شيء. اِسألها عن مذاق المربّى.

- مذاق المربّى؟

- بالطبع. إن كانت بطعم الفراولة أو الخوخ أو بابايا...

بضربةٍ من يده أزاح دمعاتٍ أخرى تسلّلت عبر أنفه.

- ما هو مذاق المربّى؟

- وما أهمية هذا؟

- لا أهمية له.

- إن كان هذا الأمر يشغل بالك فإنه مربّى برتقال. مُرّ. دون نيكو يريد الكلام معك.

بدَّل الفتى السماعة إلى الأذن الأخرى، كأنما يخصّ المحاور الجديد بها.

- المربّى مُرٌّ يا فتى، مثل الحياة.

- لقد أنقذناها يا دون نيكو!

- نحن؟ لا. إنه السيد المُعلَّق على رأس الفراش. كان كريماً للغاية.

- حسناً، لقد فعلتُ ما يخصّني.

- ماذا تعني؟

- هرولت وهرولت حتى تفوقت على الموت.

- يجب أن يفحص طبيبٌ عقلكَ عندما تعود للمستشفى. سيكون مواتياً لك إجراء أشعة لقياس الدماغ.

- ماذا يعني هذا؟

- أشعة على الدماغ حيث يمكن رؤية موطن الخلل في المخ. لقد ربحنا الحرب ضد البكتريا، الآن يجب أن نرى ماذا سنفعل مع الاكتئاب.

- دع هذا لي يا مُعَلِّم!

- ماذا تريد أن تفعل؟

- شيء كبير للغاية. كبير لدرجة أنك يا بروفيسوري وعرّابي ومحلّ ثقتي لا يمكنك تخيُّله.

- أحظر عليك أن تفعل أي شيء قبل أن تتحدث معي مُسبقاً.

- أشعر نحوك باحترام وإعجاب كبير، لكن بدءاً من اليوم أنا أعرف جيداً ماذا أريد أن أفعل بحياتي.

- ممتاز. سأعمل على الحصول على شاهد قبرٍ باسمك.

- أنا أُفضِّلُ: «ذاهب وسأعود».

- بمناسبة الرجوع: عندما تمرُّ على الفندق، أحضِرْ لي أيضاً سترتَي الجينز. إنهما مُعلَّقتان في الدولاب.

انزلق أنخيل مُعتمداً على العمود الخشبي حتى جلس فوق حزمة من القش. سمع صفير انتهاء الاتصال على الجانب الآخر من الخط، وأعطى الجهاز ذاهلاً إلى تشارلي دي لا ميراندا. نظر إليه هذا بجدّية شديدة، وتأرجح بدنه البدين بعدم راحة وهو يحاول تفادي روث حصان.

- ماذا حدث الآن يا فتى؟

- لا شيء يا دون تشارلي.

- ولماذا ما زلت تبكي إذاً!؟

33

الظلال الأولى تسقط سريعاً في سانتياغو. يدخل شخصٌ ما المحلَّ على الناصية، ويجد العتمة قد حلَّت عندما يخرج. في عصر أيام الجمعة يسافر الأثرياء الذين يمتلكون بيوتاً في الساحل مُبكراً. الزوجات والأطفال ينتظرون في المتاجر أو المكاتب بالحقائب جاهزة، وبأكياس تحتوي على المؤن لنهاية الأسبوع. المسافة بين سانتياغو والمحيط الهادئ ساعتان تقريباً. الفقراء يبقون في المدينة وهم يطوفون في وسطها، مُحاطين بالضبخان. يتحمَّلون الرصاص الصادر من عوادم العربات، ويذعنون أمام الغشاء الرمادي الشرس في الشوارع.

هذا الضباب يُشجِّع على لقاءاتٍ خلسةً مع نساءٍ كبيرات النهود وقصيرات الجونيلات، في باراتٍ سيّئة التدفئة، مُعبَّقة برائحة النبيذ الحادة، أو لعب النرد والكوتشينة مع أصدقاء المدرسة أو أصدقاء الطفولة في أحياء سانتياغو القديمة. أهل سانتياغو يتمسَّكون بهذه العلاقات القديمة. في طريق الحياة حوَّلت الديكتاتوريةُ الريبةَ من العلاقات الجديدة إلى أبواب مُحتملة للخيانة.

في ذلك الغروب، حمل سانتورو مرّة أخرى مفاتيح الزنزانة مزدوجة الباب حيث يُفترض أن ريغوبرتو مارين يقضي عقوبته. قال بتعبير مرير:

«حتى إشعارٍ آخر، فإنه معاقب بالخُبز والماء والصمت». انتظر مُدخّناً سيجارته الأخيرة دون رغبة، ثم وضع بطاقة التوقيع للخروج في السابعة تماماً.

بياقة المعطف مرفوعةً واجه الصقيع الذي تلا يوماً تبدَّت فيه زرقة السماء في أوقات عديدة. كان ضباب سانتياغو جليدياً بعد يوم مشمس، مثل انعكاس أضواء النيون على وجوه العمال الذين يعودون في الحافلات مُحطّمين وذاوين.

استقلّ مأمور السجن أحد تلك الحافلات، بعد أن اشترى «لا سغوندا» من الكشك الكائن على الناصية. وبسبب انتفاضات العربة الخانقة، أمكنه تركيز عينيه على بضعة عناوين فقط: «التحقيق مع موظفين حكوميين يتقاضون رواتب إضافية غير شرعية»، «تشيلي تُحرز انتصارات عالمية في التنس»، «تسليم السفاح مارثيلو سالاس من إيطاليا إلى الأرجنتين»، « ملكة جمال سابقة مُرشّحة مُحتملة من اليمينيين لعمودية منتجع فاخر».

كان الكثير من الركاب يسعلون ويعطسون دون توقف، لكن لم يكن أي شخص يجرؤ على فتح النافذة. كانوا يُفضّلون العدوى على صقيع ذلك الهواء القاسي.

ذلك الشخص الجالس في المقعد الأخير، في أطول صفٍّ، الوحيد خلف الباب الخلفي، ذلك المقعد الذي يسع ستة أشخاص، الذي يتأثر أكثر من غيره بالمرور على الحُفَر في الشوارع، المكان الذي لا يمتلك الركاب شيئاً ليتشبّثوا به عندما تكبح الإطارات المُستهلكة في الشوارع المبتلّة، ويسقطون في الممرّ إن كانوا شاردين، ذلك الشخص، أحدهم، أحد هؤلاء الستة، الذي كان يُغطي رأسه بقبعة جلدية لفارس خيول بها وقاية للأذنين، والذي كان يحيط فكّيه بكوفية حائلة اللون من الألباكا

البيروفية ماركة أركيبا، ذلك الشخص الذي كان يراقب مأمور السجن بتعبيرٍ مرعِب، والذي يضع عينيه في الأرض بسرعة عندما ينظر مأمور السجن إلى الخلف، ذلك الشخص كان أنخيل سانتياغو.

بقدميه مضمومتين لكي يسعهما الركن، كان يُبلِّل شفتيه بلسانه، بينما يجفّ فمه باضطراد أثناء اتجاه الحافلة باتجاه الغرب، وبعد ذلك باتجاه طريق «اندبندثيا»، وفي النهاية يصل إلى شارع أينشتين، ويتوقف لبرهة لكي يسمح لمأمور السجن بالنزول في ناصية محل جزارة دراك.

كانت أعمدة الإنارة في تلك الشوارع قديمة ومتدهورة، وبصعوبة كانت تشقّ العتمة. دخل الرجلان الشارع الرئيسي وكانت بينهما مسافة كبيرة، ثم حادا إلى اليسار في طريق صغير. كان موقفهما مختلفين، مأمور السجن مُرهَق، يبدو عريضاً في معطفه من جلد الجمل، ويسير كأنه يتثاءب. كان يُفكّر في خلع حذائه، وارتداء الخُف، وتبادل النخب مع زوجته بكوبَي نبيذ أحمر احتفالاً بعطلة نهاية الأسبوع، والنعاس خلال قيلولة قصيرة بينما يرى مُسلسلاً في التلفزيون الوطني. سينتظر العشاء على هذا الحال، وربما يُصرّح لابنتيه المراهقتين بالخروج لحفلاتهما في «الويك إيند»، والتشديد على أنه يريدهما في البيت قبل الواحدة.

لم يكن الرجل الآخر يسير بمثل هذه اللامبالاة والتلقائية. كان رأسه منحنياً أكثر من المعتاد لكي تُغطي قبعة ركوب الخيل أنفه، كان يتوخى السير بجوار الجدران حيث تساعده العتمة على التخفّي. لم يكن ممكناً أن يُطيل السير أكثر من هذا، لأن مأمور السجن سيدخل الشارع التالي، سيتقدَّم عبر ذلك الزقاق ذي الأشجار الثلاث، وفي غمضة عين سيضع المفتاح في باب البيت ذي الواجهة الزرقاء. على الرغم من أنه كان يخشى

من لفت نظر ضحيّته إن أسرع الخطا، إلا أنّه قرّر الثقة في نعل حذائه الرياضي الشبيه بأحذية كرة السلة، وبعدما تأكّد من عدم وجود أيّ شخص في المكان، قفز على الرجل قبل أن يستدير للمرة الأخيرة.

خلع الكوفية التي كانت تغطيه وتخفيه بنزعةٍ واحدة، ثم ألقاها فوق سانتورو كضربة سوط قادمة من العتمة، مثل خفّاش، كبح خطواته قبل أن يعطي مأمور السجن وقتاً للدفاع عن نفسه إزاء الضغط الوحشي الذي بدأ يخنقه. تركه الاختناق بلا حول ولا قوة، ورفع عينيه نحو الفتى متوسّلاً، كان يريد أن يصرخ: «أُعفُ عنّي!»، ولم تصدر عنه سوى غمغمة غير مفهومة.

راكعاً بجوار الشاب، وضع في عينيه المتوسلتين كل الكلمات التي لم يمكنه نُطقها. كان الفتى قد ترك القبّعة تسقط، وانساب على كتفه شعره الكستنائي الذي كان يجعله يبدو كالملاك في الرسوم الكنسية. عندما شعر أن مأمور السجن سيفقد وعيه، قرّر تقليل الضغط، ووضع يده تحت سترته، وأخرج المسدس الذي يحمله في الحزام بجوار قلبه. ألقى السلاح بعيداً، فأصدر ضجيجاً معدنياً عندما ارتطم بغطاء بالوعة. الآن يمكنه تحريك الرجل، الذي فقدَ وعيه تقريباً، بالمهارة التي يبدل بها اتجاه شعره. جرجره كأنما الكوفية لجام، حتى أسنده على جذع شجرة خالٍ من الأوراق.

بعد ذلك خفّف الضغط، لتأكّده من أن الرجل لن يفلح في فعل أيّ شيء، بعد أن شلّه الاختناق والرعب. كانت أول كلمة نطق بها هي: «الرحمة!»، بنبرةٍ وعلوّ صوتٍ يوحي بأنه تدرَّب عليهما في كوابيس كثيرة. في كل هذه الأحلام المرعبة، تخيَّل أن الفتى سانتياغو يدخل باراً في شارع بويتنه، ويغرس مديةً في عنقه فيخرج طرفها من قفاه. دائماً ما كان هناك سلاح، وليس كوفية، ليس الكوفية التي أهداها له لغرضٍ استراتيجيّ، ومودةً أيضاً. قال لاهثاً:

- أنا أعزّك يا صغير. لم أرغب في إيقاع الأذى بك قطّ. لا أستحقّ الموت بسبب نوبة طيشٍ عارضة.

- بالفعل؟

- كانت ليلة غريبة. كنا جميعاً كالغرقى.

- كالوحوش يا سانتورو.

- إنها الحياة، إنها الحياة العفنة التي نحياها.

- «إن كنتَ تُفكر هكذا». قال أنخيل سانتياغو بينما يضغط على الكوفية أكثر، «لماذا تتمسّك بها؟».

- بسبب الروابط العاطفية التي يوطّدها المرء. لي زوجة وابنتان مراهقتان. إنهن بحاجة إليّ. ليس من العدل أن تقتلني على مبعدة أمتار من بيتي.

أمسك الشاب وجه مأمور السجن وخبطه على جذع الشجرة. بعد ذلك ضغط على الجمجمة وحكّ وجهه على لحاء الشجرة حتى انبثق الدم بين الجروح. عندما رفع وجهه رأى أن ملامح الموظف العمومي قد تشوَّهت. كان فتات اللحاء قد التصق بالدم والعرق، وشفتاه المشوهتان ترتعشان.

- تلك الليلة اضطرّوا لنقلي إلى المستشفى لإجراء نقل دم.

- أنا بنفسي رافقتك في عربة الإسعاف. ألا تتذكر هذا؟

- «نزيف مُضاعف»، كتب الطبيب المناوب.

- لكنك شُفيت يا فتى. إنك قويّ، حرّ، أمامك الحياة بأكملها. ماذا ستضيف إلى حياتك إن قتلتني؟

- الكرامة!

ازداد ضغط الفتى على الكوفية، وأخذ يشدّها حتى جحظت عينا

الرجل في مقلتيه. حينئذ فقط ألقى الكوفية الصوفية، وذهب للاستناد على الجدار ليستعيد أنفاسه.

- هل تسمعني يا مأمور؟

- «نعم يا فتى». همس سانتورو، وهو يلهث ويُدلِّك قلبه في الوقت ذاته.

- اسمع ما سأقول لك جيداً!

- أستمع لك.

- لم آتِ لقتلك.

- لا أصدّقك.

- بغضّ النظر عن هذا، لن أقتلك الآن.

- أشكرك يا أنخيل سانتياغو. ومتى ستقتلني؟

- لن أقتلك مُطلقاً.

- هل أنت جادّ في كلامك؟

- جادٌّ تماماً. غيّرتُ خططي لأسبابٍ لن تفهمها مُطلقاً. مُستقبلي لا يحتوي على فأر مثلك، ولا حتى القضاء عليه.

مرَّ أحد المشاة بين الرجلين وكان على درجة من الفطنة والحيطة بحيث أنه واصل طريقه متظاهراً بأنه لم يرهما. وفي البيت المواجه فتحت عجوزٌ الستارة، وعندما فوجئت بنظرة أنخيل سانتياغو أسرعت بإغلاقها مرة أخرى.

- أشكرك على رحمتك!

- ليست رحمة يا مأمور. إنه برود. إنه رأسي الذي يفكّر بوضوح، رأسي الذي يفصل منذ اليوم بين القشّ والشعير.

- وحكاية الكرامة المهدورة؟

- لم يعد أمراً هاماً. لو كنت قد ضغطت على الكوفية خلال دقيقة أخرى، لم تكن ستتفلسف الآن. هذا يرضيني.

- أسئلتي ليست مجانية يا فتى. كيف يمكنني معرفة أنها ليست نوبة كرم اليوم، وأنك لن تظهر أمامي في الغد في أيّ بارٍ وتشقّ عنقي بسكّين؟

- لا تنتظر أن أعطيك ورقة مُوقَّعة وبخاتم حكومي بأنني لن أفعل هذا.

- حسناً يا أنخيل سانتياغو. أُصدّقك.

تشبّث الرجل ضخم الجثة بجذع الشجرة، ونهض بصعوبة حتى وقف على قدميه. نفض المعطف، وأراد الاتجاه إلى المسدس المُلقى على شبكة البالوعة. سبقه الفتى ووضعه في جيب سترته الجلدية.

- سأستعيره مؤقتاً يا مأمور.

- ماذا تُدبِّر؟

- إنه أمر لا يخصّك.

- أسألك لأنني سأحزن لعودتك إلى سجني مرة أخرى.

- هل ستعاملني كما في الماضي؟

- لا يا فتى. سأعاملك كأمير. لكن إن كنت ستستخدم السلاح، يجب أن تتعلم كيف يعمل.

ظلا صامتين خلال وقت طويل، وكانا جامدين تقريباً. أسقط نسيم الهواء بضع أوراقٍ جافّة من الشجرة، وأمسك أنخيل إحداها أثناء طيرانها وتلهّى بتحسُّس ملمسها الهشّ. مسح مأمورُ السجن عنقَه الموجوع، واتّجه إلى الفتى بيدٍ ممدودة.

- إن سمحت لي، أستأذنك في الرحيل. إنهم ينتظرونني في البيت.

- لتذهب يا مأمور!

تصافحا، لكن شيئاً ما منع سانتورو من مغادرة المكان. بينما كان يُنظّف الوحل الملتصق بحاجبيه تشجَّع في النهاية على السؤال:

- إن لم تكن راغباً في قتلي بالفعل، لماذا جئت؟

هشَّم أنخيل سانتياغو ورقة الشجر التي كان يُمسك بها في يده اليمنى، وبعد ذلك أخذ يطحنها حتى أصبحت كالغبار.

- لكي أُردّ لك الكوفية يا مأمور.

34

يبدو أن إشارات المرور تصبح مضاءة بثلاثة مصابيح خضراء بعد العاشرة مساءً في شارع «تابيرناس». السائقون لا يعيرون إشارات المرور اهتماماً، بينما يتلهّون بفحص الفتيات الجالسات خلف الواجهات الزجاجية للمقاهي، أو من يتحدَّثن في مجموعات وهنّ يرتدين معاطف جلدية وجوارب شبكية تحت الجونلات القصيرة، وبمكياجٍ أحمر بين الحاجبين والجفنين.

لم يمكن للفتى أن يكبح السعادة الطافرة منه عندما دخل المنطقة. كأنه استحمّ بفرشاةٍ هوائية كتلك التي تُستخدم في طلاء هياكل السيارات، ومحا هذا الحمَّام الجير المتكلس المتراكم في أحشائه. كان يشعر أنه نظيف وخفيف، وعندما انتبه إلى أنه أوشك على أداء حركة راقصة في وسط الشارع، فهم لأول مرة أبطال أفلام هوليود الموسيقية، عندما يأخذون في الغناء أو الرقص عندما يشعرون بالنشوة.

كان قد تخلَّص من أحمال كثيرة تثني ظهره، والآن يشعر أنه حيوان خفيف ومرن، رشيق العقل وسريع الخطوة. رقيقٌ وشفاف لدرجة تخيُّله أن كل الناس سيدركون سبب سعادته المزدوج: على الأرجح كان شعوره

نحو فكتوريا بونثيه هو ما يُطلق عليه في الأفلام والأغاني: «الحُبّ»، وتوجيه بيرغارا غراي بأخذ سترتَي الجينز المسروقتين من شركة شيندلر كان يبدو إشارةً على أن «الضربة» قد تمكّنت من روحه.

منذ الفجر، عندما امتطى الحصان وربح «سباقه»، كان يشعر أن الحظ ينهمر عليه كالشلالات، أن فرقةً من الملائكة تحيط به وتمنحه المعجزات وبصيرة غير مُنتظرة. هذه الكائنات المراوغة الأثيرية، الطيّبة والرحيمة، كانت تتوخّى ألا يقع له أيّ شرّ، وعلى سبيل المثال أن يُخفِّف الضغط على الكوفية المحيطة بعنق الثور المأمور، لتُنجِّيه من جريمة قتل.

ليست هذه الجريمة فقط، وإنما من جريمةٍ أخرى متكرّرة بشكل كابوسي في ليالي أرقه في الزنزانة، عندما كان يرى أنه يغرس سكّين مطبخ في عنق سانتورو. لماذا حكى له العجوز هذا الموقف؟ إنه التصوير ذاته لما يحدث في حلمه. ربما لأن الضيق يُحيل البشر إلى عرّافين بدلاً من إصابتهم بالحيرة؟ هل حلم كلٌّ من الضحية: جلّاده، وهو، بالحلم ذاته؟

«لا يمكن أن يقع لي أيّ شرّ»، قال لنفسه تحديداً عندما مرَّ بجوار سيارة بلون الكريز، إذ أفاق من سعادته على بوق السيارة. انفتحت نافذة السائق، ومن إطارها ظهر رأس حارس السيارات:

- متى ستدفع لي الألفي بيسو يا فتى؟

كان سانتياغو مُعتاداً على رؤية نيمسيو سانتليثس بالفوطة الصفراء التي يرشد بها سائقي السيارات كيف يركنون عرباتهم في الشارع المكتظّ بالمرور، لكنّه لم يُفكّر مُطلقاً أنه سيرى ذلك الشخص جالساً خلف مقود سيارة ذات يوم. لم يمكنه منع الابتسامة.

- قريباً يا صديقي - قال بينما يستعدّ لمواصلة السير مبتهجاً نحو الفندق.

فتح الحارس باب السيارة الخلفي، وأشار له آمراً لكي يدخل. بعدما أطاعه وجلس، اكتشف إلى جواره وجود موظفة الاستقبال إيلزا.

- هل تتذكّرني يا فتى؟

- بالطبع، موظفة الاستقبال الليلية.

- كيف أحوال إيلينا سانهويثا؟

- إنه اسمٌ مزيّف لخطيبتي. إنها بخير، تتعافى من حادثٍ في المستشفى العمومي. لماذا أردتما أن أركب السيارة؟

- «هنا لا يرانا أي شخص». قال الحارس.

- وما المشكلة في أن يرونا؟

أنزل الرجل قبعته حتى حاجبيه كأنما قول العبارة سيكشف عن شخصيته.

- ذات مرة رأيتك تخرج طائراً من الطابق الأول وسقطت حياً.

- كانت مزحة من بيرغارا غراي.

- الآن نحاول تفادي أن تخرج من الطابق الأول طائراً وميتاً.

فرك الفتى ركبتيه، وأراد تفحُّص الموقف حول الفندق عبر الزجاج المغطى بالندى.

أشعلت إيلزا سيجارة، وفتحت النافذة قليلاً، ونفثت الدفقة الأولى عبرها.

- يوجد رجلٌ في الفندق، وهو ليس بالشخص المحترم، ويسعى خلفك لقتلك.

- أنا؟

- أنت أو بيرغارا غراي. لم أصل أبعد من هذا بتحرّياتي. لا يهمّني

أمرك منذ اعتديت على موناستريو. لكنك أيضاً الطريق الذي سيحمل ذلك الرجل إلى نيكو. وهذه ستكون جنازة لا أودّ حضورها.

- من هو هذا الرجل؟

- يقول إن اسمه أليبرتو باررا تشاكون. لكنه ليس اسمه.

- كيف عرفت؟

- باه... عندما دخلت الفندق لأول مرة كنت أعرف تماماً أن اسمك ليس إنريكيه جوتيرث.

- كنتِ أنت من أطلق عليّ هذا الاسم.

- أطلقُه على الجميع لكيلا أنساه ولا أتخبّط إن سألتني الشرطة ذات يوم. سجّلت ألبرتو باررا تشاكون باسم إنريكيه جوتيرث أيضاً.

- وإن اتصل به شخص بالهاتف؟

- هذه مشكلة جوتيرث والمُتّصل، ليست مشكلتي.

أخرج أنخيل سانتياغو مشطاً من الحقيبة، وانتهز المرآة العاكسة لكي يُمشط شعره قليلاً.

- كيف عرفت أن هذا الرجل يريد قتلي؟

- استنتاج بسيط للغاية. لماذا يأخذ رجلٌ الغرفة المجاورة لنيكو؟ لماذا لا يخرج من الغرفة منذ دخلها؟ لماذا يظلّ جالساً بفانلة دون أكمام فوق الأريكة بينما يمسك بمسدس براونينغ 38؟ لماذا خرج بالسلاح في يده فزِعاً، عندما أرسلت الخادمة لترتيب غرفة بيرغارا غراي؟

- لا أعرف أيّ شخص يرغب في قتلي يا سيدة إيلزا.

- ألم تخبر أيّ أحد بما تدبّر مع بيرغارا غراي؟

- كل الناس يعتقدون أنني أدبّر شيئاً مع بيرغارا غراي، لكنه لا يريد

المزيد من المشاكل. الشيء الوحيد الذي يرغبه هو الحياة مع عائلته كمتقاعد.

- أعرف تيريزا كابرياتي جيداً، وأعرف أنه لن يدخل ذلك البيت ثانيةً إن لم يعطها مالاً.

- لكن إلى أين تقودك كل هذه التأملات؟

- إلى النتيجة التالية: ألبرتو بإررا تشاكون شخص يريد قتلكما، أو الاشتراك في الضربة.

- لكن عن أي ضربة تتحدّثين؟

- إن كان يسير بالمسدّس في يده فلأنه يعرف أنكما تُجهزان لشيء ما، وأن هذا الشيء يتطلب القدرة على القتل إن تطلّب الأمر، إضافةً إلى لصٍّ حميرٍ وفنّانٍ في التعامل مع الأقفال. لابد أنه يعرف أن هذه الضربة ليست أمراً يقدر عليه المخنّثون.

- كدت أخنق عشيقك يا سيدة إيلزا، لأنه قال الكلمة ذاتها لي.

- أقول هذا بشكل مجازي. أنا أعرف كيف كان أداؤك جيداً مع الآنسة سانهويثا. لكن إن لم يكن النسر لصّاً، فإنك أنت الضحية التي يبحث عنها.

- أنا! الشيء الوحيد في لائحة سوابقي هو سرقة حصان. لن يقتلني أي شخص من أجل هذا.

- والتلميذة؟

- لا أفهم.

- الدمية التي تتلاعب بها، هل يمكن أن يكون لها عشيقٌ آخر؟

- دونيا إيلزا، لقد أتت المسلسلات التلفزيونية على عقلك تماماً.

- أو أبٌ يرغب في الانتقام لشرف ابنته؟

ضغط أنخيل سانتياغو على مقبض الباب بحنق.

- سأذهب لآخذ بضعة أشياء لدون نيكو من الغرفة.

اعترض حارس السيارات طريقه ومنعه من التقدُّم. فتح غطاء حقيبة السيارة بمفتاح التحكُّم عن بُعد.

- كل أغراض بيرغارا غراي موجودة في هذه الحقيبة.

- لماذا؟

- لا نريد أن يدخل المُعلِّم الفندق ويوقع به المجرم ضرراً. ولا أنت أيضاً. إن كنت تعرف مكانه، اِحمل له أشياءه.

فرك الشاب عينيه خلال بضع ثوانٍ، وأراد استعادة ما حدث في حياته دون نوم خلال الخمسين ساعة الأخيرة. هل الملائكة تريد الأمر هكذا أم أنه يجب ألا يعير كلمات العجوز اهتماماً؟ حينئذ ترك الفم يتكلم قبل أن ينطق العقل.

- حسناً. لن أدخل الفندق. سأحمل له الحقيبة.

أخرج الحارسُ الحقيبةَ من السيارة وأعطاها له، وبالتزامن أشار لتاكسي لكي يتوقف. كشفت ابتسامة الرجل هذه المرة أن نابه الأيمن غير موجود. ومثل ممثّل كوميدي يؤدي دور البواب في فندق فخم، فتح نيمسيو سانتليش باب التاكسي، أدخل الحقيبة، ثم أمسك بكوع أنخيل سانتياغو ودفعه للداخل. بعد ذلك وضع يده في جيب السترة، وأخرج ورقتين فئة الألف بيسو ووضعهما في يده.

- أنت مدينٌ لي بأربعة آلاف بيسو الآن. اللعنة عليك وعلى أمك!

35

نشبت نقاشاتٌ حول صاحب الفكرة الأصلية: هل كان بيرغارا غراي، أم أنخيل سانتياغو؟ لكن، على الرغم من هذا، لا يوجد شكٌ في أن إعداد كلتا الخطّتين تمّ في أكاديمية باليه كوبيليا، بعد أن تحمّست مالكتها والمدرّبة بالثلاثين ألف بيسو مقابل مصروفات الشهر الجاري، ومبلغٍ مساوٍ من حساب ديون فكتوريا بونثيه خلال الشهور الثلاثة الأخيرة. لكن الظهور المفاجئ لهذه الثروة جعل السيدة، التي قدّمت نفسها لنيكو باسم: روث أويوا، وهي تحرّك أجفانها كمصّاصة دماء، توفّر للشريكين حَشيَّتين وبطانيّتَين، بل ومصباحاً أيضاً، لأنهما صرّحا بحاجتهما إليه من أجل دراسة الخطّة ليلاً.

لكن راقصة الباليه السابقة التي تحافظ على قوامها أُخْبِرَت بالخطّة «أ» فقط، وهي الخطّة المُعلنة لمن يرغب في التطفّل على مائدة التصميمات الهندسية التي أعارها المهندس المعماري شارلين من المكتب المجاور، ولم تكن تعرف أيّ شيء عن الخطة «ب»، خطة القزم ليرا، التي كانت تتضمّن تحرُّكاً جزئياً بالمصاعد الألمانية ذات الجودة من ماركة شيندلر.

تم إيداع فكتوريا بشكلٍ «مؤقّت»، حسبما قال أنخيل سانتياغو، في بيت الأرملة بونثيه المتواضع. لم تُبدِ الأمّ أيّ بوادر على الدهشة أو

الانزعاج، عندما رأت ابنتها تهبط من تاكسي برفقة رجل رماديّ الشارب وشابٌ صغير فاقد التركيز ومتعجرف، ذهب إلى غرفة الفتاة كأنها تخصّه.

عندما سُئلت المرأة ما إن كانت قد لاحظت غياب طفلتها في الأيام الأخيرة، أجابت إنها انتبهت لهذا بالفعل في ساعة الإفطار، لأنها كانت تلاحظ أن حساء الخضراوات، المُضاف إليه بقدونس، والذي تتركه للعشاء في فرن المكيروويف في الليلة السابقة، يظلّ كما هو.

شرح لها بيرغارا غراي أن فكتوريا تعرَّصت لحالة إغماء بسيطة، وأنه حملها من الشارع إلى المستشفى، وأنها أمضت ليلةً تحت الملاحظة، وأن الأمر ليس خطيراً، وأنها ستستعيد عافيتها تماماً بعد يومين من الراحة. أرادت الأم أن تحكي شيئاً عن الحكاية الكئيبة التي حطَّت على العائلة، لكنّ الشاب قاطعها وغيَّر الموضوع، ليقول إن ابنتها تعاني من فقدان الشهية، وهو المرض الذي يُصيب راقصات الباليه وقائدي الخيول، الذين يجب أن يحافظوا على أوزانهم القليلة من أجل الاستمرار في مهنهم.

وقال بيرغارا غراي مؤكِّداً إن هذه هي الحالة. وأعطاها كيلو لحمٍ ملفوفاً في ورق صحفٍ، لكي تُعدَّ حساءً لا تنقصه البطاطس ولا القرع ولا الذرة بل وشيء من الفلفل والبقدونس أيضاً، وهو المزيج الذي سيُعيد البهاء لوجنتَي الآنسة بونثيه.

بعد غدٍ، في التاسعة مساءً تقريباً، سيمرّان لاصطحابها هي وابنتها، وعندما أخبرته المرأة مُنتحبةً أنها لا تخرج في الليل مُطلقاً بسبب اكتئابها، ردَّ دون نيكو إن كلّ هذا الكلام عن الاكتئاب لا يهمّه، وإن لم تكن جاهزة في التاسعة، بأفضل ملابسها وبنصف كيلو من الألوان على وجنتيها، فسوف يقوم شخصياً بجرجرتها خارج البيت، حتى وإن كانت عارية، ثم اعتذر عن الكلمات التي لم يكن مُعتاداً على استخدامها.

من جانبٍ آخر، كانت فكتوريا ممدَّدة على الفراش، وبجوارها عصير ليمون، وقُرصا أسبرين، ولم يبدُ عليها أنها مدركة للعواصف التي واجهتها لتظلَّ على قيد الحياة. كانت تداعب شعرها بيدها اليمنى مرّةً بعد الأخرى، واقتصرت على إعطاء معلومة، وتوجيه سؤال، رغم أنهما كانا متناقضين. أولاً: إنها لا ترغب في الحياة، وثانياً: سألت عما إن كانت مدربة الباليه ستقبلها في الأكاديمية تلك الليلة.

تجاوز الفتى عن الجزء الأول، وفكَّر أنه من التبعات التي لا يمكن تفاديها للإهانة التي تعرَّضت لها الفتاة، والتي دفعتها لمحاولة تدمير نفسها، لكنّه اهتمّ بشدّة بالجزء الثاني، وأكّد أن المدرِّبة تنتظرها في مساء اليوم التالي برقصة ميسترال.

دون نقود لركوب الحافلة، سار الشريكان ليلاً على أقدامهما نحو أكاديمية الباليه، ولكي يجعلا المسيرة أكثر خفَّةً، توقّفا أمام المبنى حيث كان كانتيروس وحرّاسه يحفظون الأموال التي يحصلون عليها بالابتزاز، وظلا يدخّنان بينما تقوم شاحنات البلدية الثقيلة بتفريغ صناديق القمامة الرمادية الضخمة، ثم تطحنها.

مزح بيرغارا غراي حاسباً أن أحد هذه الصناديق البلاستكية الكبيرة، بعد ملئه بالأوراق، يمكن أن يزن ثلاثين كيلو ومليون دولار. سأله شريكه بأمل: «هل تعتقد أن البدين كانتيروس يمتلك كل هذا المبلغ في الخزانة؟». وردَّ المحترف بنبرةٍ تعليمية: إن الضربة لا تستحقّ العناء إن كانت الغنيمة أقلّ من هذا.

وأضاف: «لكن، هذه هي الخطة «ب». لنعملْ بالخطة «أ»، وهي الخطة العاجلة الآن».

في تلك الليلة ذاتها، في أكاديمية الباليه، اجتمع كلٌّ من روث أويوا،

وأنخيل سانتياغو، وبيرغارا غراي، من أجل الخطة «أ» حول مائدة المهندس شارلين، بعد أن انتهت المتدرِّبات الأخيرات من تمريناتهن على العارضة وغادرن المكان. وفي وسط المائدة المصقولة النظيفة، فَرَد البروفيسور ورقةً كبيرة الحجم وأقلاماً مختلفة الألوان تسمح له بإبراز مهمّة كلّ شخص بوضوح.

مسؤولية البروفيسورة أويوا ستكون نقل الراديو الأخضر الخاص بها ماركة زينيث، إضافةً إلى مكبِّرَيْ صوتٍ ضخمين، وأيضاً الأسطوانة المدمجة التي تحتوي على موسيقا لويس أديس، التي تختلف بشكلٍ واضح عن «أغنية لبذرة» حول «عشريات» فيوليتا باررا. كانت الموسيقية التي ألَّفت «شكراً للحياة» من الجنوب، من مدينة تشيان بالتحديد، وميسترال تنتمي لسهول الصحراء القريبة من بكونيا. وجاءت بتُرمُس قهوة، وزَّعت منه جرعاتٍ صغيرة، لأن الليلة ما زالت طويلة والتكتيك والتفاصيل غير محدّدة بعد. حكت البروفيسورة روث للرجلين أنها قررت العثور على المؤلف الموسيقي أديس، بعد معرفة أن حكاية أبي فكتوريا قد ألهمتها اللجوء إلى «قصائد الموت» لغابريلا ميسترال، وقام أديس بإعداد المقطوعة الموسيقية من أجل الباليه، مُعتمداً على «تيمة» من شمال تشيلي تُدعى «الصحراء المزهرة».

فجأة، تسبّب المطرُ غير المتوقع، وثراءُ تلك المنطقة القاحلة بالمعادن والأملاح، في أن تتفجر الأرض والرمال، بل والجبال أيضاً، بالخضرة، بطريقةٍ مدهشة بين عشيّة وضحاها، شيء شبيه بفردوس عابر. حسب ما قال الموسيقار، فإن نسيج نغمته يجمع بين هذا التحوّل وفكرة الشاعرة التي تقتلع جسد المحبوب من التابوت إلى دفء العالم: «من القبر الجليدي الذي وضعك البشر فيه، وأهبط بك إلى الأرض المشمسة».

خلال تسع دقائق وأربعين ثانية، ببطء يبدأ ألمُ المُعذَّبة في الامتلاء

بالحنان، بينما يوقظ المطرُ زهورَ الصحراء حتى يجعل من كلّ المكان بيتاً مُشتَرَكاً للبشر: الضوء أيضاً يجب أن ينتقل من الظلام إلى العتمة، ومن العتمة إلى الظلال، ومن هناك إلى الرمادي المليء بالظلال، حتى يأتي بريقٌ أخضر، أو نطاق برتقالي بسيط، ليُولد في راقصة الباليه جسدُ المحبوب الذي يحمل الرحمة.

عندما انتهت المُدرِّبة من سردها، كان الشريكان (في الخطتين «أ» و«ب») ينظران بعمق إلى بقايا القهوة، وشكَّت المرأة أنهما لم يفهما أي شيء. أرادت أن تُنيرهما وقالت:

- هذا يعني أن كلّ موضوع الموسيقى والرقص ليس سوى مجاز. هل تفهمني يا دون نيكو؟

أدخل بيرغارا غراي أصبعاً في أذنه وغاص به عميقاً، كأنما إزالة القليل من الشمع سيعني أن الدرس سيدخل أذنه.

- «نعم». قال بابتسامةٍ مُعتذِرة، لأن الإجابة الحقيقية كانت: «لا».

أنخيل سانتياغو الذي يعرف طبيعة المُعلِّم المهادنة، أعلن أنه سيتولى مسؤوليّة العتاد والقوات المسلَّحة في الوقت ذاته، وهو ما يعني في هذه الحالة العريف أرنولدو ثونيغا في قسم شرطة غويتشورابا. وبينما يُعلن أن لا شيء سيعيق نجاح الخطة، وضع المسدس الذي سلبه من مأمور السجن سانتورو فوق مائدة الرسم، فشحبت مُصمِّمة الرقصات التي ما زالت مليحة روث أويوا.

تلقَّت ركبة الفتى ضربةً خفيّة من طرف قدم بيرغارا غراي، وخفَّف من حدّة الهجوم العسكري، وأطلق ضحكةً زائفة وهو يلقي بالسلاح في سلّة القمامة، ثم نظر إلى الساعة واقترح التوقف عن المزاح لأن الوقت يداهمهم.

يجب على الفتى المُتسرِّع أن يتحمّل فقط مسؤولية الكلام مع العريف، بينما سيقوم هو بالحديث -وكتب هذا بقلم أخضر على قصاصة ورق- مع مُعلِّمة الرسم السيدة إيلينا سانهويثا، ومع شريكة موناستريو، السيدة إيلزا -التي أنقذت كليهما-، بل ومع المأمور هويرتا ذاته.

بسبب الادّخار، قرّر أنخيل سانتياغو التخلّي عن فكرة التاكسي، وانتقل محشوراً في حافلة في طريقه إلى قسم شرطة غويتشورابا. انتظر في الإسطبل وهو يداعب الحيوانات، حتى دخل رجال الدرك لامتطاء الجياد واحداً تلو الآخر والخروج في نوبة حراسة. مع وقع حوافر الجياد المبتعدة، ساد صمتٌ وحميمية في قسم الشرطة. لم يكن هناك سوى المسؤول عن دفتر البلاغات، الذي كان ينسخ بضع مخالفات مروريّة، بينما خطّه المُعقَّد يجعله يُخرج طرف لسانه بين شفتيه. ذهب إلى العريف ثونيغا وهو يُقلِّد تحية عسكرية، إذ حمل أصبعين إلى القبعة التي لا يرتديها.

- هل تتذكّرني يا سيدي العريف ثونيغا؟

استغرق رجل الشرطة ثانيتين فقط على الرغم من دهشته. نهض ليعانقه بمودّة وهو يقول:

- كيف أنسى صاحب الحصان! ما أخبار هذه الجوهرة؟

- اتَّبعت نصيحتك. ذهبت به إلى حلبة السباق وتم تسجيله في سباق الدرجة الأولى.

- يا لها من مفاجأة سارة!

- تشارلي دي لا ميراندولا يثق به كثيراً.

- كم يستغرق في قطع الألف ومئتي متر؟

- دقيقة وخمس عشرة ثانية أو ست عشرة ثانية....

- سيكون طيّباً أن تُمطر. هناك جياد تتحرّك بثبات أكبر في الوحل. وما هو اسمه؟

- ميلتون.

- مثل مذيع كرة القدم ميلتون مياس؟

- نعم.

- سأمرّ على وكالة اليانصيب والسباقات لألعب على ورقة باسمه.

- تشارلي يثق به كثيراً.

جاء أحد جنود المراسلة بمقلاةٍ فيها لحم مقدَّد وبيض مخفوق، وبعد أن وضع الكثير من الملح، أخذ يأكل بشهية. أشار نحو موزة فوق المكتب وقال للفتى:

- تناولها!

- شكراً يا سيدي العريف، لقد تناولت إفطاري.

بعد بضع ملاعق مسح رجل الشرطة فمه بفوطة ورقية ماركة نوفا، واستلقى في مقعده للخلف ونظر بمودّة إلى الفتى.

- وماذا جاء بك هنا أيّها الشابّ؟

هذا السؤال العادي اليومي خضَّب وجه أنخيل بالحُمرة، وشعر أن يديه تبتلّان بعرقٍ مفاجئ.

- هل تتذكّر عندما قلت لي أن أعطي اسمك إن واجهتني أي مشكلة؟

- العريف ثونيغا، من قسم شرطة غويتشارابا، في خدمتك!

ابتلع الفتى اللعاب المتراكم وألقى بشعره للخلف ورفع ذقنه، ثم قال بنبرة خجولة:

- حسناً، أنا بحاجة إلى مساعدتك!

أدرك رجل الشرطة على الفور أن الكلمات التالية ستكون بوحاً بأسرار، دفع إحدى فتات الخبز الساقطة على المكتب بأحد أظافره، ثم نهض دون ضجيج لإغلاق الباب.

- تكلَّمْ!

- أتخيّل أن حضرتك، بخبرتك على هذا الجانب من القانون، قد شكَّلت فكرة عني.

جلس رجل الشرطة على طرف المكتب وعقد ذراعيه.

- في المقام الأول أنك على الجانب الآخر.

- في فترة تأهيل.

- لا يوجد شخصٌ كامل في هذه الحياة، وفي تشيلي على الأقل. فيمَ يمكنني مساعدتك؟

- اللعنة! كيف يمكنني أن أقول هذا لكي تفهمني!

- تشجَّع. الكلام ليس جريمة. ما دامت ليست محاولةً للرشوة - استدرك- رجال الشرطة لا يتمتعون بالمرونة في هذا الأمر.

- لا يا سيدي العريف، الأمر يتعلَّق بالعكس تقريباً.

- ماذا تعني؟

- قرضٌ.

نهض العريف ثونيغا من فوق المكتب وأمسك بالموزة، وبينما كان يتكلَّم لم يتوقف عن الدقّ بها على راحة يده. ابتسم بشفقة تقريباً.

- لقد أخطأت الطريق يا صديقي. طلبُ قرضٍ ماليّ من رجل شرطة يشبه سرقة مدّخرات شحاذ. رواتبنا هي الأسوأ في تشيلي. وإن لم يكن الأمر بسبب التأمين الصحي ومكتب الرعاية الاجتماعية الذي يهدينا لبن

نيدو للأطفال، فسيكون من الأفضل أن نصبح عاطلين. لقد شاركنا في الاعتراضات وأطلقنا حجارة على رجال الشرطة الآخرين.

ضحك الرجل بمزاجٍ رائق، وتشجَّع أنخيل واقترب منه، ثم قال بائحاً:

- في الحقيقة إنه ليس قرضاً مالياً. الأمر يتعلق بمساعدة لا يمكن أن يسديها لنا سواك.

- لنا؟؟!

- مممممم

- هل هي حكاية طويلة؟

- إن تكرَّمت وسمعتها بصبر...

- هل هي طويلة لدرجة أكل هذه الموزة بينما تحكيها؟

- سُباطةُ موزٍ كاملة.

- سأسمعها، لكن إن شعرت بالملل فسأقاطعك.

- اتفقنا.

- ما اسمها؟

- كيف أدركت أن الأمر يتعلَّق بهذا؟

- خبرة بوليسية. الاسم؟

- فكتوريا بونثيه.

- السنّ؟

- سبعة عشر عاماً.

- سوابق؟

أدار أنخيل سيجارة بين أصابعه ليخفّف ضغط التبغ قليلاً، ذهب إلى النافذة ونظر إلى سلسلة الجبال، وبعد أن طلب ناراً حكى قصة الفتاة دون إغفال أيّ تفصيل.

في العاشرة كانت قد مرَّت خمس عشرة دقيقة من الكلام، ولاحظ أن رجل الشرطة كان مُستغرقاً تماماً، عندما رنَّ جرس الهاتف وردَّ بحدّة: «ليعاودوا الاتصال في وقت لاحق»، ثم وضع السماعة بقوّة.

مُتَّبعاً حدسه الذي تُلهمه رؤية السماء المفتوحة والسحب المتناثرة بفعل الهواء وحركة العربات على الأرض المرصوفة بالحجارة باتجاه لا بيغا، لخَّص حياته بالكامل منذ خرج من السجن، مع تجاوز نقطتين لا علاقة لهما بالتماسه مُطلقاً: ضربة ليرا، وخنق مأمور السجن المركزي بالكوفية في الليلة الماضية.

في الدقائق الثلاث الأخيرة، بينما كان يُخفض نبرته البوحية أكثر فأكثر، دخل في أرض مُلغَّمة بالديناميت، وطرح طلبه، قائلاً إنه لا ينتظر منه تعويضاً مؤسّسياً للفتاة - «لأن أجيالاً أخرى أو القوانين ستتولّى هذا الأمر، إن آجلاً أم عاجلاً» - ، وإنما كان يريد مساعدته على مستوى قلبه البسيط كرجل شرطةٍ تشيليٍّ، كرجل يُفني نفسه في الخدمة العامة، وكأبٍ لأسرة، من أجل نجاح خطّته.

عندما انتهى الشاب من الكلام، كان العريف ثونيغا قد مطَّ شفتيه وضغط عليهما بإصبعين بقوة، في إشارة إلى التأمل. تاهت نظرته في الجدار كأنه يحاول فكر شفرة شكلٍ ما في البقعة البنية بلون القهوة التي تسبّبت فيها الرطوبة. غيَّر من وضعه وراجع موضع كل الأغراض فوق مكتبه. عندما اكتشف قشرة الموز، جعلها تستقرّ في سلّة القمامة بضربةٍ واحدة.

- «ماذا؟». تشجَّع أنخيل في النهاية، وتحدّث كأنه يقف على أطراف أصابع قدميه.

استغرق العريف ثونيغا نصف دقيقة لفكّ الزرّ الأخير في حزامه النظامي، ثم قال بابتسامة خالية من البهجة:

- يا أهلاً بالمشاكل!

36

اتَّجه بيرغارا غراي مباشرة إلى قاعة المُعلِّمين في المدرسة الثانوية، وأخذ يشرح الخطة «أ» لمُعلِّمة الرسم، التي قَبِلت المشاركة بسعادة، ما دام قد سُمِح لها بمبادراتٍ أخرى بدلاً من تلك المُقترحة؛ أي رسم بطاقات الدعوة بتصوير لغابريلا ميسترال التي تنظر إلى الشمس بكبرياء وهي ترقص. كانت ستساهم بالكرتون، الورق، مواد الرسم، الظروف من المكتبة الوطنية، الطوابع من البريد التشيلي.

- لا يوجد وقتٌ لكلّ هذا يا مُعلِّمة، إنها لن تصل إلى المتلقّين بالبريد السريع.

- سأتحدّث شخصياً مع ناقد جريدة «الميركادو» لكي يحضر.

بالطبع، كان اقتراح تصميم البطاقات يعود لمُعلِّمة الفن وليس للجاهل بيرغارا غراي. وكانت ترى أن تصميم بطاقات الدعوة يجب أن يقوم على خطوط برّاقة مثل «الحمامة» لبيكاسو على سبيل المثال، شيء يوحي عبر خطوطٍ قليلة بالقصيدة التي سيتم رقصها. وعلى الفور، أخذت في خطِّ ثلاثة نماذج في دفترها، وبعد إعجاب اللصّ وموافقته، قرّرت اختيار «المشروع رقم 1»، وتعهّدت أن يكون جاهزاً للإرسال والتوزيع بطريق «كوريور» - وهو المُصطلح غير الموجود في مُعجم الرجل- خلال ساعتين.

وبما أن ماكينة النسخ بالألوان غالية للغاية، سألت المُعلِّمة ما إن كان ممكناً أن يضع بيرغارا غراي تحت تصرّفها مبلغاً بسيطاً لتغطية بعض النفقات. بفصاحة، قام الرجل الذي يُكلِّفها بالمهمة الفنية والأخوية بإخراج جيوبه وقلّبها، دون أن يسقط منها أيٌّ شيء سوى تذكرة الحافلة التي جاءت به إلى المدرسة.

بحثاً عن وسيلة للكلام مع تيريزا كابرياتي والمساهمة في تقريبها من بيرغارا غراي، استولت إيلزا على دفتر شيكات الشريك موناستريو، وخفّفته من شيكٍ بمئة ألف بيسو، دون التأكّد ما إن كان هناك رصيدٌ في البنك أم لا. في تلك المرة ذهبت بالتاكسي حتى بيت المرأة، وعلى أمل أن تدعوها للدخول اشترت بضع قِطع حلوى تشيلية، ومن بينها «بريتثبيه»، التي يكون مذاقها رائعاً مع الشاي الذي يجب أن تدعوها إليه الزوجة العدائية لصديقها.

إضافةً إلى الشيك، كانت تحمل الدعوة: نثرت السيدة سانهويثا على اسم تيريزا كابرياتي بودرة مذهّبة شبيهة بتلك التي تستخدمها راقصات العروض الموسيقية لتحديد منحنيات النهود. وبما أن الدعوات الأخرى، بما فيها دعوتها، كانت تفتقد لهذه اللمسة الإضافية، فقد خمَّنت موظفة الكاشير أن نيكو قد أسرَّ للفنّانة بمشاكله العاطفية.

بعدما دقّت الجرس وتشمَّمت منتصف صدرها، وقفت أمام باب شقّة تيريزا كابرياتي، التي فتحت الباب بالكاد، وصدرت عنها عبارة الترحيب التالية دون رغبة حقيقية:

-آه، أنت!

لم تَنْثَنِ عزيمة المرأة، أخرجت العملَ الفنّي من حقيبتها المحاكية لجلد النمرِ، وأظهرت جانب البطاقة البرَّاق.

- بيرغارا غراي يرسل لك هذه الدعوة.

نظرت المرأة إلى البطاقة خلال برهةٍ بشفتين مزمومتين، ثم رفعت عينيها.

- ماذا يعني هذا؟

- إنها أخبار جيّدة. نيكو حصل على عملٍ كوكيل للفنانين.

- بالنظر إلى البودرة اللامعة التي غطّى بها اسمي، لا بدّ أنه يتعامل مع مبتذلاتٍ يتطلّعن للعمل كراقصاتٍ في العروض الموسيقية. أولئك الراقصات بنجمةٍ لامعة على طرف الحلمة وريشة نعامة في المؤخرة.

- تيريزا، أنت تعرفين أن بيرغارا غراي رجلٌ وقور. الأمر يتعلّق برقص كلاسيكي وليس أقلّ من هذا.

- وماذا يفهم في هذا؟ ذات يوم حملني لمشاهدة «بحيرة البجع»، وشعرت أن الأمر سيّان بالنسبة له إن كان البجع أو البطّ هو من يرقص.

- في هذه المرّة ستجدين مفاجأة. يتعلّق الأمر برقصة مستوحاة من غابريلا ميسترال.

- «أطفال بأقدام صغيرة، زرقاء من البرد، يا إلهي، كيف يوجد من يراكم ولا يغطيكم؟»

- أنا أُفضِّل رؤية نيكانور بارا.

- لا أعرفه.

- أطفال بأقدام صغيرة، زرقاء من البرد، يا ماركس، كيف يوجد من يراكم ولا يغطّيكم؟

- وأرهقت نفسك بالمجيء حتى هنا لكي تعطيني هذه التفاهة؟

داعبت موظفة الكاشير قفل حقيبتها بتواضع مُصطنَع، وقالت كأنها تشعر بالخجل:

- لا. أحمل شيكاً أيضاً!

- «ادخلي». قالت تيريزا كابرياتي وهي تفتح الباب.

ما إن دخلت غرفة المعيشة حتى ظهرت لفافة الحلوى، وذهبت صاحبة البيت إلى المطبخ لتسخين ماءٍ من أجل الشاي. استغلّت إيلزا هذه المهلة لتفحُّص جدران الغرفة بعناية. كشفت لها نظرة شاملة أن حضور بيرغارا غراي قد أُقتُلِع بعناية من ذلك الصالون. في أيام المجد كانت الجدران المائلة للصفرة تحمل صورةً رائعة تجمع بين تيريزا ونيكو يوم العرس، وكان برفقتهما كاردينال تلك الفترة لا أكثر ولا أقل، الذي كان من أقارب العروس البعيدين. وقد استطاعت إقناعه بالتصوير معهما متوسلةً ببركةٍ لم تكن ناجعة في زواجهما.

عندما عادت بفنجانَيْ شاي، أخرجتا حلوى «بريتثيبه» من اللفافة، وتناولتاها دون الاهتمام كثيراً بفتات السكّر المتساقط على السجّادة.

- تيريزيتا!

- أكره أن تطلقي عليّ هذا الاسم!

- معذرة! هل تتذكّرين أننا كنّا نتخاطب دون ألقاب قبل سنوات؟

- لا أتذكّر ولا أرغب في استعادة أيّ شيء من تلك الفترة. كنت تتحدّثين عن مُستنَد؟

- «نعم، بالطبع، نعم». قالت إيلزا، كأنما نَسيت. لكن على الرغم من توكيدها، لم تفتح حقيبتها، كأنّ فكرةً غريبة تمنعها من كبح الحاجة إلى الشرود بأفكارها. أنت تعرفين أن بيرغارا غراي يعشقك بجنون، أليس كذلك؟

- هذه عبارات جديرة بالمراهقين. ما يميّز الشخص الذي يُحبّ

هو قدرته على إعالة أسرته بكرامة. لقد بدأت في العمل بالخياطة. هذا يُخجلني. تخيّلي: «تيريزا كابرياتي خياطة!».

- إنك لا تدعين له مخرجاً.

أوشكت المرأة على سحب كلماتها قبل أن تنطق بها، لكنّ شيئاً ما أوعز لها أنّ كلّ جهدها لن يساوي شيئاً، إن لم تتكلّم في تلك اللحظة، حيث كانت في كهف الوحش. على الرغم من كل شيء، رشفت الشاي بينما عبارتها الأخيرة تثير فضول جليستها.

- ماذا تعنين؟

- بيرغارا غراي يتعذّب بسبب تناقضٍ كبير. عندما كان في السجن كان يحلم بالحياة بجوارك، والآن بعدما حصل على حرّيته لا تسمحين له بهذا.

- لا أرى أيَّ تناقض. لم أكن بجواره في أيٍّ الحالتين، سواء في الماضي أو الآن.

- لكنّك تطالبينه بأن يُعيلك!

- هذا أبسط شيء! إن كنت تحملين شيكاً من أجلي، أعطني إيّاه!

- أنت تعرفين أن نيكو قادر على تنفيذ ضربة رائعة. كلّ الوسط ينتظر هذا. لكنّه يكبح نفسه، لأن فشله يعني عودته للسجن، ولن ترغبي في رؤيته مرة أخرى. لكن إن نجح، فستنتهي ضائقتك المالية.

- يا إلهي، توقفي عن اللفّ والدوران يا امرأة!

- الأمر أكثر شفافيةً من الماء. أُنظري، الشيء الوحيد الذي يمكن لبيرغارا غراي أن يفعل هو «ضربة معلّم». لن يعرض عليه أيُّ شخص عملاً كصبيٍّ في الستّين من عمره. وبصحيفة سوابقه لا يمكنه أن يتقدّم إلى كانتيروس للعمل في فريق الحراسة الذي يستأجره.

- حسناً، لكنّه الآن وكيل فنانين!

أخرجت إيلزا الشيك ووضعت المبلغ أمام عينيها بتحدٍّ.

- «مئة ألف بيسو !». صاحت تيريزا. «إن هذا لا يصل إلى إيجار الشهر».

نهضت إيلزا ونفضت الفتات الذي يلوّث جونلتها، بضربةٍ من يدها.

- لتأخذي قراراتٍ، يا صديقتي!

- أنا سعيدة برؤيتك. لكن أيّ قراراتٍ تعنين؟

- امنحيه شيئاً من الحنان، وسيصل هذا الرجل إلى نهاية العالم من أجلك! مهما حدث، لا يوجد لديه أيّ شيء ليخسره. إن مات أثناء العملية، لن تريه بعد ذلك، لكن بما أنك لن تريه في كلّ الأحوال، سيظلّ كلُّ شيء كما هو. إن ذهب للسجن، يمكنك التحرر من واجب زيارته، وهو ما فعلتِه طوال السنوات السابقة، وأؤكّد، كلّ شيء سيظلّ كمّا هو. وإن نجح، فسينهمر المال في شلّالات، وبما أن كل الناس تعرف أن الضربة لا يمكن أن تكون قد تمَّت إلا على يد بيرغارا غراي، يجب أن ينتقل ليعيش في الخفاء، ولن تريه مُطلقاً، ومرّةً أخرى النتيجة ذاتها: كلّ شيء سيظلّ كما هو، لكنْ مع وجود مالٍ لاحتياجاتك.

تردّدت مالكة البيت بين ضيقها، لأن هناك من ينصحها دون تصريحٍ منها، ورغبتها في العثور على حلولٍ للأوضاع المتردّية.

- أنت تعرفين أنني لم أعرف رجالاً طوال هذه السنوات، ولا حتى عاشق عابر.

- هذا يُحسَب لك. لكن لنيكو أيضاً.

- ماذا تعنين؟

- العثور على إنسانٍ مثله في هذه الأيام يُعتبر أمراً مستحيلاً. أيُّ شخص سيبدو كالصبي أمام ذكراه.

- كان عاشقاً جيداً. لكن انتهى كلّ شيء.

- هذا ما يقوله كبرياؤك. لكن من يعرف ماذا سيقول قلبك إن تركتِه يتحدّث.

- لا أعرف ما يمكن أن يقول قلبي، لكنني أعرف ما يقول لساني. اِرحلي من هنا يا إيلزا!

كانت موظفة الكاشير قد تقدَّمت نحو الباب. نظرت بشيء من الاهتمام نحو قطعتَي حلوى تطلبان من يأكلهما فوق المائدة، لكنها أحجمت، لأن حملهما سيكون من الفظاظة بمكان.

- هل ستأتين للباليه؟

- لا أعتقد.

- حسناً. على أية حالٍ، لا تُمزّقي الدعوة! تفصيلة البودرة الذهبية خطرت لنيكو ليحتفي بك.

- ماذا أفعل يا إيلزا؟!

تأرجحت الموظفة على مقبض الباب، وبدا عليها الضجر لأول مرة.

- كوني صادقة مع نفسك يا تيريزا كابرياتي!

بعد ثلاثة أيام من بقائه حبيساً في غرفة الفندق، أيقن ريغوبيرتو مارين أن الأمور لا تسير حسب خطّته. انتهز فرصة نزول الخادمة التي تنظف غرفة برغارا غراي للردّ على التليفون ودخل الغرفة. وفتح الدولاب بجذبه مرتين أو ثلاث، قَلَب حشيّة الفراش ودخل تحته ليتحسّس الأرض ليرى ما إن كان هناك لوحٌ مُتحرّك يصلح للاختباء.

كانت الغرفة فارغة مثل ستاد كرة قدم في وسط الأسبوع. وعندما ربت على لحيته النابتة لاحظ عدم وجود ماكينة أو رغوة في الحمام.

شخصٌ ما قام بتهريب بيرغارا غراي والملاك في لحظة غفلة. كانت الغرفة في الطابق الأول، وعلى الرغم من أنه كان متأكّداً من بقائه منتبهاً ليلاً ونهاراً بتركيزٍ شديد، يمكن أن تكون أغراض بيرغارا غراي قد أُخرجَت عبر النافذة. وإن كان هذا التخمين صائباً، يجب أن يترك ندبة في وجه عاملة الاستقبال كجائزة على فطنتها وحدسها. هل تعرَّفت عليه على الرغم من مظهره الجديد واسمه المزيف؟ لم يكن هذا مستحيلاً، إن كانت المدام من عشاق اللص العجوز فلابد أنها تمتلك ملفاً كاملاً بأخبار الصحف عن المُعلِّم، وفي تلك الصفحاتِ لم يكونوا قد قتَّروا معه في المساحات أو الصور. ريغوبيرتو مارين كان الكتابة الشريرة خلف الوجه الودود الحالم في العُملة المُسماة بيرغارا غراي.

عندما عادت إيلزا من زيارة تيريزا كابراتي، رأت ريغوبيرتو مارين من ظهره بينما ينقش سطح طاولة الاستقبال بمديةٍ. لاحظت عبر المرآة أن الرجل رآها تدخل ولا مجال لأي محاولة للهرب: في خطوتين سيكون الرجل قد غرس مديته في كبدها ليتركها تنزف في المدخل.

- «مساء الخير يا سيد باررا تشاكون!». حيَّته بحماسٍ وهي تنظر إلى الأشكال التي نقشها زبونها على الخشب. كانت مجموعة من الأعلام التشيلية، يمكن تمييزها بتوزيع المستطيلات والمساحة المربعة بالنجمة في الطرف العلوي الأيسر.

- مساء الخير يا سيدة إيلزا!

- أرى أنك تحبّ فنّ النقش.

- ليس بشكل خاصّ. لكن يجب أن أسلّي نفسي بشيء ما.

- أتخيل أنك وطني كبير. نقشت ستة أعلام تشيلية.

- ما رسمت لا يفتقد للأهمية. لكن قبل هذه الأشكال الطفولية المتواضعة أريد لفت نظرك لشيء، للأداة التي استخدمتها.

وغرس المدية المُعتبرة في الطاولة، بحيث ظهر نصلها العريض الحاد.

- يتعلَّم المرء تقدير سلاحٍ كهذا في هذا الحي. فيمَ يمكنني مساعدتك يا سيد ألبرتو؟

ودَّت المرأة خلع المعطف، لكنها تراجعت لأنها فكَّرت أن النسيج السميك قد يقلّل من قوة الطعنة إن اتجهت للقلب.

- أن تخبريني بالحقيقة في أمرين.

- اِسأل وسأردّ عليك.

- نزع المجرم المدية، وظلّ يتلاعب بها كأنها قلم رصاص.

- بيرغارا غراي يقيم هنا، أليس كذلك؟

- بما أن كل الناس يعرفون أنه حصل على حريته بشكل قانوني بعدما انتفع بالعفو، لا يمكنني نفي هذا. لكنني أريد تصويب تفصيلٍ واحد فقط. «كان يُقيم هنا».

- متى رحل؟

- بما أنه كان يمرّ بضائقةٍ ماليّة، فقد رحل خلسةً ولم يسدّد الفاتورة.

- خلسةً لدرجة أنه حمل كلّ أغراضه دون أن ينتبه أيّ شخص.

- أنت تعرف أنه مشهور بالمهارة.

- لكنه ليس الساحر «جان دارك».

تقدَّم نحوها ودفعها نحو المشجب وقرَّب المدية من أنفها لتشمّها.

- ماذا تريد؟

- معرفة مكان بيرغارا غراي. إن كنت تحاولين حمايته فلا تقلقي! إنني أريد عرض خدماتي عليه فقط، من أجل الضربة التي يُجهّز لها.

كانت إيلزا بحاجة إلى تغيير خطابها. كان من الضروري أن تعرض

عليه شيئاً ما ليُبعد طرف المدية الحاد عن وجنتها بضعة سنتيمترات. كانت تتعامل مع عاهرات وسكارى ولصوص ونصّابين وتجّار مخدّرات من الكبار والصغار في الحي، لكنها لم تتعامل مُطلقاً مع قتلة محترفين.

- ماذا ستفعل بي يا سيد تشاكون؟

- حسب المعلومات التي تقدّمين، طعنة في القلب أو خدش في الفك.

- لا أودّ أن أعيش مشوّهةً بندبة. جلدي رقيق، ابتسامتي عذبة، وفي هذا العمر نحتاج - نحن النساء - إلى الحفاظ على شيء جذّاب. وهكذا، إن تكرَّمت، فأنا أُفضِّل أن تقتلني.

- أين البروفيسور؟

- يُجهِّز لضربة.

- أين؟

- لا أعرف الآن. لكنني سأعرف عندما يستقرّ في مكانٍ ما.

- لماذا؟

- لأنه وعدني بهذا، وهو رجل طيّب.

- كم قدر المال في هذه العملية؟

- مليون دولار تقريباً.

- من هي الضحية؟

- لم يقل لي أيّ كلمة عن هذا.

أبعدَ ألبرتو باررا تشاكون المدية، وعاد إلى الطاولة. لم يكن قد انتهى من العلَم السابع، وأخذ ينقش على الطاولة بمديته ليُكمِله.

- «متى ستتم الضربة؟». سأل وهو يُكمل عمله بتركيزٍ شديد.

- بعد غدٍ، أو الثلاثاء بحدٍّ أقصى.

نظَّف باررا تشاكون كُمَّه من نشارة الخشب التي تخلَّفت عن عمله.

- ما هي علاقتك ببيرغارا غراي يا سيدتي؟

مرَّت المرأة يدها على عنقها، وجرَّبت ما وصفته قبل قليل بـ«الابتسامة العذبة».

- الرَّب لا يسأل كلّ هذه الأسئلة! وفوق هذا يعفو.

- مفهوم. هل تعرفين من أكون حقيقةً؟

- لا أعرف. لكنك لست ألبرتو باررا تشاكون. أُنظر في السجلّ؛ سترى أنني سجلتك باسم إنريكيه جوتيرث.

- لماذا فعلت هذا؟

- إنه اسم أستعيده بسهولة إن كان هناك تحقيق بوليسي. أتخيّل أن هذا لا يضايقك....

- الأمر سيّان بالنسبة لي. ستتفق على ما يلي: سأحافظ على جلدك، وعندما تتلقّين حصّتك من الغنيمة تعطينني شيئاً ما.

- كم؟

- أنا متواضع. ليس الكثير بدرجةٍ لا تروق لك، ولا القليل بدرجةٍ تثير حفيظتي.

- اتفقنا. هل يوجد أمر آخر يمكنني أن أؤدّيه لك يا سيد باررا تشاكون؟

- إن كان ممكناً أن تُعدّي لي حساءً. لم آكل منذ يومين.

في فجر المُهمّة، قبل أن تصطحب زوجتُه الطفلين للمدرسة، أيقظ العريف ثونيغا زوجته مابيل، وعانقها بقوّة تحت دفء الملاءات الخشنة والبطانيات الثقيلة التي كانا يتلقّيانها من مكتب الرعاية الاجتماعية، وقال إنه يريد أن يطلب نصيحتها في أمرٍ ما.

أبدت اهتماماً بمزاجٍ رائق كأنه لم يوقظها قبل ساعة من رنين المُنبه. بل إنها وضعت ذراعها تحت عنق زوجها، وأخذت تداعب قفاه لأنها كانت تخشى اعترافاً شائكاً.

- ماذا سيكون من أمرك إن فعلت شيئاً غير قانوني؟

- شيء مثل ماذا؟

- ليس أمراً خطيراً.

- ليس سرقة أو جريمة؟

- لا شيء من هذا. إنه ببساطة فعلٌ ليس مُصرَّحاً لي القيام به، وعلى الرغم من هذا أفعله.

- بمَ يتعلَّق الأمر.

- إنه أمرٌ عصيٌّ على الشرح يا مابيل. إنه ليس أمراً جيداً، لكنني أشعر من أعماق قلبي أنني يجب أن أؤدّيه.

- اللعنة! يا له من غموض!

- إنني لا أريد التأثير على نصيحتك.

- إن لم تحكِ لي، لا يمكنني نُصحك.

- دعيني أشرح الأمر بطريقة أخرى.

اعتدلت المرأة وأسندت كوعها على الحشية وأراحت ذقنها في يدها. بلّل زوجها شفتيه. كان يرتدي فانلة من تلك التي تحمل ثلاثة أزرار في الصدر.

- تكلَّمْ!

- لم أسألك عن هذا من قبل. ربما هي مجرد حماقة، لكنني أريد أن أعرف. هل تشعرين بعدم الراحة لأنك متزوجة من رجل شرطة؟

- أيّ أشياء تقول؟ أنا لا أراك «رجل شرطة»، دائماً ما كنت زوجي، أرنولدو.

- وقبل ذلك؟

- حسناً، كنت خطيبي أرنولدو ثونيغا، وقبل ذلك كنت حبيبي، وبعد ذلك أصبحت أبا طفلينا، ديليا ثونيغيا وروبن ثونيغيا. كونك رجل شرطة أم لا، فهو لا يعني أي شيء خاص بالنسبة لي.

- لا أصدقك.

- إلامَ تشير؟

- إلى ما يقول الناس. بما أننا نكون موجودين كلما كانت هناك اعتراضات وأحياناً نضرب...

- هذا يحدث في بعض الأحيان فقط. إنها قواعد اللعبة. توجد شرطة في كل أنحاء العالم.

- لكن الشرطة في كل أنحاء العالم لم تفعل ما فعلته في تشيلي.

- ماذا تعني؟

- اللعنة! التعذيب، الاغتصاب، المعتقلون المختفون.

- عمَّ تتحدّث؟ لم تكن قد وُلدتَ قبل ثلاثين عاماً.

- لكنك سمعت ما قاله عضو مجلس النواب بالأمس في التلفزيون. توجد مسؤولية مؤسساتية.

- بالطبع توجد مسؤولية مؤسساتية. لكن يجب أن يعتذر من أصدروا أوامر القتل، وليس أنت، ففي ذلك الوقت كنتَ في بطن أمك.

- ألم يحدث قطّ...؟ أخبريني بصراحة!

- تكلَّمْ!

- ألم تتعرّضي لمشاكل لأنني رجل شرطة؟

- بضع مرّاتٍ فقط. عندما قذفوا النوافذ بالأحجار. عندما رفض عمُّك البقاء في حفل زواج شقيقك لدى وصولك....

- وكيف ينظر إليك الناس؟

- أحياناً ينظر البعض بشكل غريب.

- ألم تتعرّضي لأيّ شيء لا أعرفه؟ شيءٍ ما فضَّلتِ عدم إخباري به؟

- حدث شيء ما.... لكن قبل عشر سنوات...

- ماذا حدث؟

- ما أهمية كلّ هذا لك؟

- ماذا حدث يا مابيل؟

- ألقوا دلواً من الخراء على الباب.

- لماذا لم تخبريني؟

- كان عليّ أن أتحمَّل تنظيف هذه القذارة، ولم أرغب في رؤيتك تتألم لأن هذا كان سيؤلمني. خاصة أن هذا حدث قبل شهرٍ من ميلاد روبن.

- يقولون في التلفزيون إن هناك مصالحة في البلاد. هل تصدّقين هذا؟

- لا يا أرنولدو، لا أصدّق هذا.

- ماذا ينقص إذاً لكي تكون هناك مصالحة؟

- بادرات. بادرات من العسكر تُفصِح عن شعورهم بالندم.

- ورجال الشرطة؟

- ورجال الشرطة أيضاً.

نهض ثونيغا من الفراش في قفزة، وفتح الستارة عندما سمع صياح ديك الجيران.

- إذاً، إن قمت ببادرة تجاه شخصٍ عانى كثيراً بسببنا، ألن تغضبي مني؟

نهضت زوجته من الفراش في قفزة أيضاً، واتجهت نحوه وهي تشعر بالقلق.

- أنت لن تفعل أيّ شيءٍ مُطلقاً. هل تسمعني؟

- هكذا، فأنت تُبشّرين بالكلام، لكن لا تطبّقينه على نفسك!

- ماذا ستفعل؟

- أتصالح مع نفسي.

- هل سيفصلونك؟

- يجب أن لا يعرفوا.

- وإن عرفوا، هل سيفصلونك؟

- سأبحث عن عملٍ آخر.

- نصف الناس عاطلون. ما الذي يُضحكك هكذا؟

- الحياة. الحياة تُضحكني. إنها مثل مباراة كرة قدم. يمكنك البقاء في منطقة الخصم خلال تسعين دقيقة ولا تحرزين هدفاً. وفجأةً يتم احتساب ضربة ركنية، وتحطُّ الكرة على جبهتك، والشيء الوحيد الذي يجب عليك هو دفعها برأسك قليلاً لتدخل في الشبكة. هكذا ببساطة: غول!

جذبته المرأة من الفانلة وسقط أحد الأزرار على الأرض. أراد التقاطه، لكنّها ثبّتته بقوّة.

- طيلة حياتك تعيش بأزرار مقطوعة. أخبِرني، ماذا ستفعل!؟

أبعدها أرنولدو ثونيغا برقّة، وقال بنبرةٍ لطيفة:

- سأحكي لك ونحن نتناول الإفطار.

اتَّجهت مابيل ببطء نحو المطبخ.

- أشعر بخوفٍ يا أرنولدو.

- لا يا امرأة. سترين أنه أمرٌ بسيطٌ.

وفي تلك اللحظة انحنى لالتقاط الزرّ، أخرج من الدولاب خيطاً وإبرة، وجلس ليخيطه كما علَّمته أمّه.

37

«إنها خمس دقائق، الحياة أبدية طوال خمس دقائق»، هكذا غنَّى فيكتور غارا في «أتذكَّرك يا حبيبتي»، وكانت هذه هي النغمة التي كان أنخيل سانتياغو يُصفِّرها طوال الظهيرة. بالطبع كانوا بحاجة إلى أكثر من خمس دقائق: عشر دقائق تحديداً، الوقت الذي تستغرقه المقطوعة الموسيقية للموسيقار أديس. لكن خلال هذا الوقت المُستقطع الضئيل للغاية في تاريخ المجرَّة «يجب أن يحدث كلّ شيء»، حسب التعبير الذي قدَّمه الشباب في تشيلي في العقد الأخير.

خروج المال من الحصَّالات والحشيّات وحسابات التوفير، التقليل في قائمة المشتريات، قروض غير مُصرّح بها من الخزانة الصغيرة للبار، مساهمة جماعية من حارسي السيارات في شارع تابيرناس، مُقَدَّم لبيع أثاث مسكن مُعلِّمة الرسم، زيارة من بيرغار غراي لبيت الرهونات بخاتم العرس الذي وضعته تيريزا كابرياتس في إصبعه قبل القُبلَة المُباركة من الربّ، تنازل مابيل ثونيغا والأنجال عن السينما يوم الأحد، مساهمة من دي لا ميراندولا، الذي أهدى إحدى الأوراق المالية التي كان سيراهن بها على ميلتون يوم السبت، وتفاصيل لا نهاية لها، وربما يجب إبراز هدية الأرملة الجميلة آليا تشيلو التي قدَّمت ربطات العنق من الحرير

الإيطالي، من دكّانها في شارع بروبيتشيا، للمشاركين من الذكور في المؤامرة.

اجتمع الحضور في مقهى «بويما» في المكتبة الوطنية، وقد تقمَّصوا أدوار القرّاء النهِمين حتى العاشرة مساء، عندما تحقّق بيرغارا غراي من عدم غياب أيٍّ من المشاركين في المؤامرة أو المدعوين. أوصاهم البروفيسور الإجرامي العجوز بالأناقة والدقّة في المواعيد، ولم يخذله أيٌّ منهم.

اتَّجه بثقةٍ إلى العمود الأخير. وهناك كانت فكتوريا بونثيه تستند بظهرها مُستقيماً، رأسها مرفوع، وساقها متعامدة على ركبة الساق الأخرى، في وضع 4 الذي يُطلب تأديته من الناس لمعرفة ما إن كانوا قادرين على قيادة السيارة، بعدما أفرطوا في الشراب: الوجه نظيف، دون نقطة ماكياج واحدة، لا يوجد سوى الشحوب العنيد الذي تحمله من مرضها حديث العهد.

– هل أنت بخير يا صغيرة؟!

– في أفضل حال يا بيرغارا غراي.

– ألا تعتقدين أنك قادرة على مخاطبتي بنيكو بعد كلّ ما مررنا به معاً؟

– لن يحدث هذا مُطلقاً يا مُعلِّم. أحبُ نطق لقبك والحفاظ على الاحترام. بيرغارا غراي يبدو اسماً لسياسي، أو لفيلسوف. مثل خوسِه أورتِغا إي غاسّيت.

– عائلتي مرتبطة بمخترعة التليفون، السيدة غراي، لكنهم سلبوها براءة الاختراع في مكتب التسجيل.

– ماذا سنفعل بدءاً من الآن يا بروفيسور؟

– إنها حياتك. بعد ذلك يجب أن ننطلق في حياتنا.

- من؟
- أنا وأنخيل سانتياغو.
- هل ستقومان بالضربة؟
نظر الرجل حوله بحذر، ثم عاد للفتاة حازماً.
- أمرٌ بعد الآخر. إن انتهت مغامرة الليلة على خير، ربما نفسّرها كإشارة طيبة.
- كم تبقّى؟
- خمس دقائق.

أصدر أنخيل سانتياغو الأمر بالخروج إلى شارع مونيدا، وساروا حتى ماك إيفر، وواصلوا حتى سان أنطونيو، ثم حادوا باتجاه أغوستيناس، وهناك، في منتصف المربع السكني، كانت الدورية الراكبة من قسم شرطة غويتشرابا تومض بأضواء الإشارة، والسارينة على السقف ترسم دوائر حمراء فوق الأسفلت الرطب.

ما إن اجتمعت المجموعة بالعريف ثونيغا، حتى أخرج مسدّسه أمام الجميع وكان أول من عبر مدخل الفنانين متبوعاً بالضيوف الذين تحلّقوا حول بيرغارا غراي. عندما وضع رجل الشرطة سلاحه على مبعدة سنتيمترات من الحارس، تحسّس أنخيل مسدس مأمور السجن سانتورو في جيبه، وقرّر أنه لن يتردّد في استخدامه إذا دعت الحاجة.

- «ماذا يحدث؟». سأل الموظف بينما يُمسك بالتليفون.
- كُلّما كانت أسئلتك أقلّ، كان رحيلنا أسرع. سنقتحم المسرح؟
- تقتحمون المسرح؟
- كنّا سنفعل هذا قبل ساعةٍ، لكننا قرّرنا الانتظار حتى يخرج كل المشاهدين.

- بمَ يتعلّق الأمر؟

- لدينا معلومات بوجود اثنين من الإرهابيين بين الحضور في الأوبرا اليوم.

- حقاً!!

- ولدينا معلومات أنهما وضعا قنبلة لتفجير مسرح البلدية. وجئنا لإبطال مفعولها.

- يا للرعب يا سيدي الملازم! لماذا سيرغب أي شخص في الاعتداء على معبد الفن هذا؟

تقدَّم أنخيل سانتياغو بحزمٍ، ووضع المسدس على مبعدة سنتيمترات من أنف الحارس.

- لأن هناك من يعتقد أن ما يُعرَض هنا انتهاكٌ لكلّ ما هو مقدّس. أوبرا حول رجل العصابات التشيلي، خواكين موريتا، الذي أهاننا في الولايات المتحدة. أوبرا كتبها الشيوعي بابلو نيرودا، ووضع موسيقاها الشيوعي سيرخيو أورتيغا، إلخ... هل تفهمني؟

- من أنت أيها الشاب؟

- المفتش إنريكيه جوتيرث، من إدارة جرائم القتل.

لمس السترة خلال جزء من الثانية لكيلا يمكن للحارس أن يرى أنه لا يحمل تحت الياقة سوى البطاقة المزيفة لشركة شندلر.

- وماذا يجب أن أفعل الآن؟

- أنت والعاملون، يجب أن تنجوا. من تبقّى منهم؟

- فنّي الإضاءة، مرشدو المقاعد، عمال النظافة.

- اطلب منهم المجيء بشكل عاجل دون أن تعطيهم تفاصيل.

- نعم، يا سيدي الملازم. هل يجب أن أتصل بالعمدة؟

- لا، يجب أن لا تفعل هذا مُطلقاً. لا نريد أن يتعدّى هذا الأمر الحدود الشرطية رغم طبيعته السياسية.

- تريدون التقليل من أهميته.

- بالضبط.

قام أنخيل سانتياغو بفتح الستارة المخملية الفاخرة العريضة، ووضعت مُصممة الرقصات روث أويوا، الراديو زينيث فوق خشبة المسرح على خلفية عرض «تألّق وموت خواكين موريتا»، وضبطت مستوى الصوت المناسب لكي لا تتعطّل عندما تكون «الراقصة الأولى» جاهزة، وأصاب حارس السيارات نيميسيو سانتيليثس التعامل مع المقبض الذي أضاء الثريّا الهائلة المُعلَّقة فوق رؤوس الحضور، ومن جانبه، وباستخدام التكنيك ذاته الذي يستخدمه لتحسُّس أقفال الخزائن، تعامل بيرغارا غراي مع أزرار جهاز التحكم عن بُعد التي تتيح له تصويب كشّافٍ على مركز خشبة المسرح.

جلس بقية عشّاق الباليه بوقارٍ في الصف الخامس من القاعة، بعيداً عن المكان الذي يُمكن أن توجد به القُنبلة المزعومة -مزحة العريف ثونيغا- وبعد تبادل كلمات تهنئة باللباقة والذكاء الذي سمح لهم بدخول معبد الفنون، صمت الجميع في الوقت ذاته، عندما وقفت راقصة الباليه فكتوريا بونثيه بأناقة في قلب ضوء الكشاف الربيعي، وبإشارة توكيدية تستخدمها سوبرانو لإبلاغ عازف البيانو المصاحب لها بجاهزيتها، أعطت الأمر لمُدرّبتها لكي تضغط على زرّ الراديو بالموسيقا التي ألَّفها السيد أديس من أجلها خصيصاً.

ظل أنخيل في أحد أطراف خشبة المسرح، لرغبته في تشارُك المنظر ذاته الذي ستراه محبوبته للصالة عندما تبدأ الرقص، وعندما جلس مستنداً على الستائر التي فتحها بمهارة، وضع السلاح على مرأى من الجميع، كرسالةٍ ضمنية بأن من يحاول مقاطعة العرض يجب أن يتحمَّل العواقب.

ولم يجلس بيرغارا غراي أيضاً في صفّ الشخصيات البارزة. بغضّ النظر عن الاكتمال الوشيك لحلمٍ وضعه القدر في طريقه، جعلته مسؤوليته كشريكٍ في الجريمة يقف أمام الباب، ربما حاول رجال شرطة حقيقيون أو موظفون متوتّرون مقاطعة السهرة.

حينئذٍ أخفض نيمسيو سانتليشس ذراع الثريّا، وشيئاً فشيئاً أخذت لمباتها في الانطفاء، ولم يعد هناك في الصالة سوى الضوء الخافت الذي يسقط على الفتاة، التي تلقَّت الدَّقة الأولى على البيانو مُقرفصةً، كأنما تصلّي من أجل الحبيب الغائب.

كانت الساعة العاشرة وخمساً وأربعين دقيقة، عندما بدأ العرض الراقص من بطولة فكتوريا بونثيه في مسرح بلدية سانتياغو عاصمة تشيلي.

38

نُشر التقرير التالي بعد يومين في صحيفة «الميركادو» بقلم المتخصّص في الفنون الموسيقية سيغفريدو فون هاسينهاوسين.

الشعر والرقص

لأسباب ٍمهنية أكثر من الحماس لعرضٍ غير مُبشِّر على الإطلاق، حضرت قبل ليلتين العرض الأول لأوبرا سيرخيو أورتيغا، المستندة على نصّ لبابلو نيرودا بعنوان «تألّق وموت خواكين موريتا». الأوبرا بالنسبة لي هي الأوبرا، جنس موسيقي راقٍ، ربما أرقى أشكال الموسيقا. لكن النص اللطيف لبابلو نيرودا، الذي شاهدته في شبابي في عرض مسرحي من إخراج بدرو أورثوس، وحسب ذكرياتي التي شوَّهتها السنين، لا توجد به إمكانات لأكثر من أوبريت بسيط مليء بالخدع.

لم تكن أبسطها إلقاء رأس رجل العصابات التشيلي خواكين موريتا لمونولوج، بعد أن ذبحه اليانكي وانفصل عن جسده. كل هذه المصطلحات ما قبل العولمية صادرة عن الغنائي نيرودا وعن المُلتزم أورتيغا. إن مسرحية ماكبث ذاتها لا تحتوي إقحامات بمثل هذه الدرجة.

منفى أورتيغا في فرنسا، حيث قام بتأليف أعمال سيمفونية وموسيقا حجرة أيضاً، هذا المنفى استطاع تخفيف التأثير التطهيري الذي يطول الجمهور المثقف المُعتدل لمعرفة أنّ المُعلِّم الرومانسيّ هو مؤلّف أنشودات كرنفالية مثل «الشعب المتّحد لن يُهزَم مُطلقاً»، التي أدَّت في زمن تشيلي الحمراء الشيوعية إلى أن يهتف الآلاف من متُعصّبي كرة القدم بالشعارات اللزجة بنبرات كريشندو بائسة، خاصة في كل تلك المسيرات البذيئة التي تحدَّت النظام الدستوري.

حسناً، الديمقراطية الهشّة المُهيمنة اليوم في تشيلي سمحت للنسيان أن يتقدَّم أكثر من الضغينة، وها هي ذي أبواب مسرح البلدية مفتوحة أمام هذه الملحمة الشيوعية، التي حظيت قبل ليلتين بتصفيق قاعةٍ مليئة بموظفين عموميين، و«برافو» مدوّية أكثر من مرّة، وتصفيق وقوفاً وصمتٍ جنائزيّ للسيدات الأرستقراطيات.

بل إنني رأيت في الاستراحة كيف تنسحب راعية الفنون الجميلة التشيلية مدام فلوير مكاي، بأنفها مشمئزاً وعينيها محتقنتين، كأنما قضمت سمكة عفنة على التو. أعرف أن اللوبي قد صرَّح لراديو أغريكولا أن «مسرح البلدية تعرَّض لطعنةٍ مميتة»، وأنهم كانوا يُفكّرون في مغادرة الفعاليات التي كانت تجمعهم برئيس المؤسسة، لكي يشغلوا وقتهم في التعليق على الملابس الأنيقة لسيّدات هرمات.

سأنتظر حتى عرض الأحد –اليوم الذي تتضاعف فيه طبعة هذه الجريدة خمس مرات – لكي أدلي برأيي حول العلاقة بين نيرودا وأورتيغا، لأنني أريد الإشارة قبل ذلك للحدث الغريب الذي وجدت نفسي متورّطاً فيه في ليلة «خواكين موريتا»، تلك، على الخشبة الرائعة ذاتها لمسرح البلدية. بدأ كل شيء بمكالمةٍ تليفونية من مُعلِّمة فنون تشكيلية في مدرسة

ثانوية حيث تدرس حفيدتي، وطلبت مني معروفاً كبيراً يمكنني به مكافأة أفضال أكثر بكثير أدين لها بها. لم تذكر التفاصيل، لأن الأمر كان يتعلّق بـ «احتفالٍ سرّيّ» شبيه تماماً بـ «سناك بريفيوز» الأمريكية، حيث سيتم تقديم مفاجأة لن تُقدَّم للجمهور إلا بعد فترة.

على الرغم من هذا، كانت تعليماتها محدّدة للغاية. بمجرّد أن ينتهي العرض الافتتاحي لتألّق ومَوت خواكين موريتا، يجب أن لا أغادر قاعة المسرح، وإنما التظاهر بأنني أعاني من ألم شديد في المعدة، ثم أدخل الحمّام الأنيق وأغلق الباب، وألا أعود إلى الصالة وإنما إلى عتمة إحدى المقصورات، حيث ستظهر، بعد ساعة، راقصة باليه شابة، ولنطلق عليها اسم «الببّغاء على الشجرة أو بيريكا دي لوس بالوتس»، كالمرأة التي كانت تكتب باسم مُستعار. وستقدّم رقصة قائمة على إحدى قصائد الموت لغابريلا ميسترال، شاعرتي المُفضَّلة بامتياز، في كلّ العصور والثقافات. إن عوُقبت في السماء ذات يوم، راكعاً أمام الرب، بمهمة تنقيح قائمة الحاصلين على جائزة نوبل للآداب، لن أتردّد في ترك اسم هذه الشاعرة فقط، هذه الشاعرة ذات العُمق التعبيري واللمسات الأنيقة.

كان الجمهور الغريب مكوناً من اثني عشر شخصاً تقريباً، موزّعين على بعض مقاعد الصف الخامس في الصالة، ومن بينهم ميَّزت مُعلِّمة الرسم ورجل شرطة يعانق صديقته أو زوجته بحنان.

كيف ولماذا ومتى تم التدبير لهذه السهرة الخيرية، فإن هذا مجهول تماماً بالنسبة لي. كنت على وشك تغيير رأيي والرحيل، شاعراً بأن مغص المعدة الذي تظاهرت به قد تحوَّل إلى حقيقة قاسية، عندما انطفأت الثريا الرائعة، التي تشبه شلالاً من الكريستال، ويفوق أفضل الألعاب النارية جمالاً، وأبقاني مشهد انطفاء الثريا القصير في الصالة.

وإضافةً إلى هذه المتعة، صدرت ثلاث نغمات نضرة من جهاز راديو،

فاتخذت راقصة الباليه وضعاً مهيباً. تأثرت كثيراً بمرونة هذا الرقص المُقدّس، وبالقدر ذاته بعطر النوستالجيا المميز لموسيقى أديس، الذي أشعر نحوه بالإعجاب منذ «أغنية بذرة»، هذه المقطوعة المهداة إلى فيوليتا باررا، والتي تفوق بمراحل «أغنية سانتا ماريا» لإيكيكي، ذكرى مريرة لتمرّد عمال منجم، التمرّد الذي قُمِع بميتاتٍ كثيرة، بواسطة الجيش التشيلي النبيل في بدايات القرن العشرين.

أن يكون الموتُ شيئاً آخر، رهيفاً وغامضاً، فريداً وغير قابل للشرح، ناعماً وعميقاً، فقد تمّت البرهنة عليه بالأمس، في الوحدة الهائلة التي خلقتها الراقصة - ولنقل اسمها- فكتوريا بونثيه فيما حولها: مجرّة من الألم والفراغ.

الحد الأدنى، والعرضي تقريباً، كشف بتأثير أكبر من الطبول والأبواق والأطباق النحاسية عن الموت السرّيّ الذي نقوم بتنميته في حيواتنا، في مفارقةٍ وتناقضٍ بين الطقس الميسترالي، والعشوائية غير المؤثّرة للأدوات الرخيصة في الأوبرا النيرودية.

أنا مُجرّد ناقد، ولم يُقبَل إلقائي للشعر. إن جازفت اليوم بهذه اللمسات الغنائية، فلأن الانصهار المستحيل بين الشعر والموسيقا قد تحقّقً بشكل سرّيّ في مسرح بلدية سانتياغو، بتعبيراتٍ جسدية فيها الكثير من أعمال مانريكي -«الصامت للغاية»، وكل الهدوء العاصف -معذرة على هذا التناقض اللفظي- للشاعرة غابريلا ميسترال.

أن يمتلك جسدٌ هزيل القدرة على جعل فضاءٍ ما مفعَماً بكلّ هذه الإشارات فذلك من أكبر ميزات فكتوريا بونثيه، فنّانة لم يرَها وربما لن يراها أيُّ شخص، فهي قد تدخل إحدى الزنازين الرطبة في سانتياغو لتدفع ثمن تجرّئها على الدخول خلسةً إلى مسرح البلدية.

تفتقد للصنعة؟ الذراعان والساقان يبدون لأشخاصٍ مختلفين، كما يحدث غالباً في الرقص الحديث؟ الخيال الحركي كان تكرارياً؟ كلُّ هذا، يا أعزائي القرّاء، لا يهمّني في أيّ شيء. كما يقول الشباب التشيلي اليوم: «لا يفرق معي». إن كانت هذه رقصة بسيطة حول الحميمية اليومية للموت، فإن الفنانة الشابة تجاوزت نقص خبرتها وإمكاناتها البسيطة، لتخلق شيئاً يجب أن يكون جوهرياً في أيّ عملٍ راقص كبير: الحقيقة.

أشكّ أن المُراهقة اللطيفة، في سنواتها الغضّة، تعرف الضيق إزاء الموت، القيامة اليومية التي نواجهها عندما نكون في حالة صفاءٍ عقليّ. ربما كانت تعرف الموت عن طريق قراءات ميسترال فقط، وعن طريقة قصيدة رومانسية ما، حيث يتأنّث الرجال ويتحدّثون عن «الموت عشقاً».

أيّاً ما كان الأمر، ومهما قِيل، سواء كانت ملاكاً أم وحشاً، فإن الآنسة فكتوريا بونثيه جعلتني أرتعش حتى البكاء، وأعترفُ، دون مواربة ولا خجل، أنني كنتُ ممّن قاموا بالتّصفيق لها وقوفاً، أي أنني كنتُ أحد الثمانية أو العشرة أشخاص الذين قفزوا من مقاعدهم عندما انتهى العرض، وأنني شعرت بتعاطفٍ تامّ مع الشاب الذي ترك المسدّس يسقط من يده، ليحمل إلى الفنانة أكبر باقة زهور رأيتها في حياتي.

39

مرَّت أصابع فكتوريا على وجه سانتياغو. يُخيّم الفجر خفيفاً على المدينة. تنسحب الضوضاء. يوجد صمت كامل. من حين إلى آخر فقط تدوّي سارينة الإسعاف عن بُعد، أو خبب حصان وعربته مع تجار الفواكه الذين يحملون الليمون إلى سوق «لا فيغا»، مع شعلة مدفأة غاز تنتج عنها انفجارات صغيرة.

تُكرّر هذا خلال بضع دقائق، كأن لمساتها يُمكن أن تحملها إلى داخل غياب الفتى.

كانت سعيدة في هذا الصمت. لكنها أيضاً كانت تريد أن تعرف. كانت تريد، على نحو ما، أن يتم التعبير عن فصاحة الصمت بالكلمات، حتى إن لم تكن دقيقة، حتى إن خاطرت بأن تُفسد عثرات لسانها كلماتِ تلك اللحظة، وأن تُهدِر التواطؤ الذي يجمعها بأنخيل سانتياغو كخاتم الزواج.

كان الفتى مُستسلماً. لم يُبعد نظرته عنها، وكان يحاول التَّفكير في جلسته بوضعية زهر اللوتس. كان يريد القضاء على الانقباض ويوجّهه إلى مكانٍ آخر، لكنه لم يفلح في هذا. لم تكن الخطة مع المُعَلِّم تُلحّ عليه كما في أيام أخرى. لم يكن قادراً على فهم هذا، لكنه يحاول. يخطر له هذا: كانت فكتوريا هي من قامت بالرقص، لكن كان هو صاحب فترة الراحة

التالية للرقص. بعد ذلك الاحتفال لم يعد العالم كما كان. كان عليه أن يعيد التفكير في كل شيء.

لكنها كانت تريد التفكير في كلّ شيء مرّةً بعد الأخرى. كأنما المستقبل ينفخ في الحاضر ويملؤه. شعور الوجود في هذا المكان وفي هذه اللحظة كان مُكتملاً. هناك مغزى لكلّ شيء، ولهذا لا تشعر باندفاع السؤال عن معنى كل هذا. تُمدِّد الفتى فوق الحشيّة وتهبط بشفتيها من الفكّ حتى السُّرَّة، وهناك تُمعن في اللعب بلسانها. أصابعها تتحسّس ما بين الأضلع. تزداد وتيرة تنفُّسه، وعندما يملأ صدره بالهواء، يتلقّى شعرُ صدره وهج المدفأة ويكتسي بلون نحاسي. القاعة فسيحة والليلة حميمية. أخذ المدعوّون يتركون أكواب النبيذ، الزجاجات التي أُخرجت من الدولاب، الراديو الذي يعمل بصوت مكتوم، عظام الديك الرومي فوق الصينية البلاستيكية، بقايا الخسّ الذي وُضعت عليه نقاطٌ من الخل الأحمر. كان العاشقان قريبين للغاية من قضبان التمرينات، وفكّر أنخيل أنه لم يمتلك منزلاً منذ خروجه من السجن سوى عنبر الرقص هذا، الذي تُطلق عليه روث أويوا: «أكاديمية باليه».

لماذا كانت فكتوريا ترغب في إطالة ألم مُتعة مقاربة عضوه دون إدخاله في فمها؟ أبعدت شفتيها نحو الركبتين، عضَّت العظام بخفّة، انزلقت بلسانها على جلد الساق، فركت أنفها في كعبيه، بلّلت باطن القدمين بلعابها، واستمرَّت حتى اصطدمت أسنانها الأمامية بعظام كعبيه، ونهداها المنتفخان بسبب الهياج كانا يبرزان من حين إلى آخر في هذه الموجات التي كانت مداعباتها تروح وتجيء بها. أمسك الشاب بخصرها، وبلفَّة راقصة وضعها فوق جسده، وانزلقت إحدى يديه نحو التجويف بين ساقيها، وألهمه بللها لكي يداعب بظرها لبرهة، ليُقنع نفسه أن ارتعاش جلدها الرقيق كان حقيقياً. لم يمكنه مقاومة هذا السحر وهبط

ليشمَّه ويُقبِّله، ليلعقه بلسانه، ويضغط عليه بخفّة بين الفراغات بين أسنانه. كانت ذكرى رقصها تُلهمه بالاندفاع والتحكّم في النفس، ونعومة اللعاب المختلط بعصارة إفرازاتها جعلته لا يحيد عن طريق الرغبة المُلِحّ.

حينئذٍ كانت هي من قرَّر اللحظة، حملت عضو أنخيل بيدها اليُمنى إلى مهبلها؛ وكانت هي من أدخلته بدفع ردفيها إلى الأمام، وكانت هي من أخذت في تحريك فخذيها وعضلات مهبلها لتضغط عليه، لدرجة أن نبضات قضيبه وجدران أحشائها قد امتزجت في رقصة تانغو. حركة ثنائية دفعت نحو فمه بالكلمة التي لم يقلها حتى تحت اللحظة:

- شكراً!

40

نشرت جريدة «لا كينتا» الواسعة الانتشار مقالاً بعنوان «قنبلة في مسرح البلدية» حول الأحداث التي وقعت في المسرح المذكور...

انتشر التحذير، بين الزبائن خالعي العذار المهووسين بصدور ومؤخرات النادلات وهنّ يُقدِّمن القهوة الإكسبرسو والقهوة بالحليب في المقاهي القريبة من مسرح البلدية، أن قُنبلةً أوشكت على هزّ وسط سانتياغو، بضجيجٍ أكبر من دقِّ قذائف المدافع التي كان العمدة «الاثنين» يلقي بها على سانتياغو في منتصف كلّ يوم من جبل سانتا لوثيا.

فيما يبدو اخترعت مجموعةٌ عجيبةٌ من مُحبّي العروض الراقصة هراءَ وجود قنبلة تحت المقعد الذي تركته السيدة الأرستقراطية فلور مكاي، التي لا توجد عجوز أكثر منها ثراءً. يا للرعب! قنبلة من تلك التي ظلّ الأبله الأحمق بوش يبحث عنها في العراق، قنبلة قادرة على تدمير مسرح البلدية بكلّ عظمته وبجعه.

وبكذبة شبيهة، أمروا موظفي مسرح البلدية بالخروج، فهربوا وتركوا الحظيرة في أيدي ملوك رقصة الكومبيا، وهؤلاء قاموا بتنظيم حفلة جماعية على شاكلة كاكو موراندي، على خشبة مسرح معبد الفن، وتراقصوا على أنغام مقطوعات مثل «رقصة الزجاجة» البذيئة.

حسب ما قال المخبرون الذين تفحّصوا وتشمّموا بقايا الحفل، كانت هناك بقايا خمر أكثر مما يوجد في معامل التخمير، وأكّد رجال البحث أن الماعز المجنونة دخّنت كل ما يُمكن تخيلُه. والأغرب من هذا، أنّ حارس المسرح أكّد أن المخرّبين وصلوا إلى باب الفنانين بعربة يقودها رجال شرطة ومحققون نظاميون، «جيمس بوند» مُحِبّ للمسرح البلدي.

أمر المسؤولون بفتح تحقيق، للوصول إلى الحقيقة، مهما كانت العواقب، «وليسقط من يسقط!». ولم يعثر أيُّ شخص على القنبلة الشهيرة. وإن لم يسأل أيّ شخص بوش، فلن يفعل، ولن يُوجّه السؤال لرجل الشرطة الذي اخترع الكذبة الرهيبة لكي يستمتع بالرقص في المسرح البلدي.

الإشارة الوحيدة التي عثرنا عليها حتى هذه اللحظة هي التي قدّمها الناقد الفني البدين في جريدة «الميركادو»، الذي انفلت لسانه وذكر اسم المجنونة بطلة «الستربتيز» في حفلة الجنس الجماعية، وعرّف هذه المعزاة الهائجة، هذه القنبلة الجنسية، باسم فكتوريا بونثيه، التي لا يرغبون في معرفة أي شيء عنها في المدرسة التي كانت تدرس فيها. فقد فُصِلت الفتاة الجميلة وطُرِدت قبل بضعة أيام، لإتقانها «الضحك أثناء الطابور».

41

مُثبتٌ بدفتر المحاضر، في الصفحة 203، أن «الملازم روبيو، وضابطَي الصفّ مالبران وريكاردي، حضروا في الساعة الثامنة والربع من صباح اليوم، في قسم شرطة غويتشورابا الكائن في طريق «البرينكو»، دون رقم، لبدء التحقيق الإداري مع العريف أرنولدو ثونيغا، بسبب المخالفات الخطيرة التي تم ارتكابها أثناء أداء مهام وظيفته، والتي تتضمن أوامر في غير محلّها لرجال شرطة يأتمرون بأمره، إضافةً إلى إهدار المال العام أثناء استخدام ممتلكات عمومية، مثل سيارة الدورية، العربة الوحيدة الآلية في هذا القسم، ذلك أن وسيلة الانتقال الأساسية في هذه المنطقة هي الجياد. ويتم التوكيد على هذا لأنه في حالة وجودِ عربات آلية أخرى في ليلة الأحداث المذكورة، ربما كان العريف ثونيغا قد استخدمها في تصرّفاته الخارجة على القانون».

أشار الملازم روبيو في الصفحة 204 إلى اجتماع اللجنة في المكان المذكور، وليس في مكاتب تحقيق الجهاز، لتفادي إضفاء الطابع الرسمي على أمرٍ تتناوله الصحافة الصفراء، وربما يمكن حلُّه بحصافة، بمحاكمة سريعة يعقبها عقابٌ صارم.

وفي الصفحات ذاتها، أشارت السلطة المذكورة إلى أنه سيتم النظر

في تخفيف العقوبة لدى إصدار القرار، لأن العريف ثونيغا يمتلك «سجلاً ناصعاً» في جهاز الشرطة، وحصل على ثلاثة أنواط استحقاق بسبب سلوكه الذي حسَّن صورة رجال الشرطة في تشيلي: العناية بامرأة حبلى لدى وضعها في أحد المتاجر، إنقاذ صغيرين حوصرا بالنيران في حريق شارع أينشتين، والمخاطرة بحياته لدى تفكيك عبوة تفجيرية في برج الجهد العالي في تل بلانكو.

بعد عرض الأسباب والوقائع، تحتوي الصفحة 205 على استجواب اللجنة للعريف أرنولو ثونيغا، الذي ظلَّ واقفاً على قدميه، ورفض الجلوس كما عرض عليه الملازم.

الملازم: ما صحة ما يُنسب لك باستخدام رجال شرطة وعربة هذا القسم في ليلة الجمعة من أجل عملية في دائرة أخرى خارج نطاق مسؤوليتك بسانتياغو؟

العريف: هذا صحيح يا سيدي الملازم.

الملازم: ما صحّة ارتكابك لهذه المخالفة، بسبب معرفتك بأن جماعات إرهابية قامت بوضع عبوة تفجيرية في مسرح بلدية سانتياغو، للاعتراض على عرضٍ شيوعيّ التوجهات في الهيئة الثقافية المذكورة؟

العريف: هذا صحيح يا سيدي الملازم.

الملازم: عندما اتَّجهت نحو وسط المدينة، هل كنتَ واعياً بأنك تدخل في منطقة محظورة عليك تماماً؟

العريف: نعم، يا سيدي الملازم.

الملازم: كيف تفسّر سلوكك المخالف للقواعد؟ بالفعل، كان واجبك هو إبلاغ قسم شرطة سانتو دومينغو مع ماك ايفر، أي أقرب قسم شرطة لمكان الأحداث.

العريف: مع كل احترامي يا سيدي الملازم، كان الأمر مُتعلّقاً بانفجار قنبلة لا أكثر ولا أقل.

الملازم: لا أفهم.

العريف: إن وصلت معلومات مثل هذه، لا يمكن إضاعة الوقت في الحديث في التليفون. ربما يكون المسرح قد أصبح حطاماً بينما يجري الاتصال.

الملازم: لكن، هل تجهل يا سيد ثونيغا أن هيئة الشرطة تضم فريقاً متخصّصاً في فحص العبوات الناسفة وتفكيكها؟

العريف: لا أجهل هذا يا سيدي.

الملازم: فسِّر ما فعلت إذاً!

العريف: لا يمكنني تقديم أيّ تفسير. جاءتني معلومة القنبلة وفكَّرت أنني رجل بما يكفي لحلّ المشكلة بمفردي.

الملازم: ألم تَرَ أفلاماً كثيرة لرامبو يا سيد ثونيغا؟

العريف: يمكنك إدانتي، إن أردت يا سيدي. لكن أرجوك ألا تسخر مني يا سيدي الملازم!

الملازم: حسناً يا رجل. هل حدث أم لا أنَّك هدَّدت حارس المسرح بسلاحك الميري؟ وأنك قمت باحتجاز مجموعة من الموظفين في عربة دورية الشرطة التي تحمل رقم GÜE 1 دون تلقّيك أيّ أمرٍ بهذا؟

العرِّيف: نعم، يا سيدي الملازم.

الملازم: كيف تُفسِّر إساءة استخدام السلطة هذه؟

العريف: هجوم الإرهابيين يختلف تماماً عن توزيع الرهبان الفرانسيسكان للحساء على الفقراء.

الملازم: عن أيّ إرهابيين تتحدّث؟ التفتيش لم يؤدِّ للعثور على مفرقعة واحدة.

العريف: أنا مبتهجٌ من أجل تشيلي ومن أجل معبد الفنون. بخلاف هذا...

الملازم: بخلاف هذا ماذا يا ثونيغا؟

العريف: بدلاً من الخضوع لتحقيقٍ مُهين، كنت سأحصل على تكريم في المقابر العمومية، وكانت موسيقا الشرطة ستعزف السلام الوطني، وسيقوم الجنرال ثيفوينتس بتقديم العزاء وتعويضٍ لأرملتي.

وفي الصفحة 205 تم إثبات أن الملازم روبيو وضابطي الصف طلبوا من العريف ثونيغا مغادرة المكتب لبضع دقائق، الوقت الذي انتهزوه لطلب القهوة من جنديّ المراسلة، والاتفاق على قرار. أشاد ريكاردي بشجاعة العريف المهذَّب وسرعة بداهته ، الذي قَبِل المخاطرة دون تردُّد. وذكر مالبران أن العريف ربما يكون قد تحمَّس بسبب نجاحه السابق في تفكيك عبوة ناسفة، وأراد تكرار الإنجاز لكي يحصل على ترقية كضابط صف، أي أنهم ربما كانوا قريبين من محاكمة أحد أقرانهم. وعلى العكس، التزم روبيو بالصمت.

لدى استئناف المحاكمة عرض الملازم مقعداً وقهوة على الخاضع للتحقيق، الذي وضع الكثير من السكر وشرب القهوة من الفنجان، لكنه اعتذر مرَّةً أخرى عن الجلوس أمام الرُّتَب الأعلى، ليعطي نموذجاً بالتواضع المثالي، وهمس مالبران في أذن ريكاردي إن هذا يتَّسق مع روعة سلوكه المتهور. وفي الحقيقة، قبل دخول المُتّهم كانوا قد تمازحوا فيما بينهم أن بساطة القضية والظروف الداعية لتخفيف العقوبة تدفعهم للتوصية بترقيته بدلاً من خفض الرُّتبة أو الطرد من الخدمة. وعلى الرغم من هذا، اختتم روبيو، فإن «اللائحة هي اللائحة، والصحافة بذيئة اللسان

ترغب في رؤية الدَّم المُراق، وبدلاً من أكاليل الغار، يجب علينا أن نلقي عليه سماداً عضوياً».

في الصفحة 206 تم استئناف المحاكمة.

الملازم: يا سيد ثونيغا، برأيك، ما هي العقوبة التي يجب أن نوقعها عليك في ظل خطورة الوقائع؟

العريف: أوّلها أن تعفيني من رئاسة القسم، لكن لا تخفض من راتبي. لديّ زوجة وابنان، يا سيدي الملازم!

الملازم: وأيّ عقاب يمكن أن يكون هذا؟

العرِّيف: فكّرتُ في عقابٍ مهين يُبهج السيد الجنرال والصحافة.

الملازم: تكلَّم يا عريف!

العرِّيف: وضعي في رتبة سائس مسؤول عن جياد الدروية. الاستيقاظ فجراً، تقديم الطعام لها، تنظيفها، كنس الفضلات. جحيم. ذباب، زنابير، رائحة كريهة. جحيم.

تبادل أعضاء هيئة التحقيق النظرات في استشارةٍ صامتة، رفعوا أكتافهم دون اكتراث، انتهوا من القهوة في رشفة واحدة، وطلبوا من كاتب الجلسة أن يُثبت خفض الرتبة في المحضر، وفي الوقت ذاته، تعيين العريف سيبولبيدا مسؤولاً عن قسم غوينتشورابا.

عندما خرج ضابطا الصف وكاتب الجلسة، ظل الملازم في الغرفة مداعباً سطح المكتب، ومتحسّساً آثار الكتابة، كأنما يرغب في قراءة رسالة. فتح الدرج العلوي الأيسر وأخرج منه موزة، وقرّاطة أظافر، وبرطمان فازلين للشعر، وعلبة سجائر، وولاعة بنفسجية اللون، وعدداً من جريدة «لا فوستا» فيه البرنامج الكامل لسباقات الخيل في اليوم التالي في حلبة تشيلي.

- هذا هو عالمك الصغير يا ثونيغا، أليس كذلك؟

- ليس هذا فقط يا سيدي الملازم. لقد ذكرت لك عائلتي. وهناك أصدقائي أيضاً.

- وفكتوريا بونثيه.

- راقصة الباليه؟

- هل تعرفها؟

- حسناً. لقد قرأت المقال النقدي في «الميركادو».

- هل تحبّ الباليه أيها العريف؟

- الباليه والخيول.

- وأيّ عروض باليه رأيت؟

- الجنّيات، سندريلا، روميو وجولييت. أعتقد أن هذا هو كل ما رأيت.

- وبحيرة البجع؟

- بالطبع.

اتَّجه الملازم إلى ثونيغا، ودون النظر في وجهه، أمسك زرّاً مُعلّقاً في زيّه الرسمي وجذبه قليلاً.

- كم كان عُمرك عندما قامت القيادة المشتركة للشرطة والقوات المُسلَّحة بخطف أبي فكتوريا بونثيه، وذبحه؟

- أنا يا سيدي؟

- لا تتظاهر بالبله يا ثونيغا.

- كنت تلميذاً في المدرسة في ذلك الحين. كنتُ في السابعة عشرة.

- أي أنه لا توجد أي علاقة تربطك بتلك الجريمة، وربما لم تكن تحلم أنك ستكون شرطياً ذات يوم؟

- هذا حقيقي يا سيدي الملازم.

- وإن كان الأمر هكذا، لماذا تعمل على تعويض اليتيمة الصغيرة؟

كان الضابط ذو الرتبة الأعلى قد رفع عينيه، وينظر إليه بتعبيرٍ غير ودّي على شفتيه. جفَّف العريف العرق الذي انفجر على صدغيه بكُمِّ زيّه الرسمي.

- كنتُ أودّ القيام ببادرة طيبة يا سيدي الملازم روبيو.

انتهى الضابط الأعلى رتبةً من نزع الزر من الزي الرسمي لمرؤوسه، وبمزاجٍ متعكر وضعه أمام أنفه.

- إن قمت في مرة تالية ببادرة طيبة كهذه، فلن أنزع الزرَّ وإنما خصيتيك.

ألقى به فوق المائدة وظل الزر يتحرَّك حتى توقَّف على حافتها.

- أتركُه ليساعدك على التَّذَكُّر يا ثونيغا!

42

بعد أيام عديدة من الحساء المنزلي دون لحم، قرّر ريغوبرتو مارين أن ساعة الرحيل قد حانت. أبعد الكلاب الثلاثة التي اقتربت منه في شارع تابيرناس وركب تاكسي، ثم طلب من السائق أن يحمله إلى «ديليثياس دي كيرويه». كان يريد ملء معدته بالممبار وأجزاء داخلية أخرى: طبق من النقانق، لحم مشوي، نصف طبق من المخ ومخاصي. قرّر شُرب النبيذ باعتدالٍ لكيلا يذهب عقله. سيبدأ بزجاجة نبيذ أحمر ماركة «كاسييرو ديل ديابلو»، أي «بيت الشيطان»، وسيخفّف من أثره بزجاجة مياه معدنية كاتشانتون. سيسمح للجرسون بأن يقترح عليه سلَطة بالبقوليات، سلطة تشيلية بالطماطم والبصل المُقطّع في حلقاتٍ رفيعة، بل وثمرتَيْ فاكهة لهضم اللحم البقري.

وبعد ذلك، عندما يكون يقِظاً كقسٍّ، سيوقف تاكسي ويطلب منه رحلة إكسبرس إلى فراش الأرملة. وبعد أن يكون قد استقوى بغداءٍ شهيٍّ كهذا، سيدهش عشيقته بانتصابٍ هائل، مما سيسمح لها بالاستمتاع به في فمها قبل أن يغرسه حتى النهاية، مُبدِّلاً من الطريق كأكثر البشر جنوناً.

أثناء الغداء، الذي أغدق عليه بالصلصة والفلفل الأخضر، نسي الماء المعدني، وفي النهاية طلب زجاجة ثانية من النبيذ الأحمر. شعر بنوبة من

الحنق، دفعته لمعاملة الجرسون بفظاظة واستعراض مديته، عندها قام المالك وابنه بمسدّس في يده بدعوته للخروج.

وفي وسط ثمله، أخبرته بقايا البصيرة التي تبقّت له أنه يجب أن يبتعد عن ذلك المكان. وخرج وهو يغنّي بصوت خشن: «قلبي قادرٌ على التضحية من أجلك»، وفي نوبة من الحذر غزر مديته في شجرة بشارع ريبوبليكا، وتركها وسط ضحكات مجموعة من الجامعيين الذين راقبوه وهو يترنّح بين العربات المتوقفة وأسوار معهدهم دون أن يستعيد توازنه.

- «لا تطلبوا الشرطة يا فتيان!». طلب بكلماتٍ متلعثمة. وأضاف دون أن يسأله أي شخص

- اسمي: ألبرتو باررا تشاكون. باررا مثل فيوليتا، وتاشكون مثل أم أرتورو برات.

تقدَّم متعثراً حتى بناية تحت الإنشاء مختفية خلف أجولة الأسمنت والسقّالات التي ترتفع لبضعة طوابق، وتغلغل بصعوبة بين الممرّات غير المنتهية، حتى اكتشف فضاءً يشبه بهواً داخلياً حيث تنام عاهرتان فوق أجولة من الخيش. تمدّد بينهما، وعانق إحداهما مسنداً رأسه بين نهديها، ثم نام.

أمضى مأمور السجن سانتورو عطلة نهاية الأسبوع هادئاً. ترك نوافذ غرفة المعيشة مفتوحة على الرغم من البرد، وتدثّر ببلوفر ذي رسومٍ تقليدية، بينما يمضي وقته في قراءة صحف السبت، خاصة الحوادث والرياضة والترفيه. كان قد وضع مرهماً مُسكّناً للألم على عنقه، وكان ناجعاً في التخفيف من وخز الكدمات. وكان قد أحاط عنقه المدهون بالمرهم، بعناية، بالكوفية القديمة المستعادة. كان يوماً عائلياً، إذ تنتقل ابنتاه بين غرفتيهما والمطبخ بـ«بيبي دول» مثير. وخطر في باله «هاتان

الطفلتان ستثيران جنون الراغبين في الارتباط بهما بمؤخرتيهما الصلبتين ونهودهما الناهضة». أتى له اليوم الهادئ بذكرى زمن البراءة، السنوات التي عاش فيها حياة محترمة، فقد كانوا يذهبون إلى السينما، ومن حينٍ إلى آخر للعشاء والرقص في أحد مطاعم وسط المدينة.

بعد عِقدٍ، بينما كانت البلاد تعود إلى طبيعتها، بدأ يدرك أن سلطته أصبحت أقل مما سبق. جرت الاستعاضة عن الأصدقاء في الرئاسة بموظفين غير متورطين في وقائع وحشية، وأُلغيت بعض المميزات مثل الإجازات المدفوعة الأجر، والسيارة، والدعم النقدي لمدارس البنات. عاد لاستخدام الحافلات العامة المُحطَّمة، وانحدرت ابنتاه من المدرسة الخاصة الجيدة إلى مدرسة عمومية لا توجد في قاعاتها تدفئة ولا قوارير مياه، وقد كانت الطالبات يضعن بطانيات فوق الزيّ المدرسي في الشتاء، أو يُغمَى عليهن من الحَرّ في الثالثة عصراً في الصيف.

لم ينخفض راتبه، لكنه أصبح مضطراً الآن لدفع كل هذه النفقات التي كانت تُمنَح له في الماضي بشيكٍ من الصناديق الخاصة، مع تربيتةٍ على كتفيه من رئيسه الذي كان يدير فِرق الموت. منذ تلك اللحظة لم يعد يتوفر على المال لتركيب خط تليفون، وعندما وصلت أول التليفونات المحمولة إلى تشيلي، كانت تُباع بأسعار باهظة يستحيل دفعها، وهكذا لم تكن هناك طريقة لامتلاك خط تليفون.

انتشر استخدام هذه الأجهزة بعد سنوات، والطفلتان، المنعزلتان عن المجتمع لأنهما لا تستقبلان مكالمات الفتيان الساعين خلفهما، طالبتاه بشراء تليفون محمول بالتقسيط. حسبما يتذكر، لم يستخدم هذا الجهاز أكثر من عشرين مرة، لأن الفتاتَين تملآنه بأشياء خصوصية، وعندما تنامان تضعانه فوق الوسادة، في انتظار أن يقوم أحد المعجَبين بكسر قواعد

التهذيب، فيطلبهن ليلقي في أسماعهن بأسطوانات الحب - وربما بألعاب جنسية- في أيّ ساعة من الفجر.

وهكذا، بعد أن قرأ مقالاً حول الأزمة المالية لفريق كرة القدم المُفضَّل لديه، والذي وصل إلى الإفلاس، استمتع بقراءة مقالٍ في «لاكيتا» حول رجل الشرطة الإيروتيكي الذي احتل مسرح البلدية ليستمتع بالرقص عارياً مع نجمة موفورة الصدر والأرداف. كان الإفطار قوياً وشهياً، فقد تناول الخبز بالمربى وشرائح لحم الخنزير المقدد الحرِّيف إلى حدٍّ ما. أزال بقايا الدهون من فمه بفوطةٍ ورقية، وقرّر إنهاء أكثر فصول حياته تعاسةً، بمكالمة هاتفية إلى البنسيون حيث يجب أن يكون ريغوبرتو مارين مقيماً بالاسم المزيف ألبرتو باررا تشاكون. سيُبلغه برسالة بسيطة وحذرة: «تم إلغاء الأمر. عُدْ». الفتاتان في الحمام، وبالتليفون المحمول الإعجازي في يده، قام بطلب رقم فندق موناستريو.

على الطرف الآخر من الخط كانت عاملة الاستقبال إيلزا تقوم بقصّ المقال النقدي في «الميركادو» كتلميذة مجتهدة. أمسكت بقصاصة الصحيفة في يديها، وكانت تستعدّ للصقها على لوحة كرتونية سوداء أنيقة، لتضعها بعد ذلك في حافظة وقورة رمادية، لكي تقدّمها كهدية لفكتوريا بونثيه في الاحتفال الذي سيُعقد في بيت أمِّ الفتاة في الخامسة عصراً، والذي دُعيت إليه سيدات أخريات مثل إيلينا سانهويثا ومابيل ثونيغا.

كانت ستنتظر حتى يجلسن جميعاً أمام فناجين الشاي التي يتصاعد منها البخار، لكي تقول لفكتوريا الكلمات التي ستنساب من شفتيها، إذ ستخبرها بحدس قلبها الأكيد: «هذا المقال النقدي سيكون جواز السفر الذي سيفتح أمامك أبواب كلّ البلدان».

بعد رشف القليل من الشاي، ستقع على عاتق مابيل ثونيغا مهمة تشجيع الأرملة المكتئبة بونثيه لكي تنضم إلى السيدات الأخريات في

قناعتهن بأن إكمال السعادة الآن سيتم بالتصريح لابنتها الموهوبة بالزواج من خطيبها أنخيل سانتياغو، الشاب المُحترم الواعد، وكما كانت الأغنية الدارجة تقول: «ذو القلب القادر على التضحية من أجلها».

والكلمة المفتاحية ستكون: «هذه ليست مجرّد كلمات مغنٍّ بسيط يسمعها الناس في الحافلات والتلفزيون، بوعدٍ عاطفي يلقيه أيُّ رجلٍ شبق على المرأة التي يرغبها، وإنما هناك براهين دامغة على أن الفتى سانتياغو ظل بجوار أميرته، عندما كانت تصارع بين الحياة والموت، وعندما عادت «الجميلة النائمة» من مملكة الظلمات مثل لاثارو، خاطر بحياته وقام بتنظيم الحفل في مسرح البلدية ليس أقلّ، وبفضل هذا أصبحت فكتوريا بونثيه على أبواب الشهرة العالمية». وستختتم بإلقاء الحافظة الرمادية وبداخلها «جواز السفر الأسود» والمقال النقدي التكريسي فوق المائدة.

وهذا يعني أنها كانت تُحلّق بأفكارها الروحانية في تلك الساعة من الصباح، وبينما كانت تستخدم المقص بدقةٍ تلقائية، فكّرت أنها كانت تتمنّى لنفسها مستقبلاً شبيهاً إن كانت في السابعة عشرة من عمرها: حبٌّ، موهبةٌ، شغفٌ.

لكن، إن أعطاها مدير مائدة القمار أخباراً سيئة فلن تسقط في الحزن والحنق، وإنما سترى نفسها في الفنانة الشابة وفي حبيبها الرائع. يجب على هذين العاشقين أن يتجاوزا مرارات العالم والحياة في الفنادق الحقيرة والحانات والسجون والاحتقار الذي يعانون منها جميعاً: موناستريو الذي خان صديقه، الغارق في الانحلال مع النسوة البذيئات اللائي يلتهمن المدخرات القليلة المتبقية؛ العظيم برغارا غراي الذي حطّمه حبّ امرأة متعجرفة لم تتعطّف عليه بقليل من الأكسجين ليظل على قيد الحياة، وهي

ذاتها، المرأة الثانية الأبدية، التي يهملها موناستريو إلا عندما ينتابه ألم عميق يدفعه إلى الجوء لفراشها بحثاً عن عطفٍ أموميّ أكثر من شبق الجنس.

هذا دون التفكير في كل من يجوبون شارع تابيرناس وحيدين وحزينين، الذين يبحثون عمّن يدفع لهم مقابل كأس النبيذ الأخير، لكي ينتهوا في فُرُشهم الباردة ويرجوا الموت أن يدهمهم في صمت، قبل أن يفتحوا أعينهم على يومٍ جديد من الضيق. هذا العالم المليء بالصقور الليلية، كما قالت مُعلِّمة الرسم إيلينا سانهويثا.

تركت التليفون يرنّ أكثر من عشرين مرة، لأنها كانت ترغب في الحصول على قصاصة بلا شائبة: مُربّع دون شذوب مفاجئة ولا بصمات ملوثة فوق قطعة الكرتون كتلميذ أحمق. عندما انتهت قامت بالرَّد:

- هل هذا هو فندق موناسترو؟

- نعم يا سيدي.

- أريد الكلام مع السيد ألبرتو باررا تشاكون.

- لا يوجد أيّ شخص يقيم هنا بهذا الاسم.

- لماذا لا تراجعي قائمة النزلاء من فضلك؟ إنه أمرٌ عاجل.

- إنني أنظر إليها الآن. أكثر زبائننا تواتراً يدعى إنريكي غوتيريث.

- حسناً، إنه ليس هذا الشخص. أنا أتحدَّث عن ألبرتو باررا تشاكون. إنه شخص متوسط القامة، نحيف، عصبيّ.

- كل من يأتون هنا تقريباً يتوترون. يخشون أن يراهم أيّ شخص أو ألا يستطيعوا.

- مفهوم. لكن لابد أن لديكم قائمة بالنزلاء.

- بالطبع يا سيدي.

- هل تطلبين منهم بطاقة الهوية؟

- بالطبع يا سيدي. هذه أوامر البلدية.

- ولا يوجد باررا في هذه القائمة؟

- باررا مثل فيوليتا باررا. لا يا سيدي. أنا آسفة.

- في حالة ظهوره، هل يمكنني أن أترك له رسالة؟

- على الرحب والسعة يا سيدي.

- من فضلك، قولي له: «تمَّ إلغاء الأمر. عُدْ».

- سأدوّنها.

- لا تخطئي من فضلك. إنه أمر شديد الأهمية.

- حياة أو موت؟

- بالضبط.

- لتطمئنّ. لقد كتبت: «تمَّ إلغاء الأمر. عُدْ».

- أشكرك على لُطفك يا سيدتي. شكراً جزيلاً.

- ومن يترك له الرسالة؟

- ماذا؟

- أعني، ما هو اسمك؟

حلَّ الصمت على الجانب الآخر من الخط. أسندت إيلزا السمَّاعة بين الكتف والأذن، وبيديها الفارغتين وضعت أنبوب المادة اللاصقة على الجزء العلوي من اللوحة الكرتونية السوداء.

- أخبري باررا تشاكون أن الرسالة من طرف صديق.

- هل سيفهم هكذا؟

- سيفهم.

- مفهوم يا سيدي.

- أشكرك يا سيدتي.

«صديقٌ»، ابتسمت المرأة بعد أن وضعت السماعة.

أمسكت بالورقة التي كتبت فيها الرسالة، ثم كوَّرتها في قبضتها وألقت بها في سلة القمامة. «ما علاقتي بمشاكل كلّ هؤلاء الملاعين!؟»، قالت لنفسها. وبحنقٍ أمسكت بطرف عنقها حيث فتح ألبرتو باررا تشاكون شقّاً صغيراً.

43

اتفقا على أن الوصول أبعد من الطابق الأخير يتطلّب حمل سُلَّم طويل لن تسعه مساحة المصعد المحدودة. لكنه يجب أن لا يكون طويلاً بشكل مُبالغ فيه، لأنه يمكن أن يرتطم بالسقف إن تجاوز الطابق الذي توجد فيه الخزانة. الحل الوحيد الممكن هو العثور على سُلَّمٍ بمُفصَّلات، يمكن طيه وفتحه حتى الوصول إلى ثلاثة أضعاف حجمه الأصلي. إن يكن قد تم تصنيع هذه الأداة أو لم يكن العثور عليها ممكناً، فلن يكون هناك حلّ سوى تدريب دون نيكو على تسلُّق الحبل في صالة رياضية قريبة حيث يتم تدريب رجال الإطفاء على مهام الإنقاذ.

الزيارة القصيرة للصالة والمحاولات المتتالية من بيرغارا غراي لتسلُّق ما لا يزيد عن مترين قضت على هذا الأمل، وتقريباً على يدَي المُعلِّم، اللتين تأذّتا للغاية لدى الانزلاق على الحبل المصنوع من الخيش.

- يجب عليَّ الحفاظ على هذه الأصابع من أجل أعمالٍ أعظم. لا فائدة من الصعود إلى عرش الرَّب إن لم تكن أصابعي صالحة لاستخدام أدواتي.

أراد الشاب تحفيزه بتسلّق الحبل بضع مرات وبعض الحركات الرياضية، حتى تصبح رأسه للأسفل بينما ساقاه تحيطان بالحبل. مثل هذه

الحركات لم تُصب الفتى بالدوار، رغم أنه كان يؤدّيها بإتقان ومهارة، وإنما المُعلِّم الذي خرج من الصالة وذهب للدكان القريب لشراء أسبرين.

وهكذا طافا بالحي، لكن في هذه المرة كان نيمسيو سانتيليشس برفقتهما، بحثاً عن عمال التليفونات الذين يصلحون تمديدات الأسلاك بين الأعمدة، أو يقومون بتركيب الخطوط للعملاء. هم فقط يتوفّر لديهم السلالم التي تقصر أو تطول حسب الرغبة، وإن أمكنهم سرقة أحدها، فلا يمكن لأيّ شخص أو أيّ شيء أن يمنع الضربة.

حصل على المُعدَّات الحديثة من أبٍ طيّب لمجرمٍ شابّ يمضي العقوبة المؤبّدة في ريو دي جانيرو، وقد ابتهج بشكلٍ يفوق الوصف عندما عرف أن أصابع بيرغارا غراي ستباركها قبل أن يطولها الصدأ. لم يطلب الرجل أيّ شيء في المقابل. ورغم أن المُعلِّم ألمح إلى أنه لن يعدم مكافأة إن سارت الأمور بشكل جيد، قال الأب إنه لا توجد بهجة تعادل عناق ابنه حراً، وما لم يحدث هذا، فإنه لا يكترث بالمال، وربما بالحياة أيضاً.

تم العثور على السُلَّم القابل للطي في ناصية كثيفة المرور في شارع أميركو فيثبوثيو، وتذرَّع المجرمون الثلاثة بالصبر والسجائر وهم يتقافزون على بلاط الرصيف لطرد البرد، في انتظار انتهاء الفنّي، الذي يقوم بإصلاح إشارة مرور مقوّسة في منتصف الشارع، من عمله لينزل بعد ذلك. عندما حدث هذا، ذهب الزميل الذي يقود الشاحنة لمساعدته في طيّ السلّم الضخم في عدّة طيات، وبينما كانا يستعدّان لوضعه في الشاحنة، قاطعهما نيميسو سانتليش قائلاً إن هناك مكالمة لهما من إدارة المرور في المقهى القريب. كان نيميسو قد عرض القيام بالمهمة قائلاً: «سأذهب أنا يا فتيان، إن أمسكوا بي لن تتأثر العملية». قادهما الرجل القصير إلى حمّام المقهى وأشار بسبابته إلى سماعة الهاتف المرفوعة، وتركهما يتحدّثان مع السيدة إيلزا، عاملة الكاشير العظيمة، موظفة الاستقبال المهذبة والصديقة الوفية.

في أثناء ذلك كان بيرغارا غراي وأنخيل سانتياغو يهبطان بالسلّم إلى رصيف مترو الأنفاق، وبعد بضع ثوان ركبا العربة الأخيرة، وذهبا بأمانٍ وسرعة إلى وجهتهما، أي إلى مبنى «خدمات كانتيروس»، حيث طلبا من الحراس الذين كانوا يعرفونهما من قبل أن يحفظوا لهما السلم حتى اليوم التالي، إذ سيذهبان في ساعة مبكرة لاستبدال بكرة المصعد. لا توجد أيّ مشكلة؟ لا توجد أيّ مشكلة أيها السيدان!

من جانبها كانت السيدة إيلزا تحتفظ بنسخة من مفاتيح سيارة موناستريو الشيفروليه، وتعهدَّت شخصياً ألا يفتقد ربُّ عملها جوهرته حتى مساء اليوم التالي، لأن الرجل كان يُخرج سيارته من المرآب بعد قيلولة طويلة: «أعشق الشمس كثيراً، ولهذا أُفضِّل عدم جرح سيد النجوم بنظرتي»، كانت هذه هي عبارته المُفضَّلة في اللقاءات الاجتماعية للبوهيميين.

وفقاً للخرائط التي غلَّفت كتابين آخرين (بين ألفيتين على متن جواد، لفرناندو ساباتير، وتشيلي بلدٌ مليءٌ بالثنايا لماريانو لا توريه، طبعة 1962 من دار نشر زكزاك، والتي يظهر على غلافها حصان وفارس على طريقة سيراميك كوينشامالي)، وما إن تصل سيارة موناستريو وعلى متنها فكتوريا وبيرغارا غراي إلى تقاطع محدّد في الطريق المُتَّجه إلى سلسلة الجبال، يجب عليهما أن يسافرا خلال ساعة باتجاه الشرق، حيث سيجدان مزرعة ترفع العلم السويسري بدلاً من العلم التشيلي إلى يسار نهر مايبو، وهو ليس اعتداءً على السيادة الوطنية، وإنما تنبيه مؤقت إلى المكان الذي سيوجد فيه الدليل الذي سيعبر بهم جبال الأنديز على متن الجياد باتجاه الأرجنتين.

وهكذا لن تسجل أيّ شركة طيران إلى أيّ بلد انتقلا، ولن يضطرّ أيّ

شخص من بين أشباه المتواطئين للحصول على مالٍ لشراء ثلاث تذاكر طيران. سيحصل الدليل على مكافأته من الغنيمة التي سيفتحونها على قمة أحد جبال الأنديز، بالقرب من الشمس، حيث يستحمّون بالسحب السريعة التي تلطم الجبال أثناء مرورها.

يجب على السيدة إيلزا، أو إيلزيتا كما تُفضِّل أن يُطلق عليها الشاب، أن تؤدي خدمةً شديدة الخصوصية وسرّيّة لأنخيل سانتياغو. يجب أن لا يعرف بها بيرغارا غراي أو فكتوريا. عندما يكون هذان قد انطلقا بالسيارة، سيذهب بجزء من الغنيمة ليشكر الخدمات الجليلة التي أبقت ثلاثتهم على قيد الحياة حتى يوم المجد. سيذهب شخصياً في إحدى لحظات يوم السبت، ومعه كيس بلاستيك من «جوهرة الباسيفيك» لكي يوزِّع مالاً غزيراً على كلٍّ منهم. أي البدينة مدام سانهويثا، والرشيقة ميس روث أويوا، المكتئبة أم خطيبته، الخالد سانتيليثس، تشارلي دي لا ميراندولا وتيريزا كابرياتي بشحمها ولحمها، إن تواضعت ونزلت إلى مستوى العامة.

يجب تسديد الديون المُعلَّقة لمأمور السجن هويرتا بعد وقت طويل، بطريقة سرية ودبلوماسية، ويمكن نسيان العريف ثونيغا من دون مشاكل، الذي أعلن في مسامرة خالدة بجوار الحصان أن أيّاً من رجال الشرطة تشيلي لن يضعف أمام الرشوة مهما كان المبلغ. ما فعل من أجل فكتوريا كان قراراً من قلبه، وسيدفع المقابل بمنتهى السعادة.

– كل ما يجب أن تفعلي يا إيلزيتا الجميلة الرائعة أن تجمعي كل هؤلاء الأبطال في المقهى. سأقوم بدور حامل الهدايا القديم، كلٌّ منهم سيحمل كيسه، وسأختفي في جهة لا يعرفها الرب أو الشيطان.

سألت موظفة الكاشير بأنف متقلّص:

– وماذا عن فكتوريا بونثيه؟

- سترقص.

- أين؟

- في ريو دي جانيرو، في لندن، في باريس، في أي مدينة لا يصل إليها رجال كانتيروس للإمساك بنا.

- لتكن لندن إذاً يا بني.

- أو إسبانيا، مع غارثون، يا أمي.

وقّعا الاتفاق بقبلاتٍ عديدة في جبهتيهما ووجنتيهما.

44

عندما قالت فكتوريا لأمها إنها ستتغيب لبعض الوقت، أسرعت المرأة من إيقاع شغلها بالإبرة والصوف، وفهمت أن الفتاة ستذهب لتعيش مع الفتى أشعث الشعر في بنسيون حقير.

أرادت أن تقول: «ماذا يمكنني أن أُقدِّم سوى هذا الألم الدائم العقيم. كيف لا يمكنني فهمك، إن كنت أنظر إلى يديَّ أحياناً وأرغب في الإطباق على عنقي بهما حتى يتوقف الهواء عن المرور».

كان يمكنها أن تقول: «حسناً، لديك هذا الفتى والرقص. وكما قال الناقد «ترقصين كينونتك». إن كنت في وفاقٍ مع نفسك، لا توجد مشاكل. لن أعتبر هذا عصياناً». لم تقل الأم أيّ شيء من هذا لابنتها.

شردت فكتوريا في هذا الصمت وهي تعرف أن حقيبة الظهر جاهزة، وأنها ستُعلِّقها على كتفها بعد ساعات قليلة، وسترتدي معطفها كيتيمة (لأنه كان معطف أبيها الذي قامت خياطة بتعديله على مقاسها) وجرؤت على أن تقول لأمها إن غيابها سيطول، لدرجة أن سنوات قد تمرّ حتى تلتقيا مجدداً.

توقّفت الأم عن النسج، ونظرت إلى ركبتيها كأنهما فضاء بعيد. التزمت بصمتٍ كالأموات. ابتعاد فكتوريا يمكن أن يعني شيئاً واحداً فقط:

الاختفاء. المقاومة. وبالتَّبعية، الموت. وبالتَّبعية، ربما إن كانت محظوظة، ستحملها عربة إلى المشرحة للتَّعرُّف على الجثة التي شوّهتها الرصاصات. قالت هذا لنفسها. وقالت لابنتها:

- سيقتلونك يا حبيبتي.

- لقد علقتِ في الزمن يا ماما. نحن نعيش في الديمقراطية الآن. لا يوجد صراع. لا يمكن لأيّ شخص أن يقتلني، لأنه لا يوجد أي شخص يُطلق الرصاص في أي مكان. لا توجد مقاومة. لا يوجد إرهاب، لا يوجد كفاح مُسلَّح. ليس الوضع كما كان في أوقات بابا.

- ستعيشين مختبئة وسيقتلونك. ستظهر صورك في الصحف وسيأتي الكثيرون ليبكوا معي. بعد ذلك سأبقى بمفردي.

استأنفت النسج، ومسحت أنفها بالطرف الملتفّ حول كرة نحاسية اللون.

- يجب أن تبتهجي يا ماما. سأعيش سعيدةً في مكان آخر. لن أموت. سأرقص.

- أين؟

- لنقل في البرازيل. توجد فرقة شهيرة، اسمها كوريو. لديهم رقصة حول سان أغوستين.

- رقصة حول قدّيس؟

- نعم. لكنها تتناول حياة القديس في الخطيئة قبل أن يتحول للمسيحية، وصراعه ضد مُتع الجسد التي كانت تنتابه بعد ذلك.

- هل تؤمنين بالرب؟

- اللعنة يا أمي! هذا سؤال تتم الإجابة عليه في نهاية العمر وليس في السابعة عشرة.

- الإيمان لم يساعدني.

- لكنك تبدين بحال أفضل كثيراً.

- صديقاتي سيتناولن الشاي هنا.

- حقيقةً؟

- أعني أن لديّ صديقات.

أمالت فكتوريا رأسها وراقبت أمها وهي تعمل بمهارة في نسج الخيوط التي كانت تعقدها كمن يحلّ الكلمات المتقاطعة.

- لا ترحلي قبل أن أنتهي من هذا البلوفر.

- يتبقّى له الكثير من الوقت. يجب أن أرحل غداً.

- ستأتين لتأخذيه عندما يكتمل.

- بالطبع.

- كنت أحبُّ تناول حساء الخضراوات معك. سأفتقدك.

- لماذا حساء الخضراوات تحديداً؟

- وأيضاً كنت أحبّ تناول حساء اللحم معك.

- لم أكن أعرف هذا يا ماما. لم تخبريني بهذا من قبل.

- سأعِدّ كعكة تفّاحٍ في الغد. سأقدّمها مع الشاي.

- ممتاز يا ماما.

- وأعتقد أن البلوفر سيكون جاهزاً في.... ما هو هذا الشهر؟

- يونيو.

- ما زال أمامنا شهران من الشتاء.

- صراحة لا أعتقد أنني سأعود قريباً. ربما في العام القادم.

- سأموت قبل ذلك.

- لماذا تتحدثين عن الموت كثيراً يا ماما؟ إنك تنغّصين كلّ شيء. سأعود خلال بضعة شهور، في يومٍ قارس البرودة وغزير المطر، وسأرتدي البلوفر وسأقول لك: «شكراً يا ماما. إنه رائع!».

كانت المواعيد أكثر مرونة في ظل المهام الجديدة. وبما أن الشمس كان تظهر من حين إلى آخر بين السُّحب، انتهز أخر ضوء في النهار ولم يركب الحافلة التي ستحمله إلى البيت. تجوَّل في وسط المدينة، بين ميدان أرماس وشارع ألاميدا، ووقف لبرهة بين البيروفيين المتجمعين بجوار الكاتدرائية، سواء لأنهم عاطلون، أو ببساطة لكي يشعروا بالرفقة ويتحدثوا عن أحوال الوطن. قال لنفسه إنه لن يحبّ أن يعيش بعيداً عن تشيلي، إن الناس كانوا امتداداً للعائلة. كان أحد أعمامه يعيش في المنفى في جمهورية ألمانيا الديمقراطية. لكن هذا العم مات في مستشفى. يقول البعض إنه مات من السرطان، آخرون يقولون إن الألم هو السبب، «وهو سرطان الروح». كما مات أيضاً البلد الذي كان عمّه يعيش فيه. لا يمكنه تخيّل موت بلدٍ.

بعد نصف ساعة من التجول والمراقبة دون غرض محدد، اقترب من المكان الذي كان وجهته الإشكالية التي لم يُفصح بها حتى تلك اللحظة. لدى دخوله نظرَ في الاتجاهات الأربعة خلسةً، خشية أن يكون شخص ما في أثره، وحينئذٍ فقط اقترب من شبّاك التذاكر وسأل البائعة عما إن كانوا قد نشروا برنامج حلبة سباق تشيلي بسباقات الغد. طلبت منه المرأة سبعمئة بيسو، ووضعه ثونيغا مطوياً في جيبه وذهب حتى أكثر أركان القاعة نأياً ليقرأه.

وضع الورقة أمام عينيه مثل شخص ضعيف البصر، درس كل الإرشادات الغامضة حول الحصان الذي يحمل رقم 15. على مبعدة مترٍ كان هناك عجوز يرتدي نظارات سميكة، وبين شفتيه سيجارة مشتعلة، يتساقط رمادها بانتظام على معطفه، وكان وجهه موسوماً بالخبرة، وبالطبع كان هذا يتضمَّن فلسفة سباقات الخيل. فكَّر ثونيغا أنه لن يتضايق إن اقترب منه بسؤال لكي يكون متأكداً.

- معذرة يا سيدي. هل يمكنك أن تخبرني أيّ فرص يمتلكها هذا الحصان؟

- ميلتون؟

- نعم هذا.

- إنه يشارك برقم 15. ينطلق من الخارج.

- «آه. نعم». قال العريف بوجه من تلقَّى معلومات بالصينية.

- هل راهنت على سباقات الخيل من قبل؟

اتقدت وجنتا ثونيغا وأذناه في الوقت ذاته.

- بالطبع.

- أُنظر، رقم خمسة عشر هو الرقم الذي يشارك به ميلتون في السباق. هذان هما أبوه وأمه، سيكرز ريورد وبروان بوند، وهذا هو اسم الجدّ: أليغاند. دونيا تيريزا هو اسم الاسطبل الخاص بالسيد أتيليو موليناري. باتريثيو أغيرليرا هو الفارس الذي يزن خمسة وخمسين كيلو، وماريثيو فارياس هو اسم المدرّب، ولون القبعة هو الأزرق بخطوط بيضاء. هل فهمت؟

أحنى ثونيغا رأسه موافقاً، وعندما شعر أن الرجل ينظر إليه بتركيز، أضاف بطلاقة:

- هذا واضح تماماً.

عاد العجوز للتركيز في البرنامج، وقرأ التعليق الموجز في «لا فوستا»: «ستة شهور دون المشاركة في السباق. تعثّر في الأمتار الأخيرة. جيدٌ في الوحل. صعب المراس». واختتم قائلاً:

- إن فاز سيكون الربح كبيراً.

كان ثونيغا يمسك في يده بالورقة الملونة فئة الخمسة آلاف بيسو. كان ينظر إليها برقّة، كمن يُرسل خطاباً لن يصل إلى وجهته، وشعر بالدهشة عندما رأى للمرة الأولى أن الصورة المطبوعة على الورقة المالية هي صورة الشاعرة غابريلا ميسترال. حملها إلى موظفة شباك التذاكر وقال:

- خمسة آلاف بيسو على رقم 15 في السباق الأول.

- فائز أم مراكز أولى؟ - سألت الموظفة.

نظر العجوز إلى العريف مُستفسراً، وألقى هذا نظرةً أخيرةً حزينةً على الورقة المالية التي كانت في يد البائعة، ثم قال بصوت خفيض:

- فائز.

وعندما ضغطت الموظفة على الزر انطلق الإيصال من الماكينة، أخذه بسرعة وأضاف بصوت عال:

- بالطبع.

45

فكَّ حارسُ السيارات لوحةَ أرقام عربة زبون مجهول في شارع تابيرناس، وركَّبها في سيارة موناستريوس. كان واثقاً من أن الزبائن الذين يتركون سياراتهم في ذلك الشارع يشعرون بالسعادة عندما يعودون ويجدون سياراتهم، ولهذا لا يهتمّون بما إن كانت تحمل لوحة الأرقام ذاتها أم لا.

قام الشابُّ أنخيل سانتياغو بمهاتفة تشارلي دي لا ميراندولا، وقدَّم له عرضاً لا يُقاوم. بعد انتهاء ميلتون من السباق يجب على السائس أن يضعه في شاحنةٍ لنقل الجياد، وأن ينتظره بالمحرك شغالاً في مخرج حلبة السباق في بيباسيتا. سيشتري منه الحصان -«بسعر ضربة كبيرة»، فكَّر أن يمازحه بهذه الكلمات لكنه تراجع- مقابل مبلغ مُعتبر يمكن أن يصل إلى ثلاثمئة ألف بيسو. المُدرِّب المحترف أوضح أن سعر الحصان سيكون مختلفاً للغاية حسب فوزه أو خسارته للسباق الأول. ردَّ سانتياغو دون قلقٍ إن هذا مفهوم. ويمكنه أن يقبض المال - على الأرجح بالدولار- في شارع تابيرناس، حيث سيذهب لشكر كل الملائكة الذين ساهموا في إخراج فكتوريا من الحالة التي مرَّت بها مثل لاثارو.

وكانت العملة ذاتها كافية لمهاتفة فكتوريا بونثيه. بدأت تحكي له

التوقعات السيّئة لأمها، لكنه طمأنها قائلاً إنه لا يوجد أيّ شخص ولا أيّ شيء قادر على إحباط نجاح العملية. ببساطة يجب أن ترتدي ملابس ثقيلة -ملابس ثقيلة للغاية- بقدميها داخل جوربين على الأقل من الصوف، وأن تذهب حتى المزرعة السويسرية، حيث سيلتقيان لبدء شهر العسل. هناك سيجري استقبالها كملكة بواسطة دليل صديق من أيام الطفولة، كان قد جاب معه الإقليم شبراً شبراً على ظهر حصان أو سيراً. أكّدت أن توقُّعات أمها لا تُقلقها، وأنها تتخيّل حياتها بدءاً من اليوم التالي كحياة حيوانٍ عصيٍّ على الترويض يجوب سهولاً لا نهائية. كانت قد شُفيت من نزلة البرد تماماً، وتتعامل مع رشح أنفها بمناديل نوفا.

قام بيرغارا غراي بالتقييم الأخير فوق مائدة المهندس المعماري في أكاديمية الباليه. وعلى الرغم من أن كلّ شيء كان يبدو جاهزاً - «كلّه تمام» كما كان يقول لتيريزا كابرياتي، فإن مراجعة أخيرة للتفاصيل يمكن أن تكشف عن ثغرة صغيرة في الترتيبات مما يؤدّي إلى هدم الخطّة بالكامل.

ماذا ينتظره في حالة النجاح؟ نوبة جديدة من البكاء من السيدة كابرياتي، التي ستتوخى ألا تتساقط دموعها منها لدى تلقّي الحوالات البريدية، لكيلا تنمحي قيمة الحوالة المكتوبة بالحبر.

سيحكي لها في مكالمة هاتفية أن الذكريات التي ستتلقّاها شهرياً كانت نتاج أعمال استيراد وتصدير يقوم بها خارج تشيلي. كم سيبدو شريفاً وكريماً لمعشوقته أن ينضمّ بيرغارا غراي إلى قافلة المُصدِّرين التشيليين الكبار، الذين فتحوا طريق التوسع الاقتصادي العالمي للبلد الصغير، بفضل اتفاقيات التجارة الحرة التي وقّعها حاكم اشتراكي مع الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوروبي.

إضافةً إلى هذه الدموع والآلام اليومية، سيتبقّى له سلوى حضور

الفتاة. إن كان ممكناً أن يرافقها خلال بضعة شهور، وأن يكون شاهداً على طريقها نحو النجاح العالمي، ستخفّ آلام حياته بقدرٍ كبير.

كان أنخيل سانتياغو قد صوَّر له فردوساً على مقاسه، لكن ليس على مقاس بيرغارا غراي، الطائر المديني. سيضطلع بيرغارا غراي بالجانب الإداري في بضعة هكتارات سيشتريها أنخيل سانتياغو لزراعة البقوليات والفواكه وتربية الماشية. وسيقوم أنخيل بمراقبة الأراضي من فوق حصانه، بينما يساعده كلبٌ شرسٌ حادُّ الأنياب، ولن يسمح لأيٍّ من حيواناته بالسير في طريق الضياع كما النعجة السوداء.

من جانب آخر، لن يكون لدون نيكو شاغلٌ آخر سوى كتابة مذكّراته، وإعداد كوكتيلات «سيكو-سور»، وأداء تمرينات رياضية يومياً لخفض الكوليسترول.

إضافةً إلى هذه الخطّة المفصّلة التي رسمها الفتى، بدأ الرجل يُفكّر في خطّةٍ أخرى.

لكثرة وضع غلاف «ثلاث زهور صفراء» لكارفر، وخلعه، انتهى به الأمر بقراءة قصة موت تشيخوف قبل القيلولة، وعندما استيقظ فوجئ بأنه يعيد قراءتها بقلم رصاص في يده، ليُحدِّدَ به بضعة مواقف. سيكون مواتياً أن تكون ضيعة شريكه الصغيرة بجوار قريةٍ تمتلك مكتبة بلدية حيث يمكن استعارة الكتب. لا يهمّه في أيّ شيء ألا تكون هذه الكتب على الموضة، لأن جهله كان كبيراً لدرجة أنه قادر على البدء بدون كيخوته دي لا مانتشا، ليواصل القراءة في تسلسلٍ تاريخيّ حتى الوصول إلى مدام بوفاري. وعندما يصل إلى هذه المرحلة سيكون قد مات، وسيتفادى النقاش الحادّ مع الأبقار والنعاج حول الكتب التي تملأ قوائم البيست سيلر.

كانت الساعة الثانية عشرة إلا عشر دقائق عندما جاء أنخيل سانتياغو

من الشارع، ونظر من فوق كتب الرجل إلى الملاحظات والرسومات التخطيطية نتاج عمل ذلك اليوم.

- كلُّ شيء على ما يُرام يا مُعلِّم؟

- كلّ شيء على ما يُرام يا تلميذ!

- هل بقي أيّ شيء للغد؟

- النوم لكي يكون ذهنانا صافيين.

- هل راجعت كلّ التفاصيل؟

- ها هي ذي: السيارة، لوحة الأرقام، المرور على فكتوريا، ملابس شتوية، تاكسي إلى الجنوب، طريق طوليّ، مزرعة سويسرية، دليلٌ صديق، سترة شيندلر، بطاقات هوية، صندوق أدوات، قفازات مقاومة للشحنات الكهربائية، أجولة مقاومة للبلل، سلّم، نافذة من الطابق الثاني لإلقاء الغنيمة، ثلاث حقائب كبيرة لنقل المال، كيس بلاستيكي، بقشيش للعُمال، ماء معدني، ولّاعة، سجائر، مطفأة، راديو محمول، وخزّان وقود ممتلئ.

أخذ أنخيل يحني رأسه موافقاً ببهجة، لكنّه توقّف عن تحريك رأسه مندهشاً عندما اعتبر بيرغارا غراي أن القائمة قد انتهت.

- ما الخطب يا فتى؟

- ما زال هناك شيءٌ يا مُعلِّم.

نظر إليه الرجل بريبةٍ كأنما الفتى يرغب في المزاح معه، لكن أنخيل فتح أزرار السترة، وأخرج المسدس الكبير الذي سرقه من سانتورو، ووضعه فوق الرسومات فوق المكتب، ثم قال:

- هذا.

46

لم يكن المطر غزيراً، لكنّه كافٍ لكي يحني المشاة المُبكّرون ظهورهم تحت سياط المياه المتساقطة. كان البعض ينظرون إلى الرصيف ويحمون رؤوسهم بالصحف التي اشتروها من الكشك الكائن على الناصية ولم يقرؤوها بعد.

أراد الحارس معرفة ما سيفعلان بهذا السلّم القابل للطيّ، وشرح له بيرغارا غراي بتفاصيل دقيقة أنهما كانا بحاجة إليه للوصول إلى مكانٍ مستحيل تقريباً، لأن هناك دلائل لا شكّ بها على أن البكرة المحشورة تحتكّ بالسقف تقريباً.

وضعا اللافتة المعتادة: «تحت الإصلاح»، وفصلا الخدمة الأوتوماتيكية، وصعدا بسرعة حتى الطابق قبل الأخير فقط.

قال بيرغارا غراي:

- سيكون مؤسفاً أن نمتلك هذا السلّم الجيد وألا نستطيع مدّه بضعة أمتار أخرى يا شريكي.

على الرغم من هذا، كان الغرض السرّيّ مختلفاً. في حالة وقوع مشكلة كبيرة، سيقوم أوغاد كانتيروس بإلقاء باب المصعد في طابق المكتب ذاته، وسيستحمّ أنخيل سانتياغو بالرصاص قبل أن يضغط إصبعه

على زرّ الهبوط. طابقٌ واحدٌ سيعطي الفتى هامشاً، حتى وإن كان بسيطاً، لمحاولة الهرب.

إضافةً إلى أنه كان يُفصح عن أسبابه، بينما كان يفُكّ براغي السقف بيده، انتهز الفرصة ليوجّه له التّعليمات.

- لم نتحدَّث عن هذا من قبل يا فتى. لكن إن سمعت طلقات رصاص أو أيّ ضجيج غريب، لا تصعد لأيّ سببٍ من الأسباب لمعرفة ما يحدث.

- إنك تنسى أنني مُسلَّح يا مُعلِّمي.

- لا تُفكّر في هذا كحلٍّ، حتى وإن كان آخر الحلول.

- لن أتركك بمفردك تحت رحمة القتلة المُسلَّحين. سأريد معرفة ما يحدث ومساعدتك.

- يمكنني إرضاء فضولك مُقدَّماً. إن دخلت غرفة الغنية ستراني مُمدَّداً على الأرض، بينما ينبثق الدم بغزارة. وما إن يشحب وجهك من المنظر الذي تراه، حتى يعطيك أصدقاء المُجرم الجُرعة ذاتها، وبشيءٍ من الحظّ يمكنك الزحف نحوي وتمدّ يدك لي، وسأضغط عليها بأخوَّةٍ. لكن لن يمكنني أن أقول لك: «وداعاً يا زميلي»، لأنهم سيكونون قد أطلقوا الرصاص على جسدي بالكامل، بل ولساني أيضاً. أَمسِكْ البراغي يا فتى!

أطاع الفتى الأمر ووضع البراغي في جيب سترته.

- سأفعل ما تقول يا مُعلِّم. لكن يبدو لي أنك تقرأ الكثير من الأدب الخيالي.

- ليس كثيراً. قرأت قصة تشيخوف هذا التي حدّثتني عنها.

- حقيقةً يا بروفيسور؟

- لقد أثارت اهتمامي كثيراً.

لكن القصة ليست من تأليف تشيخوف. تشيخوف هو الشخصية في القصة. المؤلف يُدعى كارفر. رايموند كارفر.

- ماذا تفعل لكي تحفظ مثل هذه الأمور المُعقَّدة؟

- تذكَّر أنني أمتلك ذاكرة جيدة يا بيرغارا غراي. ما زلت أتذكر كل أسئلة امتحان فكتوريا.

- هل تتذكّر الإفطار؟

- بالطبع.

أسند الشاب السُّلَّم إلى الجدار المعدني الأيسر لمقصورة المصعد، صعد عليه ثم ساعد المُعلِّم في رفع السقف الذي أمكنهما إسناده بالقليل من الضجيج، لكنه كان كافياً لجذب انتباه أيّ حارس مارٍّ عرضاً.

- «لننتظر دقيقةً». همس نيكو بينما يضع إصبعاً فوق شفتيه.

أحنى أنخيل سانتياغو رأسه وفرك جبهته بقوة، كأنما يحاول الوصول إلى شيءٍ ما داخلها. بعد وقتٍ مناسب تحدَّث بحذرٍ:

- هل تريد أن ألقي عليك الإفطار يا شريكي؟

- حسناً، لكن بصوت خفيضٍ.

- «قطعتا خبز مدوّر، وثلاث من الخبز المربّع، وثلاثة أرغفة من الخبز الطويل، وأربع شرائح من الخبز المجفّف، وثلاثة أرغفة خبز بالبصل، وثلاث قطع من كعكة الفواكه المحفوظة والزبيب.»

اصطبغت وجنتا بيرغارا غراي مثل السكارى الذين يؤدّون دور بابا نويل في المتاجر الكبيرة خلال أعياد الميلاد، وضغط بالتزامن على قلبه ومعدته، ونفخ وجنتيه راغباً في التَّحكّم في الضحكة التي كانت تناضل للصدور عنه، وفي النهاية استسلم وهو يسعل مُختنقاً.

- ستصيبني بجلطة أيّها الوحش!

- لم يمت أيّ شخص من القهقهة يا مُعلِّم.

- لِمَ تضحك الآن؟

- من شهيّتك! إن جمعناها ستصل إلى عشرين شريحة خبزٍ.

أمسك سانتياغو بالسلك ثم تسلَّقه، وحين أصبح في الأعلى، استمرَّ في فتح السلَّم الذي بدأه بيرغارا غراي على أرضية المصعد. وبالتزامن أدركا أن مساحة مقصورة المصعد لا تسمح لهما بفتح القسم الثالث من السلَّم، وفي ثانية واحدةٍ، دون أن يمنحه وقتاً للتأمل، فتح المُحترف باب المصعد وأخرج جزءاً من السلَّم حتى الأرض، ووضعه بشكلٍ مائل حتى أمكن لأنخيل سانتياغو أن يَمدَّه حتى الطول الذي يحتاجانه. عاد لإغلاق الباب وأشار للفتى أن ينزل لتدخين سيجارة.

- بتجاوز الأمر الطارئ، حلَّت ساعة العمل.

أشعلا السجائر وجلسا متواجهين على أرضية المصعد وهما يسندان ظهريهما إلى جدرانه، بينما تتلامس رُكَبهما تقريباً. دخَّنا في صمت، وامتصَّ بيرغارا غراي الدخان، ثم أطلقه إلى أعلى ليُخلِّف عموداً رفيعاً. وحينئذٍ قال:

- تشيخوف؟

- ماذا تقول يا مُعلِّم؟

- كنت أقول إن تشيخوف وزوجته في فندق في الساحل الفرنسي. في تلك الليلة يشعر بوعكة كبيرة، تطلب زوجته استدعاء الطبيب، يذهب هذا ويرى ألا علاج لتشيخوف، وأنه يحتضر، يطلب الاستقبال ويطلب أن يأتوا بزجاجة شامبانيا من أفخر الأنواع مع ثلاثة أكواب. هل هذا ما يحدث أم أنني مخطئ؟

- كما تقول بالضبط يا بروفيسور.

- حينئذٍ يصل النادل، يفتح الطبيبُ زجاجة الشمبانيا، تنطلق سدادة الفلّين لتسقط في مكان ما، يشرب الثلاثة، وبعد قليلٍ يموت تشيخوف.

- تشيخوف العظيم يا دون نيكو!

- موافق. في اليوم التالي يعود النادل إلى الغرفة بمزهرية فيها ثلاث زهور صفراء، لكنه لا يعرف أن تشيخوف قد مات.

- حتى الآن جيّد.

- يُريد أن يعطي المزهرية للمرأة، لكنها متألمة كالمغيّبة. حسناً، لقد مات تشيخوف.

- بالفعل. بعد ذلك تأتي تفصيلة سدادة الفلين.

- بالضبط. الفتى هناك، يُمسك المزهرية بين يديه، يقف مُعتدلاً، أتخيّله أنيقاً، قصير القامة، وفجأة يكتشف سدادة زجاجة الشامبانيا على الأرض. وحينئذٍ يشعر بحاجة مُلحّة للانحناء وأخذ سدادة الفلين التي شوهّت ترتيب الغرفة بالكامل. هل هذا صحيح؟

- هذا ما كتبه كارفر.

- حينئذ تطلب منه الأرملة الذهاب لأفضل شركة خدمات جنائزية في المدينة، ليطلب من المسؤول أن يتولّى أمر كلّ شيء لأن تشيخوف قد مات. وأن يسير منتصب القامة كأنما تشيخوف بنفسه ينتظر الزهور الصفراء الثلاث. لكن، بينما تعطيه الأرملة التعلّيمات، يُفكر الفتى، وهو يمسك المزهرية في يده، كيف يلتقط سدادة زجاجة الشامبانيا الموجودة بجوار قدميه. هل هذا ما يحدث في القصة؟

بصق أنخيل شيئاً من التبغ الملتصق بطرف لسانه، ثم وضع يده على ركبة بيرغارا غراي وقال:

- بالفعل. هذا ما يحدث في القصة تقريباً.

أسند المحترف الشهير رأسه على اللوح المعدني، ونظر عبر عتمة النفق إلى السقف. أخرجَ من الحقيبة الجلدية مصباحاً يدوياً، وأنار القسم الزائف من الجدار الذي أعدَّه القزم ليرا عندما كان يعمل كميكانيكي في شيندلر. وواصل وهو يُدخّن:

- هذا يعني أن تشيخوف قد مات، ومشكلة الفتى هي التقاط سدادة الفلين من الأرض.

- يمكنني القول إن هذا هو أحد موضوعات القصة. لم يبدُ عليك سمت التفكير يا دون نيكو؟

دلَّك الرجل عظام فكّيه بأصابعه، كأنما يريد التَّخلص من التوتر، وبعد ذلك وضع عقب السيجارة في المطفأة.

- لهذا، كما أتيت بالمطفأة، كان الفتى يريد التقاط الفلّين من الأرض.

- تفكير جيد يا بروفيسور.

- هذا يعني أن هذا الفتى، وأنا أيضاً، إن كنّا في سفينة عابرة للمحيطات وهي تغرق، ولنقُل «تيتانيك»، ورأينا زجاج المقصورة متّسخاً، فسنقوم بتنظيفه.

- حسبما تقول، وحسبما أرى، يمكنني القول إن هذا ما سيحدث.

- هذا يعني أن الحياة مليئة بالأمور الهامة والأمور التافهة. لكن بما أننا نعيش دائماً فيما هو تافه، لا يمكننا أن ندرك إلى أيّ جزء من الأمور الهامة يتمي الجزء التافه الذي نقوم به.

- هذا موضوع فلسفي هام، يمكنك مناقشته بهدوء مع فكتوريا بونثيه في ضيعتي.

- هل تفهم ما أقول؟

- إلى حدٍّ ما. لكن لا تنسَ لمَ جئنا هنا.

- هذا حقيقي.

- أنت بنفسك قلت ذات مرّة عبارة الرئيس أيلوين: «كل يوم هدف».

- يا لذاكرتك يا لعين! إنها أقوى من ذاكرة الفيل.

- أكثر من الكلب الضالّ يا بيرغارا غراي.

- كيف تفعل هذا؟ لكي أتذكّر اسمي أنظرُ إلى بطاقة الهويّة كلّ يوم.

- مثل الكلاب. أرفع ساقي أمام كلّ شجرة.

- ما هي اللغات التي تتحدَّثها؟

- الإسبانية.

- هذه واحدة. هل توجد لغة أخرى؟

- في هذه اللحظة، هذا هو كلّ شيء. لكنني أعرف شيئاً من الإنجليزية.

- لنرَ.

- وان دولار ميستر، بليز. وأنت؟

- أي شود موف ذا ستونز أوف روم تو رايز أند موتيني

- تبدو كلماتٍ عذبة يا مُعلِّم. ماذا تعني؟

- إنها كلمات شكسبير. «سأحرّك أحجار روما حتى تنتفض».

- يا بروفيسور، إنك تدهشني كثيراً. لم أتخيّل مُطلقاً أنك قادر على الاستشهاد بشكسبير.

- لقد دخلت السجن مرّاتٍ عديدة. وفي بعض المرّات زاملت أناساً مُحترمين، وفي مرّاتٍ أخرى كان هناك إنجليز.

47

نهضا، ثم أمسك بيرغارا غراي بصندوق الأدوات، وتكفَّل أنخيل بالأجولة الصفراء المُقاومة للبلل. يجب عليه أن يضع جوالاً فارغاً فوق المنطقة التي حدّدها القزم لامتصاص الضجيج، بينما يقوم بالبروفيسور بهدم الجدار الزائف بالمطرقة الحديدية.

كانا يتوقّفان عن هدم الجدار من حينٍ إلى آخر ويسترقان السمع تحسُّباً لانتباه أيّ شخص. وسرعان ما أدركا أن أعمال التطوير في سانتياغو تملأ الأفق ببناياتٍ تحت الإنشاء بضجيجها وصخبها. وعلى الرغم من هذا اجتهدا في إصدار أخفض صوتٍ ممكن، حتى شعرا أنه يكفي دفع الجدار الزائف بإصبع لكي يسقط. الأمر الوحيد الذي أثار تردّدهما هو إسقاط الجدار داخل المكتب، أم تركه يتهاوى في نفق المصعد حتى الأرض. عواقب الاختيار الأول محسوبة، لكن الاختيار الثاني يخرج عن نطاق سيطرتهما: من يدري كيف سيكون ردّ فعل الحرس عندما يسمعون انهمار الحطام.

الآن حانت لحظة إجراء المُعلِّم للعملية الجراحية الخاصة. نفذ عبر الثقب دون جهدٍ كبير، وعندما أصبح على الجانب الآخر أشار لأنخيل لكي يعطيه حقيبة المعدّات. وهمس بصوتٍ خفيض:

- هنا تنتهي خطواتنا معاً يا شريكي. الآن ستهبط طابقين وتنتظرني بصبرٍ شديد.

- معذرةً يا مُعلِّم، لكنني أودّ رؤية العظيم بيرغارا غراي وهو يعمل. سيكون هذا أمراً جديراً بأن أحكيه لابني.

- أولاً يجب أن نعمل على ألا يولد هذا الابن يتيماً. انزل الآن، ومهما حدث، فلا تُحرِّك السلَّم لأيّ سبب. السلك يرعبني، والسقوط في الفراغ يفزعني.

تقدَّم المحترف خطوةً كنحَّات يواجه جلموداً من المرمر، وحينئذٍ أوقفه الفتى بصفيرٍ. كان يمسك في يدِه الجوالين الأصفرين ومدَّها له.

- حصادٌ جيّد يا مُعلِّم.

كان شريكه قد عَبَرَ نقطة الذهاب دون رجعة ولم يرغب في الردّ. بل إنه لم يلتفت إلى الخلف لينظر إليه، ووصل حتى الخزانة الضخمة رمادية اللون وتحسّسها بوَلِهٍ.

نزل سانتياغو بضع درجات على السلَّم، لكنه تعلَّق لاهياً على الكابل، ووصل إلى أرضية المصعد مُمسكاً، بقوّة، بالكابل. كانت حقيبة المُعلِّم تحتوي على علبة سجائر وكتاب «ثلاث زهور صفراء» مُغلَّفاً بورق الرسم البياني المعتاد. رشفةٌ من المياه المعدنية، سيجارة مشتعلة، وكتاب مفتوح على الصفحة الحادية عشرة، بدأ في قراءة قصة «الصناديق» ربما للمرة الخامسة: «أعدَّت أمي الحقائب وأصبحت جاهزة للرحيل».

كصانع الخزف أمام الصلصال، وكالمُتعبِّدة أمام صورة قدّيسٍ صاحب معجزات، وكالراقص المندمج في رقصته، والممثل يقرأ نَصّه، وكالطائر مُحلِّقاً، هكذا كان اللص أمام دفَّة الجلمود المعدني. عندما كان في السجن، شعر بخوفٍ شديد من العالم الخارجي الكبير، بسبب كوابيس

مترعة بالتطور تسبب فيها التليفزيون والصحافة. عندما خرج كان بانتظاره جحيمٌ إلكترونيّ حيث لا وجود لأدواته التقليدية. كان مرور الزمن سيحطّمه ويحيله إلى مجرّد لصٍّ مُتقاعد منهزم أمام خصمين لا يُقهَران: خيانة شريك، مثل مونساتريو، الذي كان يكسر كلّ أعراف الفروسية التي تحكم العلاقات الإجرامية، والتَّعقيد الإلكتروني بأكواد رقمية عصيّة على الحلّ، وأرقامٍ سرية يتم التحكم بها عن بُعد.

ولحسن طالعه، اكتشف مع أوّل لمسةٍ للخزانة أن هناك شيئاً ما يجمعه بالخنزير كانتيروس: السنّ.

اندحر كلاهما أمام التَّطور، الكومبيوترات، الهواتف المحمولة، البنوك الافتراضية، الدي في دي، أشباه الموصلات، ولهذا اختار أكبرُ رجل عصاباتٍ في تشيلي خزانةً يفهمها تماماً دون الحاجة إلى البحث عن عونٍ لدى المبرمجين والشغوفين بالأنظمة الرقمية، الذين يمكنهم سلبه ثرواته بالسحر الأسود الذي يمارسونه، إن عرفوا بمصدر هذه الثروات.

فركَ يديه وهو يُفكّر أن هذه إشارة على المجايلة، وأنه يجب أن يأتي ببادرة من جهته بفتح صندوق القرصان بأكثر الأساليب تقليدية.

لم يشعر بالتوتر ولا العجلة وهو يضع كلّ أدوات حقيبته فوق البساط، لأن دخوله المكتب دون أن يرنَّ أيّ جرس إنذار يؤكد أن عصابات كانتيروس فضَّلت وضع كلّ الأجراس الزاعقة على مدخل المكتب.

لم يتخيَّل أيّ شخص أن اللص سيسقط من السماء عن طريق المصعد، وبالتالي لن يمكنهم الإيقاع به في الشراك والفخاخ المنتشرة على الجانب الآخر. لكن هذا الإنجاز كان بحاجة إلى مهارة شخصٍ ضئيل مثل القزم الكبير ليرا، الذي كان يستفيد جيداً من حجمه في صنعته كعامل بناء.

كم كانت سعادته عندما وضع القدر هذه الهدية تحت قدميه! وكم كان

قدرُ اغتمامه عندما دخل السجن بهذه الثروة المفترضة التي لا يمكنه أن يضعه يده عليها!

وأيّ تكريمٍ له، لنيكولاس غراي، أن يأتمنه مُدبّر الخطة الهدية على سرّ مثل لوحات كنيسة سيستينا(*)!

يوجد مثلٌ في تشيلي لتحيّة الضيوف، إذ يُقال لهم: «البيت صغير لكن القلب كبير». كان بيرغارا غراي يستخدم المفكّات والمفتاح الإنجليزي والكمّاشة وأسلاكاً ذات أحجام وسُمْك مختلف، وسمّاعة طبّية، وإزميلاً ومِبرداً ومثقاباً وآلة تجليخ، وكان يشعر بالبهجة أمام منظومة الخزانة التقليدية، وفكّر في نَصّ بطاقة بريدية يمكنه إرسالها لكانتيروس: «الخزانة كبيرة لكن قلبك صغير».

بعد أربعين دقيقة من العمل، استسلم القفل الأخير، وعلى الرغم من أن جائزة بطولته كانت في متناول يده، إلا أنه لم يفتح الباب الحديدي. قال لنفسه إنه سيدخن سيجارة قبل أن يحصل على خيبة أمل أو فرحة القرن. لكن في لحظة وضع عود الثقاب على شريط الاحتكاك في علبة الثقاب ماركة «أنديز»، جعله هذا الاسم يتذكّر سلسلة الجبال التشيلية الرائعة التي ربما تحتضنه بعد ساعات، فوضع عود الثقاب غير المشتعل بين أسنانه، وأعاد السيجارة إلى جيب القميص.

كان عليه أن يُركّز خلال دقيقة، ليرى ما إن كان الحدس الذي منعه من التدخين يخبره الآن بشكل عقلاني بمعنى الحظر الذي حرمه من بضع دفقات دخّان مريحة للأعصاب. بحث عن العون وهو يجوب الغرفة بعينيه، حتى كشفت له لوحةٌ معدنية تحمل علامة الشعلة عن الحقيقة: كان هناك إنذارٌ في الداخل، لكن ضدّ الدخان.

(*) هي أكبر كنيسة موجودة بالقصر الباباوي الذي يعتبر المقر الرسمي للبابا في مدينة الفاتيكان، وتحوي عدة رسوم لمايكل أنجلو. (م).

ياه! لو كان حدسه الذهبي يفيده في شيء ما خارج عالم الجريمة! لو كانت قدرته الفائقة على الاستشعار قادرة على إخباره بالمبادرات والكلمات التي يمكنها غزو قلب تيريزا كابرياتي مجدّداً! وابتسم وهو يُفكر أنه على استعداد لتقديم كلِّ ذهب العالم، الذي يخصّ الآخرين، لكي يعيش معها.

حينئذٍ، بتلقائية، دون أداءٍ مسرحيّ للحظة الذروة والنشوة في عمله، فتح الخزانة، وبعد أن ألقى نظرة سريعة على أقسامها المختلفة، خدش رزمة، ثم أخرى، وبعد ذلك طرف تلك الرزمة الموجودة في نهاية الخزانة، حتى أمكنه أن يُشكِّل فكرة مؤكّدة أن الرُّزم الملفوفة في ورق أخضر تحتوي على دولارات، وتلك المغلّفة بورقٍ أزرق تحتوي على عدة كيلوات من العملة المحلية. كانت هناك علبة مُرصَّعة بالصَّدف حيث تختبئ بضعة جواهر، وهي ربّما تعود لأيام الوطنية الغابرة، عندما كانت السيدات المناصرات لبينوتشيه يهدين أساورهن وأقراطهن وخواتمهن للعسكر، للمساهمة في إعادة بناء الوطن، بعد الانقلاب على سلفادور أليندي.

دون المزيد من التلكّؤ، بضرباتٍ قويّة صائبة من راحة يده، أخذ يُدخِل الغنيمة الثمينة في الجوال الأصفر المقاوم للبلل، ولم يتوقَّف إلا عندما أدرك أن رزمة أخرى قد تعني حمولة كبيرة تعيقهما عن حمل الجوال على الكتف. أغلق الجوال بالحبل الذي يمرُّ بين الحلقات المعدنية في طرفه العلوي. وبعد ثلاث أو أربع دقائق أخرى انتهى من الجوال الثاني، وتوجَّه بهما إلى ثقب المصعد. في الأسفل، وكأنما قد ظلّ في وضع انتظار خلال الساعة السابقة، سأل الشاب أنخيل سانتياغو بإشارة عمّا يجب أن يفعل. مرَّر بيرغارا غراي أحد الجوالين عبر الثقب، وصعد الفتى على السلَّم بسرعة نمرٍ ذي مخالب قابلة للتَّمدُّد، حسب الوصف المذكور في امتحان فكتوريا.

عندما أمسك بالغنيمة بين يديه، كانت تعليمات البروفيسور بطريق الإشارة موجزة وبلا لبس: انزل وتعال من أجل الثاني!

تكرَّرت الحركة بنجاح، وخشية صعوبة انتقال جسد دون نيكو من المكتب إلى السلَّم، صعد أنخيل للمرة الثالثة وساعده في حركته المتعثرة. وما إن تركه على الدرجة العلوية من السلَّم، حتى هبط بسرعة إلى أرضية المصعَد، لكيلا يُثقل على السلَّم الذي قد ينكسر تحت ثقل شخصين.

فقط عندما أصبحا معاً على قاعدة المصعد، مدَّ العجوز ذراعيه مثل بجعةٍ منتصرة تعود بالفم ممتلئاً بالسردين الشهيّ، وطلب من شريكه عناقاً حاراً.

وهكذا ظلّت وجنتاهما المتّقدتان ملتصقتين خلال وقتٍ طويل.

48

أخذا يملأان عشرات الأكياس البلاستيكية بالعملة المحلية داخل سيارة موناستريو. كانا يفعلان هذا بسرعة، لأن اللقاء مع الدليل الخبير يجب أن يكون قبل غروب الشمس بساعتين: كانت جسارة عبور سلسلة الجبال ليلاً محظورة على أيّ شخص، وبضمن ذلك مُهرِّبو المخدّرات.

كانت المهام موزَّعة بحيث يصل بيرغارا غراي وفكتوريا إلى الطريق السريع في الرابعة وهما يحملان ثلاث حقائب صفراء مقاومة للبلل، وهي التي سيوزّعون حملها بعد ذلك في حقائب ظهر من أجل عبور سلسلة الجبال. وسيحمل أنخيل سانتياغو الحلوى على هيئة أوراق خضراء من أجل الغداء، الذي كلِّف به إيلزا في شارع تابيرناس، لدى وجود الجميع في ساعة التوزيع، لكيلا يتأخر في الجزء الأخير من خطّته: ركوب تاكسي مع تشارلي دي لا ميراندولا حتى حلبة سباق تشيلي، وركوب شاحنة نقل الجياد حيث ينتظره حصانه بنفاد صبر. سيكون مطيّته في الدروب الجبلية الوعرة غير الشرعية.

أوصى كلٌّ منهما الآخر بالحذر، وودَّع بيرغارا غراي الشاب في أقرب محطة مترو إلى بار موناستريو. تصافحا عبر نافذة العربة، وانتهز أنخيل هذه الملامسة لكي يعده بيرغارا غراي ألا ينتظره في المزرعة السويسرية

إن لم يظهر في الساعة المُتَّفق عليها. في تلك اللحظة ذاتها يُمكنه تخيُّل أن السائس يتقدَّم ببطء شديد بعربته القديمة، ومن جانب آخر، إن انطلقا مع الدليل في ضوء الشمس، يمكنه العثور عليهما بعد ساعتين، لأنه كان يجوب بهاويات تلك الجبال منذ طفولته.

كانت كلّ الأكياس الصغيرة تستريح داخل كيسٍ كبير متأرجح ببهجة في شارع تابيرناس. كان كلٌّ منها يحمل اسم صاحبه بلونٍ أزرق. وحسب حجم كلّ كيس يمكن التَّكهن بالقيمة التي ينسبانها لكلّ واحد من شركائهما في الجريمة. كانت لفافة كلٍّ من عاملة الكاشير إيلزا، وحارس السيارات نيميسيو سانتليش، جديرة بتصنيف «توب وان». دون أن يوحي هذا بالتقتير في عطايا تشارلي دي لا ميراندولا، أو صاحب المعدّات، أو المُعلِّمة العاطلة سانهويثا.

لكن قطعة الكريز في الكعكة كانت لفافة مُعتبرة بلونٍ أزرق داكن، لم تكن جديرة بالطبع بكيسٍ بلاستيكيٍّ عاديّ، وإنما ستترك الجميع حائرين إزاء النقش الذي يقول: «القزم» بحروف كبيرة. كان حجم الحروف متناسباً عكسياً مع حجم صاحب اللفافة.

بينما كان يستبق لحظة التوزيع المنتظرة، كان تيّارٌ داخلي ينتاب أنخيل سانتياغو، وعزاه للبهجة. كان العالم مجنوناً، نجمة لطيفة تدور حالمةً بين آلاف المجرّات، وكلّ الأفراد الذين يعبرون في طريقه كانوا يبدون له شخصياتٍ عظيمة لا مثيل لها: ماسح الأحذية، الرجل قصير القامة خلف عربة الفول السوداني، الطفلات المبكّرات اللائي كن في الشارع بجونلات قصيرة للغاية جديرة بالليل، المراهقون الذين يدخّنون كرجال بالغين وهم يستندون إلى السور على الناصية، مالك الكشك الذي يصيح «الميركادو»، ربما بنبرة مديحٍ جديدة لمحبوبته، سائقو التاكسي وهم يمسحون نوافذ سياراتهم، ربّات البيوت بأكياسهن التي تفيض بالخضراوات، الأطفال

الذين يدفعون سفناً ورقية في مجاري المياه، عمال البناء بخوذاتهم الملونة وهم يُعلِّقون على احتمالات فوز فريق كولو-كولو في مباراة الليلة، مجموعة الطالبات اللائي يُجرِّبن أمام محطة بنزين رقصةً رأوها في مسابقة تلفزيونية، وتلك الحمامات وطيور الدوري على إطارات النوافذ أو بين أوراق الأشجار، وطيور الطنّان والشحرور التي تشرب من النافورة الحجرية، وكلّ تلك الكلاب التي ظهرت فجأة في الحي، بعلامات شجار على آذانها الجريحة، والتي تبحث في صفائح القمامة أو تحاول الجماع وسط الغبار الذي تثيره السيارات.

خطرت له فكرة واحدة، إذ بدا أنه يلمح بريق الألف قيراط من السعادة. كان قد قام بمراهنة وفاز: انمحى عار سنوات السجن من ذاكرته، والآن بعد أن أصبح طاقة خالصة ومستقبلاً، لم تكن تجري في عروقه نقطة واحدة من الضغينة. تذكَّر فرناندو، السجين الإسباني المهووس بالخيول، الذي وصف له جمال المراهنة والربح، بعينيه المدوّرتين متّقدتَين خلف نظارته، بينما كانا في كافيتريا السجن: «يوم يفوز حصاننا في النهاية، ربما عكس كل التوقعات، ضد كلّ الظروف غير المواتية، ضد ما هو محتمل ومنطقي، ذلك اليوم سنشعر أننا هزمنا رتابة الحياة، وأن قوة مبتهجة تنبض في تناغم سرّيّ داخل قلوبنا».

دخل الفتى المحلّ وهو يدفع الباب بكتفٍ، وقبل أن ينهض الحضور متوتراً صرخ بنبرةٍ ملحميّة:

- هل تناولتم الغداء؟

صدرت «نعم» مدوّية، وتبادلوا قبلاتٍ على وجناتهم وبعض الدموع على البلوزات والياقات.

- «هل كلّ شيء على ما يرام يا أنخيليتو؟». سألت إيلزا.

- «على ما يرام» تعجز عن التعبير يا سيدتي. لقد سارت الأمور بشكل رائع.

- والبروفيسور؟

- كما يقال: توجد أربعة اتجاهات رئيسية، ولابد أنه في أحدها.

مرَّ بعينيه على الحاضرين: مُعلِّمة الرسم ذهبت لمصفّف الشعر، وقام الخيَّاط بوضعها داخل فستان أزرق مليء بالثنيات، يُعيد شبابها لأسبوعين. وبدلاً من القبعة الجوخ المتواضعة بلون المطر، كان حارس السيارات يضع فوق رأسه قبّعة قبطان يختٍ. أما عاملة الكاشير، فقد أدرك أنخيل بنظرة واحدة أن أي وصف سيعجز عن التعبير: مثيرة، متألقة، غامضة، سرّيّة، متواطئة، رائعة المزاج، عصيّة على الوصول، واعدة، وحشية، منتشية، راجحة العقل.

تلقَّى كلٌّ منهم كيسه، وعادوا للحلوى الحقيقية بعد الغداء، التي كانت تتكون من فاكهة بابايا بكريمة نيستله. كانت هناك محاورة جانبية بين أنخيل وإيلزا متعلّقة باللفافة الزرقاء الداكنة للسيد ليرا. وتبادلا الاقتراحات حول كيفية إدخالها إلى السجن. كانت المرأة تميل لفتح حسابٍ بنكيّ باسم القزم، لكن عندما علمت أن عقوبة ليرا خمسة عشر عاماً ويوم، اقترحت إيلزا حفظ الغنيمة في حشيّتين والتعاقد مع خطيبة من الوسط لكي تزوره مُحمَّلة بمؤن وتبغ ومشروبات كحولية، وبالجنس في الأيام المصرح بها من مصلحة السجون.

بعد الانتهاء من التوزيع، اكتشف أنخيل سانتياغو مندهشاً أن حصة تشارلي دي لا ميراندولا ما زالت في قاع الكيس الكبير. وبينما يودِّع المجموعة تذكَّر أن ميلتون، الحصان، قد شارك في سباق الألف متر اليوم، ولا بدّ أن مدربه قد اضطرّ لحمل قبّعة دونيا تيريزا للفارس أجيليرا. لم

يكن هناك بُدٌّ من ترك اللفافة في عهدة إيلزا، وبعدما صافحهم بيده ودَّعهم بحركة تحليق فوق رأسه.

وعندما أصبح في الشارع، أسرع الخطا باتجاه الطريق الرئيسي. وكإجراءٍ احترازيّ أخير، لم يكن راغباً في أن يصل إليه أيُّ شخص ويرى أرقام لوحة التاكسي الذي سيركبه. كان الكثيرون قد هجروا الشوارع لتناول الغداء ونوم القيلولة، ولم يكن هناك إلا مشاةٌ قليلون يمرّون دون اكتراث به.

لكن، على مبعدة أمتارٍ قليلة من وجهته، ظهر رجلٌ نحيل مُعتمرٌ بقبّعة عريضة، وأمره بالتوقُّف وهو يُخرِج مُسدّساً من بين أزرار المعطف المفتوحة على مستوى الرِّدف. أدرك الشابّ أن الشخص المجهول عازمٌ بشكلٍ اندفاعيّ، وفتح ذراعيه كأنما يُقدّم تفسيراً، وقال:

- ما الخطب يا رجل؟!

ريغوبيرتو مارين، الذي ينتحل اسم ألبرتو باررا تشاكون، والذي حمل اسم إنريكيه غوتيرث رغماً عن إرادته، قرّر أنه سيتأثر عاطفياً إن تبادل كلمة واحدة مع الملاك، ولن يُنفّذ المهمّة المُكلَّف بها. دون تباطؤ، أطلق رصاصتين على قلبه مباشرة.

متأكّداً من دقّة تصويبه، حفظ السلاح في جيبه، وركل الكلب الرمادي الذي ذهب ليتشمَّم ساقيه، ورأى كيف ينهار «التّكليف» على الأرض، واستدار دون تلكّؤ متّجهاً إلى مدخل المترو وهبط السلالم.

لم يعرف أن الرجل ذا الخطوات المُتعبة الذي تعثَّر به على الدرجة السابعة هو مدرّب الخيول تشارلي دي لا ميراندولا، الذي كان مُتّجهاً إلى بار موناستريو بأمل لقاء الأصدقاء في لحظة تقديم الحلوى. انتبه مدرّب الخيول لوجود مجموعة من الفضوليين المُتحلِّقين في دائرة حول جسد

الشاب المتمدّد على الأرض، والذي كان على قيد الحياة بعد. عندما أطلّ برأسه بينهم، تعرَّف على الفور الشخصَ الغارق في دمه، كان أنخيل سانتياغو. دفع دائرة الفضوليين، رفع رأس الفتى المُحتضر وأسندها على ركبته.

- ماذا بك يا فتى؟!

- لقد قتلوني يا دون تشارلي.

- اطمئنّ! عربة الإسعاف توشك على الوصول.

أمكن للفتى أن يرى أن دفقة الدم التي انفجرت في صدره، تنسال من فمه أيضاً. وعلى الرغم من هذا أمكنه أن يقول:

- كيف كان أداء ميلتون؟

- انتهى رابعاً فقط.

- هل أدّى سباقاً جيداً؟

- كان مُتقدِّماً حتى المئتي متر الأخيرة. كان يسير بشكل جيد حتى ارتطمت به الجياد الجيدة في الوحل.

- لكنّه أصبح جاهزاً للسباق التالي، أليس كذلك؟

- بالطبع يا فتى!

فقدَ رأس الفتى تماسكه وسقط على فخد المدرب. اعتقد أنخيل سانتياغو أنه استطاع توجيه السؤال الذي كان يقلقه: إن كانت الضربة قد تمَّت بلا شائبة في كلّ خطواتها، لماذا يموت، بحقّ الشيطان!؟

49

خبّأا السيارة تحت كومةٍ من القشّ داخل أحد مخازن المزرعة السويسرية. قادها بيرغارا غراي دون رؤية في هذه المزرعة حيث يُطلق الشعير والشوفان غُباراً يدغدغ الأنف.

أنزلا الحقائب وثلاثة أجولة صفراء بجوار مائدة المطبخ. كان فرنٌ من الحطب يخفّف من حدّة البرد، ويوجد فوقه وعاء بداخله طائرٌ يغمر الخضراوات المصاحبة له بالدسم الغزير.

كان الدليل، صديق أنخيل، رجلاً مُتّقد النشاط، وبعد تحيّتهما دون ملامسة جسدية، قادهما إلى القائم حيث توجد ثلاثة خيول مربوطة ومجهّزة لعبور الأعالي.

- إنها تعرف الطريق جيداً. إن تحرَّكنا الآن، فسنصبح في الأرجنتين غداً.

نطق بيرغارا غراي بهاجس انتابهما أثناء الرحلة بالسيارة.

- لقد سمعنا يا سيّد...

حاد الدليل بنظرته بغضب إلى جدولٍ صغير وقال:

- لم أسألكما عن اسميكما ولا ضرورة لأن تعرفا اسمي.

- حسناً يا صديقي. سمعنا أن عبور سلسلة الجبال مستحيل في هذه الفترة من العام في هذه المنطقة. يقول الجميع بوجوب الاتجاه إلى الجنوب.

- الطريق إلى الجنوب يوجد إلى يسارك.

- لا. إننا نسأل فقط.

- لا تغضب إذاً يا سيدي! إن قلت لك إنني سأعبر بكم إلى الجانب الآخر، فأنا ملتزم بكلمتي.

- بالطبع.

- لقد وضعت سروجاً على ثلاثة حيوانات فقط، لأن أنخيل أخبرني أنه سيأتي بحصانه.

- «حصان سباق». شرحت فكتوريا.

حاد الرجل بنظرته إلى الجدول مرةً أخرى، وداس على حصاة في الأرض حتى اختفت تحت الأرض.

- سأترك له أحد جيادي. الحصان المسكين الذي يأتي به سيقع في أول هوّة. متى قال إنه سيصل؟

- بعد قليل.

- سيكون عليه تسخين الحساء، لأنني أشعر بالجوع.

- لنتناول العشاء إذاً!. قال أنخيل إنه سيلحق بنا بعد ذلك.

- إنه قادر على هذا. إنه يعرف الخطا والخبايا مثلي تماماً. عندما رحلت أمه في مركب جاء ليعيش هنا معي. كان يتسلق شجرة التين هذه كل يوم، وكان يساعدني في البذر. المشكلة الوحيدة أنه كان يحب الجياد كثيراً، فسرق الحصان المُفضَّل لابن السيد. هل تعرفان هذه الحكاية؟

- نعرف أنه دخل السجن يا سيدي.

- لا أحب أن ينادوني «يا سيدي». إن كنت تريد وضع اسم لي، ليكن تيتو.

- تيتو، كنية إرنستو؟

- لماذا تُلحّ في هذه التفاصيل يا سيدي؟ تيتو فقط.

ظلّ ثلاثتهم صامتين أثناء العشاء. كانوا ينفخون الحساء الساخن في ملاعق معدنية ثقيلة، أو يلتقطون حبّات الذرة من أطراف الملاعق، يضعون عليها زبداً وملحاً ثم يطحنونها بأسنانهم ببطء. إن كان المضيف يُبدي عجالة، وينظر بشكل لا إرادي إلى الساعة على هيئة عشّ طائر سويسري كلّ ثلاث دقائق، فإن فكتوريا ونيكو كانا يُطيلان العشاء بمضغ الخبز ببطءٍ شديد، على أمل ظهور أنخيل سانتياغو قبل بدء المسيرة.

- ماذا تحملان في الحقائب؟

- ملابس.

- ثقيلة؟

- صدريّات ثخينة، جوارب صوفية، قبّعات بغطاء للأذنين.

- حسناً. وماذا تحملان في الأجولة الصفراء؟

تبادلت فكتوريا ونيكو النظرات وهما يضعان الملعقتين في فميهما، وعندما أعاد المُعلّم نظرته إلى الوعاء، أضاف وهو يمضغ قطعة من القرع:

- مال.

- كثير؟

- لنقل إنه كافٍ.

أخذ الخبير يُحرِّك فكّه موافقاً، ولم يتوقّف عن هذه الحركة خلال برهة طويلة. غمزت فكتوريا لبيرغارا غراي لتقترح عليه ألا يكون شحيح

الكلام، لأن حركة الذقن هذه كانت طريقة خاصة بالفلاحين قبل الدخول في صُلب الموضوع.

- لا أعرف كم كان اتفاق أنخيل معك، لكن يمكنك فتح أحد الأجولة وأخذ ما تعتبره مناسباً.

كان المضيف قد أمسك بقطعة من الخبز التقليدي وأخذ يتلاعب بكريات اللباب، كان يدفعها بأطراف أصابعه ويوقفها على طرف المفرش لكيلا تقع على الأرض. فجأة توقّف عن اللعب. حلَّ عقدة الحبل، غاص بذراعه في الجوال وأخرج إحدى الرزم الزرقاء. وضعها فوق المائدة بعدما أبعد صحناً فخارياً به سلطة بصل وطماطم، خدش سطح الرزمة وأدخل إصبعاً، ومرَّ على الأوراق المالية بسرعة موظف بنك ليشكل فكرة دقيقة عن المبلغ، وقال:

- إن لم يكن لديك مانع يا سيدي، هذا المبلغ يكفيني.

- إن كان هذا يكفيك، فلا مانع لديّ.

- إذاً لن نتحدث في هذا الموضوع أكثر من هذا، ولنتحرّك.

شعرت فكتوريا بونثيه أن الوقت الذي مرَّ في الساعة كان أقلّ من خفوت الشمس التي كانت تبدو في هذه اللحظة مُسرعةً نحو الغروب.

- أرجوك أن ننتظر القليل من الوقت!

- لا يا سيّدتي. إن حلَّ الليل فلن يكون هناك سفرٌ. لا مجال للّعب مع سلسلة الجبال.

كان الجزء الأول من المسيرة حتى الوصول إلى سفح الجبل مجرّد سهلٍ، وعلى الرغم من الأشجار والأحجار والصخور التي كانت تخدش وتخز أجسادهم وأجساد مطيّاتهم، فإنه كان يبدو لطيفاً مُقارنة بالمنحدرات التي كان الدليل يقودهم عبرها.

توافق غروب الشمس مع انقشاع السحب الكثيفة، وشعرت فكتوريا بالفزع عندما رأت أن قمة الجبل المغطاة بالجليد كانت محاطة بدروب تترك مساحةً لا تتجاوز المتر عرضاً. انتبه تيتو لمخاوف الفتاة، وأمسك لجام الجواد الأسمر الذي تركبه بيده المغمودة في قفاز، ووجَّه لها التعليمات التالية:

- إن شعرتِ بالفزع فلا تجذبي اللجام بعنف، لأن مطيّتك قد تنزلق بينما تسعين لإيقافها. اتركي هذا الحصان المُلقّب بـ «الوحشيّ» ليحملك كما يريد، ولا تحاولي التأثير في سيره، لأنك لستِ محترفة. والحصان يعرف هذا. إنه يدرك أنه لا يمكن أن ينتظر منك سوى ارتعاشات الخوف، وفي الحقيقة يشعر نحوك بالاحتقار. بالنسبة لهذا الحيوان، أنت مجرّد حملٍ ثقيل. ولهذا من الأفضل ألا تتحرَّكي. تخيَّلي أنك في طائرة وأن وجهتك مُحدَّدة مسبقاً. لا يمكنك أن تطلبي من الطيَّار أن يهبط فوق قمة سلسلة جبال الأنديز.

- لكن الطريق يزداد ضيقاً باطِّراد.

- بالضبط. لهذا اسمحي لي بالسير أمامك! بعد بضع دقائق لن يمكن لحصانينا أن يسيرا متجاورين.

- هل لديك نصيحة أخرى؟

- هذا هو كلّ شيء.

ما إن صعدوا قليلاً حتى استخدمت فكتوريا كلّ المناظر الطبيعية التي تهديها إيّاها ثنيات الطريق لكي تنظر إلى السهل وترى ما إن كانت ستجد أنخيل. فرض الصمت نفسه على المجموعة دون أن يقترحه أي شخص. لم يكن هناك سوى صوت قعقعة الحدوات على الحصى والصخور، أو تساقط أحجار على المنحدر.

بدأ الليل يحلّ عندما عبروا أكثر المناطق انحداراً. أوقف الرجل الذي كان يقودهما حصانَه وسعل:

- بدءاً من الآن يا صديقَيّ، يوجد شوطٌ وعِرٌ ومنحدِر للغاية خلال نصف ساعة تقريباً. إن شعرتما بالدوار فأمسِكا بعنقي جواديكما، أغلقا أعينكما، واجعلا هذه الحيوانات لا تستمع إلا لصوتي. شيءٌ واحدٌ لا أريد سماعه منكما: أن تتوسّلا إليّ لكي أعيدكما. كنتم شجعاناً لتنفيذ الضربة، ولتكونا شجاعين لتحصلا على الحرية. اتفقنا يا سيّد....؟

- «ناديني بتيتو أيضاً». بصق بيرغارا غراي بينما يحاول التَّحكّم في اصطكاك أسنانه.

- «وأنا أيضاً». قالت فكتوريا بونثيه.

وصعدوا في بقايا ضوء النهار الأخيرة. أثناء صعودهم كان الهواء يصبح أكثر خفّةً وشفافية، وامتلأت أسماع المُستجِدَّين في هذه الأجواء بصرخاتٍ خفيّة، وعواء ذئابٍ وبوما، وخفق أجنحة طيورٍ جارحة. كانت المسيرة الشاقّة تبدو عذاباً طوعياً لتائبين أكثر منها موكباً منتصراً لمجرمين يتدفّؤون برُزم الأوراق المالية.

والجياد أيضاً كانت تبدو نافرةً وباردة، بلا تغييرٍ في الإيقاع ولا صهيل، كأنما تنفِّذ عقاباً مكرّراً. وفي تلك اللحظة تحديداً فكَّرت الفتاة في الحصان، في ذلك اليوم عندما قام رفيق أنخيل الرقيق بالشرب من البحيرة، بينما كانا يتبارزان بمبادئ فلسفية سطحية جديرة بالتعليم الثانوي. لكنها شعرت بشفقة لا حدود لها على جياد النقل هذه، التي كان عذاب السير على حافة الهاوية يقصف أعمارها. وندمت على أنها لم تضع بين الدولارات وملايين البيسوات المحلية بضعَ جزراتٍ لكي تقضمها الجياد أثناء المسيرة، كما كان الهنود الحُمر يمضغون أوراق الكوكا في الأعالي.

من أين يمكن لهذه الحيوانات المسكينة أن تأتي بالطاقة وسط هذا الصقيع؟ أيّ دفءٍ يمكن أن يوجد في هذا الجليد الذي ينخر حوافرها المُعذَّبة؟

وأين حبيبها؟ هل تخلّى عن الشاحنة وتأخَّر لأن إثارة النصر جعلته يأتي من سانتياغو بأقصى سرعة على صهوة الحصان.

بعد قليلٍ من هبوط الليل وصلت القافلة إلى أرضٍ مستوية مُغطّاة بالعشب والنباتات البرية، ونزل الدليل عن حصانه وعرض عليهما المساعدة بشبه ابتسامة. أخبرهما باستحالة عبور الحدود تلك الليلة، لكنهم خلَّفوا أشقّ جزء في الطريق خلفهم، وفي هذه المنطقة التي يطؤونها، خلف الأعشاب البرية، يوجد كهفٌ يسع ثلاثتهم لقضاء الليلة مع مطيّاتهم.

هناك يمكنهم إغماض أعينهم والنوم لبرهة حتى طلوع الفجر، وبعد ذلك، بعد ساعتين من السير، سيكونون قريبين للغاية من قرية على الجانب الآخر من الجبال، حيث سيجدون فندقاً وموظف استقبال يتغافل عن طلب بطاقات الهوية مقابل مبلغٍ معقول. وهناك يمكنهم شراء حقائب، بل حقائب حديثة أيضاً، بأقفال أمان، ويمكنهم الحصول على ملابس مناسبة لأهل الإقليم حتى يختفيا في ذلك المحيط العاصف الذي يُسمَّى بوينوس أيرس. إن لم يصل أنخيل سانتياغو في الوقت المناسب، فسيعطيه العلامات والإشارات الكافية التي تسمح له بالعثور عليهما.

بعد ذلك طلب مساعدتهما لشقّ طريقٍ بين شجيراتٍ بريّة محاطة بصخورٍ وأشواك. من يعرفون السرّ كانوا يخبّئون مدخل الكهف بهذه الطريقة. كانت كلمة الشرف بين لصوص الماشية والمهرّبين هي إزالة أيّ أثر قبل الرحيل.

تكاثرت الخدوش في أيديهم ووجوههم، وأُدمِيَت أذنُ راقصة الباليه

اليمنى بسبب شجيرة بأشواك تشبه الأسلاك الشائكة، وتغلغل الوحل شبه السائل في حذاء بيراغارا غراي. عندما شقّوا طريقاً كبيراً بما يكفي، دخلت الخيول بتواضعٍ محمود إلى نهاية الكهف، ونثر الدليل أمامها القشَّ الذي يحمله في جوالٍ.

بينما كانت الخيول تأكل طعامها، وضع تيتو ثلاث بطّانيات تقليدية على الأرض، وبدأ في كبس موقد كيروسين صغير، فعلى ناره سيقوم بتسخين ماء لإذابة القهوة سريعة التجهيز. قرَّبت فكتوريا قدميها من الشعلة وبعد بضع ثوان بدأت تشعر بكعبيها اللذين كانا متجمدين تقريباً من البرد، وهو ما سمح لها بأداء التمرينات التمهيدية التي كانت تقوم بها على العوارض.

نصحهما الدليل ألا يهدرا الوقت في تخيّل المُستقبل، لأن خبرته جعلته يدرك أن الهروب مشروعٌ في حدّ ذاته.

- حين يهرب المرء، لا يتوقف مُطلقاً.

عندما خلعت فكتوريا بونثيه حذائها المُبطَّن بالجلد، وأخذت تضغط على أصابع قدميها واحداً تلو الآخر لتتحقّق من وجودها في مكانها، اقترب منها بيرغارا غراي بدثارٍ سميكٍ للغاية وغطَّاها بسرعة.

- المال هو المال. لكن في الحقيقة يا بنتي، هاتان القدمان المُجنّحتان هما رأس مالنا الوحيد!

- «ورأسك يا بابي!». ردَّت مُبتسمةً.

أراحت رأسها على السرج، وبينما كان الضباب يتغلغل في الكهف، سقطت في النوم، تداعبها هاتان اليدان الخفيفتان المرتعشتان.

50

كانت أولهم في الاستيقاظ. كان ضوءٌ خجول ينفذ عبر الشجيرات البرية، وخمَّنت الفتاة أن النهار قد طلع في الخارج. خرجت من الكهف مسرعةً، دون ارتداء حذائها، كانت متشوّقة لرؤية ما تدّخره لها سلسلة الجبال في ذلك اليوم. حين أصبحت في الخارج، لم يمنعها البرد أو الرياح التي تصفر بجوار أذنيها، من تأمّل المنظر الذي تراه عيناها.

كان السهل الصغير يقع في منتصف الطريق بين وادٍ شاسع يتيه في الأفق، وقمم الجبال المغطاة بالجليد. وفوق قمم الجبال كانت الشمس الساطعة تكشف عن كلّ تفاصيل المنظر، أشجار الشانسيه والكافور المتناثرة، ينابيع مياه متفجّرة، منحدرات من الجليد، قمم عالية تبدو منحوتات من صنع مثّال قادم من عالم آخر، بعض العنزات التي تمضغ أعشاباً، قطيع السحب السريعة التي تطير نحو انفراطها، وفوق كلّ هذا توجد سماء بزرقةٍ صافية لدرجة أن فكتوريا بونثيه تساءلت ما إن كانت قد رأت هذا اللون من قبل.

وفجأة، كنيزكٍ من الريش المتساقط من أعلى قمّةٍ، حطَّ طائرٌ على صخرة تبعد عنها مترين، في هبوطٍ راقص متناغم. كان الطائر ذا عرفٍ أحمر فوق رأسٍ أسود مُستريح على عنق من الريش الأبيض.

ما إن توازن فوق الصخرة، حتى تبادل الطائر النظرةَ الفضولية ذاتها مع

فكتوريا، كأنما دخلا مبارزة لمعرفة من سيهزم الآخر.

جاء بيرغارا غراي ووضع يداً فوق كتفها، ولكيلا يقاطع التواصل الحميم بين الطائر والفتاة، همس لها:

- إنه كوندور.

لم تحِد بنظرتها إلى مُحاورها، لكن بعد استنشاق دفقة هواء نقيّ كيوم الخلق الأول، ردَّت عليه بابتسامة:

- اسمه العلمي «فولتر غريفوس»، من عائلة «نسور العالم الجديد». تعلَّمت هذا عندما كنت أستعدّ للامتحان مع أنخيل.

- هل تعتقدين أنه يعرف هذا؟

- ماذا؟

- الكوندور، هل يعرف أنه يسمَّى «فولتر غريفوس»؟

- أعتقد أنه يعرف يا مُعلِّم. يبدو عليه أنه طائرٌ مثقفٌ. عينا جرَّاح وعناد طبيب.

- طبيب الهواء.

- برافو يا دون نيكو. مجاز رائع!

كانت تستعدّ لمكافأته بقبلةٍ على جبهته، عندما لفت انتباهَها وجودُ هيئةٍ ضئيلة للغاية في أبعد نقاط المنحدر، فظلَّت لفتة الحنان مُعلَّقة. ضمَّت أجفانها لتحدَّ من بصرها، تخيَّلت رؤية فارسٍ على جواد في نهاية السهل. شعرت أن قلبها ينفجر بالسعادة.

- دون نيكو، إنه أنخيل!

- أين يا فتاة؟!

- هناك في أسفل! لدى انحناءة النهر.

- لا أرى أيَّ شيء.

- أُنظر يا دون نيكو! إنه أنخيل. إنه مُتَّجه نحو سلسلة الجبال.

- إنه بعيد للغاية. يبدو حصاناً وفارسه.

- إنني أراه أوضح مع مرور الوقت. إنه أنخيل سانتياغو على صهوة حصان أزرق.

- لا يا فتاة. إنه فارسٌ ما يركب حصاناً مُغطّى ببطانية زرقاء.

- إنها ليست بطّانية زرقاء يا مُعلِّم. إنه حصان أزرق.

اتَّجه الدليل نحوهما، وقال بعد تثاؤب هائل:

- معذرةً يا فتيان. لقد حانت ساعة التحرُّك.

استدارت فكتوريا بونثيه إلى الدليل. كان وجهها مُتّقداً، وسألته ما إن كان يرى صديق طفولته أنخيل سانتياغو في الأسفل، على البساط الأخضر المنُطلق من النهر، بينما يتجه نحوهم ممتطياً حصاناً أزرق.

شبَّ الرجل على أطراف قدميه، رفع قبّعته الصوفية وحرَّك عنقه نافياً. لا، في الحقيقة لم يكن يرى أيّ شيء، لكن يجب ان يتحرَّكوا، لأن مهامّ أخرى تنتظرهم.

حينئذٍ، ركعت الفتاة وعانقت ركبتي الدليل، ثم قالت:

- أرجوك يا دون تيتو ألا نرحل الآن. لننتظر سانتياغو!

أراد الرجل المندهش إبعاد وجه الفتاة عن جسده دون نجاح.

- لا معنى لهذا يا صغيرة. سانتياغو يعرف هذه الأماكن مثل هذا الكوندور. عندما يصل، سيتّبع خطانا ويعثر علينا.

- لننتظر ساعتين، ساعة واحدة فقط!

تبادلا النظرات، ورفع بيرغارا غراي كتفيه، وانضمَّ إلى رجاء الفتاة ضمنيّاً.

حينئذٍ، تسلَّقت فكتوريا بونثيه صخرةً. وضعت يداً فوق حاجبيها كواقي قبّعةٍ، وغرست نظرتها في السهل. عرض تيتو سيجارةً وقَبِلَها بيرغارا غراي، وجلس الرجلان للتدخين تحت الظلّ المؤقت لشجرة تين.

شكر وعرفان لمُعلّمتَيّ، عندما كنتُ تلميذاً: الآنسة لوثانو، وإمباكتا دومينغث، ولتيريزا كاليدرون على شعرها وحولياتها الألمعية.

أنطونيو سكارميتا:

كاتب من تشيلي، ولد في العام 1940 لوالدين من أصول كرواتية. درس الفلسفة والأدب في تشيلي ومن ثم في الولايات المتحدة الأمريكية. حصل على عدة جوائز أدبية أهمها الجائزة الوطنية للآداب - تشيلي.

ترجمت أعماله إلى عشرين لغة حول العالم، وجُسِّد بعضها في أفلام سينمائية، منها كتابه الأشهر ساعي بريد نيرودا (الصبر المتحرق) وأب سينمائي.

كتب وأخرج عدة أفلام سينمائية، كما عمل لفترة سفيراً لدولة تشيلي في ألمانيا.

عبد السلام باشا:

مترجم مصري مقيم في إسبانيا، ترجم عن الإسبانية العديد من الكتب، أهمّها: «سيرة ذاتية» و«حكايات» لخورخي لويس بورخيس، وروايتا «الهرطوقي» و«المجنون» لميجيل ديليبس، و«سؤال عينيها» لإدواردو ساشيري، وروايتا «تنفس صناعي» و«الطريق إلى إيدا» لريكاردو بيجليا، و«ملحمة الجاوتشو مارتين فيرو» الأرجنتينية.

إصدارات دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

أنخيل سانتياغو، الشاب الطموح الحالم، وبيرغارا غراي، اللصّ الشهير ذو الخبرة الواسعة، يستفيدان من عفوٍ رئاسي عام، ويخرجان، في اليوم نفسه، من السجن.

يسعى سانتياغو إلى الانتقام من ماضيه ومن تجربة السجن القاسية، بسرقةٍ كبيرة يأمل أن تبني له مستقبلاً جديداً، ويساعده في تنفيذها، بعد تردّد، غراي، الذي يسعى إلى استعادة حياته السابقة فقط.

تتقاطع مغامرتهما مع فكتوريا، طالبة المدرسة التي تحلم بأن تصبح راقصة باليه رغم كل الظروف التي تعاني منها.

عن الأحلام غير المكتملة يروي سكارميتا، في روايته الحائزة على جائزة بلانيتا، قصّةً دافئة مليئة بالمشاعر، عن ثلاثة أشخاص يجمعهم الحبُّ والصداقة والأمل بمستقبل أفضل، في بلدٍ ما يزال يعيش ظلال الدكتاتورية البائدة.

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

ISBN 978-9933-540-82-1

9 789933 540821 >